موسوعة

تطور علم التاريخ

(الجزء الأول)

محمود رفعت الحلو

حقوق الطبع محفوظة

لا يجوز طبع أو نشر هذا الكتاب للآخرين إلا بإذن خطي من المؤلف ولا يجوز إستخدام أي مادة من مواد هذا الكتاب أو نسخها أو إعادة نشرها أو نقلها كليا أو جزئيا بأي شكل أو أي وسيلة ومن يفعل ذلك يقع تحت طائلة المساءلة القانونية لحماية الملكية الفكرية

دار الأديب للطبع والنشر والتوزيع والترجمة
Dar Al-Adeeb for printing, publishing distribution and translation

اسم الكتاب: موسوعة : تطور علم التاريخ
اسم المؤلف: محمود رفعت الحلو
الطبعة: (الأولى)
الإخراج الفنى: قسم الاخراج بدار الأديب
تصميم الغلاف: قسم التصميمات بدار (الأديب)
رقم الإيداع: 8271- 2026
الترقيم الدولي: ISBN 978 - 977 - 84-0

دار الأديب
للطبع والنشر والتوزيع والترجمة

رئيس مجلس الإدارة
د. سيد غيث

Daraladeeb@gmail.com دار الأديب للطبع والنشر والتوزيع والترجمة 01014449164

المقدمة

التاريخ هو سجل البشرية، ومرآة الحضارات التي تعكس تطورها وإنجازاتها على مر العصور. إنه مجال علمي ينبض بالحياة، يأخذنا في رحلة إلى الماضي لفهم جذور الحاضر واستشراف المستقبل. فدراسة التاريخ ليست مجرد استذكار للأحداث، بل هي محاولة لفهم السياقات التي شكلت تلك الأحداث، والبحث عن الروابط التي تجمع بين الشعوب والثقافات المختلفة. من خلال دراسة التاريخ ، يمكننا استخلاص العبر التي تساعدنا في مواجهة تحديات العصر الحديث.

حيثُ تحتل الدراسات التاريخية مكانة محورية في بناء المجتمعات المتحضرة، إذ تساهم في تعزيز الهوية الوطنية وتوفير نظرة شاملة للإنسانية. والبحث في التاريخ ليس عملاً سهلاً؛ فهو يتطلب الغوص في أعماق المصادر، وتحليل الأدلة، وفهم السياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أثرت على الوقائع. وفي هذا الكتاب ، سنسلط الضوء على موضوع تطور علم التاريخ والحضارات الذي يُعد من أهم المحطات التاريخية التي شكلت ملامح العالم الذي نعيش فيه اليوم. حيث إن دراسة التاريخ هي رحلة فكرية تأخذنا في أعماق الماضي لنفهم أبعاد الحاضر ونتوقع ملامح المستقبل يمثل نقطة تحول بارزة في تاريخ البشرية، حيثُ أظهر لنا مدى تأثير القرارات والأحداث التاريخية على تشكيل العالم الذي نعيش فيه اليوم.

ودراسة الخلفيات التاريخية، وكذلك سوف نحلل السياقات والعوامل التي أثرت على تطور هذا الحدث، واستعرضنا تداعياته على مختلف المستويات. إن هذا العمل يمثل دعوة للتفكير العميق في القيم والدروس التي يمكن استخلاصها من التاريخ.

فلا شك أنَّ علم التاريخ كباقي العلوم يستند على حقائق علمية ثابتة من خلال الأدلة المروية عن المكان والإنسان، ومن خلال الأدلة المشاهدة الماثلة للعيان. فعلم التاريخ يقوم بتأصيل الأحداث والوقائع الهامة التي مرت على الأرض قبل الحياة البشرية، والأحداث التي جرَت بسبب الإنسان وهو ما يُعرف بالتاريخ البشري أو التاريخ الإنساني.

وكثير من الباحثين يتسألون عن موضوع علم التاريخ هل هو سير الملوك والأمراء وسير الأبطال الذين قادوا الأمم والشعوب؟! أم هو قصة لحياة طبقة من الطبقات دون غيرها؟! هل التاريخ يعني بدراسة الناحية السياسية فقط أم هو شامل للنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والفنية للحياة الإنسانية؟

حيث يتعامل منهج التفسير الإسلامي مع التاريخ إذًا على أساس أن (تاريخ البشرية ينقسم بادئ ذي بدء إلى قسمين رئيسين: تاريخ الإسلام وتاريخ الجاهلية. ثم ينقسم تاريخ الإسلام إلى فترات التوهج العقيدي وفترات الوجود العادي، كما ينقسم تاريخ الجاهلية إلى فترات التبلد والاستدامة للضغوط، وفترات الثورة عليها.

وكانت حجة الاكتشافات الجغرافية الجديدة التي باركها حكام اسبانيا الجدد الأندلس الفردوس المفقود تتمثل في التوسع البشري واكتشاف العالم، والانتقال الى عالم الحضارة والترقي، اضافة الى غيرها من الأسباب التي تعتبر ايذانا ببدء مرحلة جديدة من الاستعمار الاوروبي لجميع أنحاء العالم، واذا ما ذكرنا الأسباب على القياس الذي بحث فيه علماء ومؤرخو التاريخ الاسلامي فإن من أهم اسباب الاستعمار في مرحلة لاحقة تمثلت في نهب ثروات الأمم والشعوب في البلاد الإسلامية وآسيا وأفريقيا والأمريكيتين.

تطور علم التاريخ

ماهية علم التاريخ:

مَن لا تاريخ له لا حاضر له، هذهِ مقولة نؤمن بها أشد الإيمان، فالتاريخ دومًا هو الحافز والدافع للإنسان أن يتقدم ويُحرز شيئًا، فالتاريخ البشري بشكل عام هو علم تخصص به الدارسون وأفردوا لهُ جانبًا عظيمًا من الاهتمام.

فلا شك أنَّ علم التاريخ كباقي العلوم يستند على حقائق علمية ثابتة من خلال الأدلة المروية عن المكان والإنسان، ومن خلال الأدلة المشاهدة الماثلة للعيان. فعلم التاريخ يقوم بتأصيل الأحداث والوقائع الهامة التي مرت على الأرض قبل الحياة البشرية، والأحداث التي جرَت بسبب الإنسان وهو ما يُعرف بالتاريخ البشري أو التاريخ الإنساني.

فعلم التاريخ ــ إذًا ــ يُعطي تصورًا دقيقًا وواضحًا عن العالم القديم، والتجارب التي مرَّ بها الإنسان، وبالتالي تكون هذه الدراسة بابًا من تجنب ما وقعَ بهِ الأقدمون من الأخطاء والتي جرّت عليهم الويلات والدمار. فعلم التاريخ هو دروس ماضية تُفيدنا للتخطيط المستقبلي.

وأن علم التاريخ أحد العلوم الإنسانية؛ فهو متعدد الأغراض والمناهج في هذا العلم لابد وان يكون الإنسان أن يكون مُلمًا بعدد من العلوم المساعدة لدراسته وفهمه ومن ثم يستطيع مواصلة البحث للوصل إلى الحقيقة قدر المستطاع. يقول ابن خلدون:" إن فن التاريخ محتاج إلى مآخذ ومعارف متنوعة وحُسن نظر وتثبت يُفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المذلات والمغالطات.

هذا، وقد تخطى النقاش كون التاريخ علمًا أم أدبًا، وتوقف المؤرخون أمام التاريخ كموضوع حيوي لذاته وله أهدافه وموضوعه وأهميته وأسسه وطرائق بحثه. وحتى نبحث في هذه المادة المهمة وتكون الفكرة أكثر وضوحًا، تواجهنا أسئلة متعددة وسنحاول الإجابة عليها قدر المستطاع في هذا الكتاب الموجز. ومن هذه الأسئلة، ما هو التاريخ؟ وما هو الموضوع الذي يتحدث فيه؟ وما هي أهمية دراسة التاريخ للإنسان؟ وما هي العلوم التي يجب على الباحث في هذا العلم أن يكون مُلمًا بها؟ وماذا تقدم هذه العلوم المساعدة للباحث في التاريخ؟ وما مدى صلتها بعلم التاريخ؟.

أهمية دراسة علم التاريخ:

يعتبر التاريخ المادة الرئيسة والأساسية التي اختص بها عدد كبير من أهل العلم وذلك لأهمية علم التاريخ في حياة الشعوب. إن التاريخ هو السجل الكامل لمختلف الوقائع التي وقعت على وجه الأرض منذ بدأ الخليقة إلى يومنا هذا، لذا فهو واحد من أهم العلوم التي تدرس باستمرار في مختلف دول العالم.

إن للتاريخ أهمية قصوى في حياة الأمم والشعوب، لذا نجدها قد أولته رعايتها البالغة، وسعت إلى جمعه في شكل مدونات عن سير الأجداد أو عبر المحافظة على الموروثات أو من خلال

القصص الشعبي؛ ليؤدي دورًا مهمًا في تعبئة وجدان الناشئة، حتى ينشب الشبل ناسجًا على منوال أجداده، محافظًا على قيم شعبه الموروثة كابرًا عن كابر.

هذا، وقد احتل التاريخ مكانة عظيمة عند المسلمين، وذلك بتوجيه من القرآن الكريم قال تعالى:]لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وقال أيضًا : فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ــ أمر المسلمين أن يطيلوا النظر في مصائر الغابرين من الشعوب السابقة عِظة واعتبارًا، فقال:]أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ[فدراسة التاريخ عند المسلمين ليست للتسلية ولا لإضاعة الوقت وملء الفراغ أو لمجرد المعرفة وحفظ الحكايات، خاصة تاريخ الأمة الإسلامية على مر العصور وكر الدهور؛ وإلا لما ذكر الله ــ سبحانه وتعالى ــ تاريخ السابقين وقصص النبيين في كتابه العظيم.

معنى التاريخ في اللغة:

التأريخ في اللغة مصدر من أرخ بلغة قيس وهو اللفظ الشائع عند العرب ، وتاريخ كل شيء من حيثُ اللغة هو غايته ووقته الذي ينتهي إليه ، ولهذا يقال : فلان تاريخ قومه في الجود أي الذي انتهى إليه ذلك. و ربما استعملت الكلمة بمعني تراجم الرجال(الببليوجرافيا)، ومثال ذلك تاريخ البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري(194 ــ 256هـ / 810 – 870 م). وقد تستعمل بمعنى أخبار الماضي كعنوان" تاريخ الرسل والملوك" للإمام محمد بن جرير الطبري (224 – 310 هـ / 839 – 923 م) وهناك اختلاف بين العلماء في أصل لفظ " تاريخ " هل هو لفظ عربي أم هو لفظ فارسي ثم استخدمه العرب.

معنى التاريخ في الاصطلاح:

أما المعني الاصطلاحي للتاريخ عند أغلب المؤرخين فهو يقتصر على التقصي وطلب الحقائق عن تلك الأحداث التي وقعت في الماضي وهذا، وقد اختلف المؤرخون في تعريف التاريخ فعرفه ابن خلدون(المتوفى عام:808هـ/1405م) بقوله :"فنّ التّاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الرّكائب والرّحال..... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيّام والدّول

وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق ويقول السَّخَاوي (831 – 902 هـ / 1427 – 1497 م) : "إن التاريخ فن يُبحث عن وقائع الزمان من حيثُ التعين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان. بينما عرفه الكاف يجي(788 – 879 هـ / 1386 – 1474 م) ، بأنه " تعيين وقت لينُسب إليه زمان مطلقًا سواء كان مضيًا أو كان حاضرا أو سيأتي. ويعرفه المؤرخ الإنجليزي هرنشوHearnshaw(1869 – 1946م) بقوله:" قد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الأبطال والشعوب ، والتي وقعت منذ أقدم العصور واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر هذا، وقد يظن البعض أن التاريخ ما يبحث في أحداث الماضي وحده، وهذا الاعتقاد ليس صحيحًا؛ فالتاريخ يبحث في الماضي والحاضر والمستقبل معًا. وعلى ضوء هذا، فإن كلمة التاريخ " تعني مجموعة الأحداث التي وقعت في الماضي والتي تقع حاليًا، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوئه بما سوف يقع مستقبلًا.

هل التاريخ علم أم فن..؟:

هناك اختلاف بين أهل العلم والتاريخ والأدب في وضع التاريخ وإلى أي فرع يُنسب من فروع الإنسانية. فبعض العلماء ومنهم المستشرق .(جيفونز)، قال: "لايمكن أن يكون التاريخ علمًا لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، وبذلك لا يمكن في دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، نحو ما هو موجود بالنسبة للعلوم الطبيعية كعلم الكيمياء مثلاً، وقد أيد هذا الرأي (كارل بوير) في كتابة " عقم المذهب التاريخي " ومن الأدلة التي أوردها على كذب المذهب التاريخ: إن التاريخ الإنساني يتأثر في سيره بنمو المعرفة الإنسانية وهذا يوضح عدم إمكانية التنبؤ بكيفية نمو معارفنا العلمية، وبالتالي فلا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني وهذا يعني أنه يجب أن نرفض إمكان قيام علم تاريخي اجتماعي. أما بعض رجال الأدب فيرون أنه فن من الفنون : "وإن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضي سوى العظام المحروقة اليابسة وأنه لابد من الاستعانة

بالخيال لكي تُنشر تلك العظام وتُبعث فيها الحياة، ثم هي بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها.

ويؤيد ابن خلدون هذا الرأي بوصف التاريخ فن من الفنون، ففي مقدمته عرف التاريخ بقوله:" إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأجيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهّال، ويتفق مع هذا الرأي بعض المؤرخين الذين يروون أن التاريخ نوع من الأدب فهو يهتم بالتدوين القصصي للأحداث. والقصة نوع من الإنشاء الأدبي، وهو فن يحتاج إلى براعة الكاتب ليظهر لنا القصص التاريخية بمظهرها المناسب.

ويرى كثير من العلماء والمفكرين القدماء والمحدثين، من أمثال: أفلاطون وهيجل وماركس و أوجست كونت، أن التاريخ علم يبحث في الماضي ويتبع تطور المجتمعات في العصور السابقة.

ويخلص المؤرخ الإنجليزي بيوري الموضوع بقوله: " إن التاريخ علم لا أقل ولا أكثر.

ويرد هرنشو على مَن قال : إن التاريخ ليس بعلم، بقوله: " إنه على الرغم من أنه لا يمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم ، ويرى أنه يكفى في إسناد صفة العلم إلى موضوع ما أن يمضى الباحث في دراسته، مع سعيه إلى توخي الحقيقة وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس، وباعد نفسه عن كالافتراض سابق، مع إمكانية التصنيف والتبويب فيه.

ويضيف هرنشو: إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار بل هو علم نقد وتحقيق وإن علم الجيولوجيا هو أقرب العلوم الطبيعية إليه، فالمؤرخ والجيولوجي يدرسان آثار الماضي ومخلفاته حتى يستخرج ما يمكن عن الماضي والحاضر على حد سواء، بل عمل المؤرخ يزيد عن عمل الجيولوجي بدراسته وتفسيره العامل البشرى الانفعالي للوصول إلى الحقائق التاريخية قدر المستطاع.

وعلى ذلك، يمكن القول: إن التاريخ مزاجًا من العلم والأدب والفن في آن واحد.

أهمية دراسة التاريخ:

منذ القدم عرف الإنسان أهمية التاريخ وقيمته لذلك اهتم بدراسته وسارع إلى تدوين أخبار الإنسانية بداية على الذاكرة ثم على المباني والمنشآت والأحجار ثم دونت في الكتب . وذلك لمحاولة فهم أحداث التاريخ وتحليلها، وتفسير الأحداث البارزة، والاستفادة من تجارب التاريخ السابقة.

وعبر عن أهمية التاريخ السياسي الروماني شيشرون (106-43 ق.م) بقوله: " مَن لا يعرف التاريخ يبقي طفلًا أبد الدهر.

وقد رأى المؤرخون المسلمون أن دارسة التاريخ فيه عبر ومواعظ ودروس وتجارب، تجعل الدارس يتعلم من أخطاء الماضي ،ويقف على أسباب سقوط الدول وانهيار الحضارات، كما أنها تدفع بالدارس إلى الاقتداء بالشخصيات التاريخية البارزة كالرسل والقادة والعلماء . يقول ابن الأثير:" إنَّ الْمُلُوكَ وَمَنْ إِلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ إِذَا وَقَفُوا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ سِيرَةِ أَهْلِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ وَرَآهَا مُدَوَّنَةً فِي الْكُتُبِ يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ فَيَرْوِيهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ، وَنَظَرُوا إِلى مَا أَعْقَبَتْ مِنْ سُوءِ الذِّكْرِ وَقَبِيحِ الْأُحْدُوثَةِ وَخَرَابِ الْبِلَادِ وَهَلَاكِ الْعِبَادِ وَذَهَابِ الْأَمْوَالِ وَفَسَادِ الْأَحْوَالِ اسْتَقْبَحُوهَا وَأَعْرَضُوا عَنْهَا وَاطَّرَحُوهَا. وَإِذَا رَأَوْا سِيرَةَ الْوُلَاةِ الْعَادِلِينَ وَحُسْنَهَا وَمَا يَتْبَعُهُمْ مِنَ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدَ ذَهَابِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ وَمَمَالِكَهُمْ عَمَرَتْ وَأَمْوَالُهُمْ دَرَّتِ اسْتَحْسَنُوا ذَلِكَ وَرَغِبُوا فِيهِ وَثَابَرُوا عَلَيْهِ وَتَرَكُوا مَا يُنَافِيهِ هَذَا سِوَى مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْآرَاءِ الصَّائِبَةِ الَّتِي دَفَعُوا بِهَا مَضَرَّاتِ الْأَعْدَاءِ وَخَلَصُوا بِهَا مِنَ الْمَهَالِكِ واستعانوا نَفَائِسَ الْمُدُنِ وَعَظِيمَ الْمَمَالِكِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا غَيْرُ هَذَا لَكَفَى بِهِ فَخْرًا.

ومما سبق يمكن القول، إن دراسة التاريخ ضرورة لا غني عنها ليس لمعرفة الماضي فقط بل لفهم الحاضر والتخطيط للمستقبل.

ويؤيد هذا الرأي العلامة ابن خلدون بقوله: " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يروهم في أحوال الدين والدنيا.

كما بين السخاوى فائدة التاريخ؛ وهي معرفة حقيقة الأمور وكذلك أنه أحد الطرق التي يمكن بها معرفة النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما.

ولاشك أن الإنسان لا يستطيع معرفة نفسه وحاضره دون أن يعرف الماضي، ومن خلال فهمه للماضي يستطيع الحصول على خبرات السنين السابقة، والتدبر في حوادث الماضي يجعل الإنسان بعيدًا عن ذاته، فيرى مالا يراه في نفسه بكل سهوله من محاسن الآخرين وعيوبهم، مما يجعله أكثر قدرة على معرفه نفسه وأقدر على حسن التصرف في مواجهة المواقف في الحاضر والمستقبل.

إن ماضي الشعوب والإنسان مليء بالأحداث المختلفة وله مكانته عند الإنسان في كل أدواره ومراحله، سواء كان عصر المجد والقوة والرفاهية، أم عهد النكبات والآلام والمحن، والأقوام الذين لا يعرفون ماضيهم لا يعتبرون من الشعوب المتحضرة.

صفوة القول، أنه لا غني للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كتابًا اجتماعيًا، فينبغي عليه أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماله وآثاره ليدرك ما هو حقٌّ وإلى مَن ينتمي.

موضوع علم التاريخ :

كثير من الباحثين يتسألون عن موضوع علم التاريخ هل هو سير الملوك والأمراء وسير الأبطال الذين قادوا الأمم والشعوب؟! أم هو قصة لحياة طبقة من الطبقات دون غيرها؟! هل التاريخ يعني بدراسة الناحية السياسية فقط أم هو شامل للنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والفنية للحياة الإنسانية؟!

يرى بعض المؤرخين: إن موضوع علم التاريخ هو البحث عن نوع معين من الحقائق، وهو جهود وانجازات الإنسان في الماضي.

بينما يرى فريق آخر: إن التاريخ هو العلم الذي يحاول الإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بالجهود التي قامت بها الإنسانية منذ بدايتها سواء في النواحي السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الفنية.

وعلى كل حال، فإن التاريخ يكشف لنا ثمرات العقل الإنساني من علم وأدب وفن وما مرت به الدول والشعوب من كوارث ومحن وآلام ومصاعب، وما أرتقت إليه من مجد وعظمة. إن التاريخ

يبين لنا مراحل تطور الإنسانية السياسي والاجتماعي والفني ، يقول السخاوى: "وأما موضوع التاريخ فالإنسان والزمان، ومسائلة أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان.

أطوار الكتابة التاريخية:

مرت الكتابة التاريخية في أطوار متعددة ، ففي الوقت الذي كان التاريخ مجرد سرد للأحداث أو تدوينها دون نقد أو تمحيص أو محاولة التثبت من صحتها، كان أول صورة دون بها التاريخ كانت في صورة قصصية. حيثُ ذكرت الأخبار الأولى عن الأحداث التي مرت بالخليقة منذ نشأتها الأولى كقصة خلق الإنسان ، والطوفان .... إلخ. فقد بدأ الإنسان منذ فجر الخليقة يحكي لأبنائه وأحفاده القصص عن الأجداد والسلف. وبالطبع امتزج هذا القصص الحقيقي بالخيال وبذلك بدأ الإنسان يهتم بأخبار أسلافه السابقين. ولعل الهدف الأساسي هو اتخاذ العظة والعبرة من الماضي وتوضيح الحاضر ، والنظر إلى المستقبل في ضوء هذا الماضي بعظاته وعبره.

هذا، وقد مرت الكتابة التاريخية بعدة مراحل، منها: أيام المصريين القدماء، والبابليين.

والإغريق، والرومان، وقد أثرت المسيحية في تقييد الأحداث التاريخية ، ثم اتسع مفهوم علم التاريخ عند العرب، فكان منه: القصص والأساطير الشعبية ، ثم ظهر مؤرخو المغازي والسير ومن أشهرهم: موسى بن عقبة (المتوفى عام: 141هـ/ 758م)، ومحمد بن إسحاق (المتوفى عام: 150هـ/ 768م)، ومحمد بن عمر الواقدي (130 – 207 هـ / 747 – 823 م) ، وابن هشام(محمد عبد الملك بن هشام المعافري، المتوفى عام: 213 هـ/ 828 م)، ومحمد بن سعد (168 – 230 هـ / 784 – 845 م)، وغيرهم ومنذ أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، توسع المؤرخون المسلمون في تسجيل الأحداث التاريخية، فقد توفرت لديهم مادة تاريخية من خلال الدواوين؛ ومنها: ديوان الإنشاء ، وديوان الجند، وديوان الخراج ، وديوان البريد ...إلخ بالإضافة إلى اطلاع المؤرخين المسلمين على الكتب التي ترجمت من اللغات الأجنبية كالفارسية والهندية واليونانية والرومانية إلى اللغة العربية ثم كان للضعف السياسي في العصر العباسي الثاني أثره في حركة التدوين التاريخي فكان لظهور الدويلات المستقلة عن الدولة العباسية أثرٌ

على الكتابة التاريخية، فبدأ يظهر ــ بوضوح ــ ما يعرف بكتابة التاريخ المحلي ومنها: كتاب "فتوح مصر" لابن عبد الحكم(المتوفى عام: 257هـ / 871م) ، وكتاب" ولاة مصر وقضاتها" للكندي(محمد بن يوسف الكندي، المتوفى عام: 350 هـ/ 961م)، وكتاب "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر(علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، المتوفى عام:571هـ/ 1125م) وكتاب "البيان المغرب في أخبار المغرب" لابن عذارى المراكشي:(المتوفى نحو: 695 هـ نحو 1295 م) ومع ذلك ، فقد استمرت حركة التدوين في التاريخ العام للمسلمين، مثل :كتاب" تاريخ الرسل والملوك "للطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، المتوفى عام: 310هـ/922م) وكتاب" مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي(على بن الحسين بن على، المتوفى عام: 346هـ/957م) ، وكتاب" تجارب الأمم" لابن مسكويه(أحمد بن محمد بن يعقوب، المتوفى عام: 421هـ/ 1030م)، وكتاب" الكامل في التاريخ" لابن الأثير(على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المتوفى عام: 630هـ / 1233م)، وكتاب" المختصر في أخبار البشر" لأبي الفدا(إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاه نشاه، المتوفى عام: 732هـ /1331م)، وكتاب" العبر وديوان المبتدأ والخبر" لابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المتوفى عام:808هـ/1405م)، والذي ذكر في مقدمته فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، وأشار إلى أخطاء المؤرخين ، فحذر من الوقوع تحت تأثير النقل من الأقدمين ، دون مراعاة لأصول البحث العلمي في النقد.

من صفات المؤرخ:

البحث التاريخي ليس بالأمر السهل اليسير ، فهو يتطلب أن تتوفر في المؤرخ شروط قد لا يستلزم توفرها في غيره ممن يتعرضون لألوان أخرى من الكتابات الأدبية مثلًا أو البحوث في مجالات أخرى. ولضمان علمية التاريخ يشترط في مَن يتصدى للاشتغال في مجاله أن يكون متصفًا بصفات معينة، منها:

الصبر والمثابرة : فالبحث في مجال التاريخ يتطلب جهدًا كبيرًا متواصلاً ، في التفتيش عن المادة التاريخية ،المتمثلة في الوثائق المكتوبة والآثار غير المكتوبة ، كما قد يتطلب اللجوء إلى السفر

والانتقال إلى مواقع الأحداث التاريخية ، وإلى المكتبات العامة ودور المخطوطات والمحفوظات والمتاحف وغيرها من الأماكن التي يحتمل أن يبحث فيها على بعض ما يحتاجه الباحث من مادة تاريخية لإنجاز بحثه .

الأمانة : لابد للباحث أن يتصف بصفة الأمانة إذا أراد الوصول إلى نتائج صحيحة. فأمانة الباحث هي التي تحول دونه ودون الكذب والانتحال والتزوير وإخفاء الحقائق التي لا تناسب الرأي العام.

الشجاعة : وهي صفة على درجة عالية من الأهمية ، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بصفة الأمانة ، إذ تمنح الباحث القدرة على مناصرة الحقيقة والجهر بها مهما كانت ، وتحمّل تبعات إبرازها دون خوف أو وجل .

الموضوعية وعدم التحيز : إذ لا جدوى من كل الجهود التي يبذلها الباحث مالم يتصف بالموضوعية وعدم التحيز . فجهوده كلها تهدف إلى بلوغ الحقيقة ، فإذا اتصف بعدم الموضوعية وبالتحيز والانسياق وراء هواه وميوله وعواطفه ، فعند ذلك يفسد ثمرة جهوده وينحرف عن الهدف الذي لابد أن تتجه إليه ؛ وهو الوقوف على الحقيقة التاريخية وإبرازها للناس.

التواضع والعزوف عن الشهرة والزهد في المناصب : وهي صفات ضرورية تحمي الباحث وتقيه من شرور اللهث وراء الأضواء والتكالب على المناصب والحرص على البروز ، لما في ذلك من تبديد لوقته الثمين ، من ناحية ، ولما يمكن أن تفرضه عليه من تنازلات ومن سلوك يتصف بالمحاباة والتزلف والتصنع ، من ناحية أخرى . فيخرج بذلك عن إطار العلم ويعجز عن خدمة التاريخ خدمة منزهة .

الملكة النقدية : فالتمتع بملكة النقد صفة لازمة للمؤرخ ، الذي لا يتعامل مع موضوع مباشر يستطيع ملاحظته ، بل يتعامل مع حدث مضى من خلال ما روي عنه وما خلفه من آثار ووثائق، قد يلحقها التحوير والتزوير والتشويه والاختلاق . لهذا لابد للباحث من أن يتصف بالقدرة على النقد وتمييز الصحيح من الكاذب .

العقل المنظم : فالباحث لا يستطيع أن ينجز أي بحث علمي ما لم يكن متمتعًا بعقل منظم ، قادرًا على التمييز بين عناصر البحث وترتيبها وتنسيقها وتحديد العلاقات بينها واستخلاص النتائج المنطقية منها .

التفهم والإحساس والقدرة على التخيل : فالباحث في مجال التاريخ ، ما لم يكن قادرًا على تفهم مشاعر وأفكار ودوافع صانعي الأحداث التاريخية في العصر الذي يدرسه ، فإن أحكامه عليهم وأفعالهم ستكون أحكامًا قسرية متسمة بعدم الموضوعية .

هذا قليل من كثير من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الباحث في مجال التاريخ حيثُ هذه الصفات إضافة إلى استخدام المنهج التاريخي استخدامًا سليمًا والتزود بالمهارات والمعارف والعلوم المساعدة لدراسة التاريخ ، تكتسب البحوث في حقل التاريخ صفتها العلمية. ويصبح التاريخ علمًا من العلوم يختلف في منهجه عن مناهج العلوم الطبيعية من بعض الوجوه ويتفق معها من وجوه أخرى، دون أن يلغي اختلافه عنها صفته العلمية التي يكتسبها من كونه يمتلك منهجًا متدرج الخطوات واضح الهدف يبدأ بالتساؤل وينتهي بإعطاء الإجابات العلمية المتسمة بالحياد والموضوعية والمبنية على جهد بحثي منظم .

العلوم المساعدة لدراسة التاريخ:

إن المؤرخ أو الدارس للتاريخ عليه أن يعلم إن هذه الدراسة تتطلب منه الجد والاجتهاد والمثابرة والصبر والنصيحة. والتاريخ شأنه شأن بقية العلوم والمعارف ؛ فالعلوم الإنسانية متداخلة ومترابطة فيما بينها، بحيث لا يمكن أن تدرس علمًا مستقلًا عن بقية العلوم والمعارف الأخرى. فعلى سبيل المثال، لا يستطيع الدارس أن يفهم معاني القرآن الكريم دون أن يتقن اللغة العربية، وعلوم القراءات والتجويد ، وكلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه ومعرفته بمعاني القرآن الكريم.

ونِعْمَد لك المثال بالشبه لدراسة علم التاريخ والتي تحكمها علاقة قوية بمختلف أنواع المعارف الإنسانية ، لهذا كان لزامًا على المؤرخ أن يكون واسع الثقافة، عالما بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته. فالمؤرخ يحتاج إلى مجموعة من العلوم المساعدة التي تساعده وتعينه على الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أن هذه العلوم تختلف أهميتها بالنسبة للمؤرخ باختلاف العصر أو الموضوع الذي يود دراسته والكتابة عنه. فمثلاً، العلوم المساعدة لدراسة تاريخ مصر القديم

تختلف عن العلوم المساعدة لدراسة تاريخ الفتوحات الإسلامية. وهذا يعني أن المؤرخ ممكن أن يستخدم أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع معين ولا يستخدمه عن دراسة لموضوع آخر.

وعلى ذلك، يمكن تقسيم العلوم المساعدة في دراسة علم التاريخ إلى قسمين:

العلوم الاجتماعية:

يعتبر علم التاريخ فرعًا من فروع الدراسات الاجتماعية، ولذا فهو على صلة وثيقة بالعلوم الاجتماعية الأخرى كعلم النفس وعلم الجغرافيا وعلم الاقتصاد وعلم الإنسان. وهذه الصلة تجعل من واجب المؤرخ والباحث في التاريخ أن يكون لديه معرفة بهذه العلوم، إذ بدون هذه المعرفة لا يمكن أن يؤدي رسالته كباحث تاريخي بالصورة المطلوبة.

ومن أهم العلوم الاجتماعية التي يمكن أن يستفيد منها المؤرخ والباحث في التاريخ ، ما يلي:

علم الإنسان (الانثروبولوجيا):

إن المؤرخ لابد أن يكون على علم ودراية بأكثر العلوم التي تسانده على الإجادة والإفادة وفي مقدمتها علم الإنسان الذي يعتبر بالنسبة للأجناس البشرية مرآة حياتهم وحضاراتهم، ومن خلاله يستطيع الوصول إلى أفكارهم وعواطفهم الإنسانية.

كما أن علم الإنسان يعتبر أقرب العلوم الاجتماعية ملائمة للتاريخ، لأن المشكلات التي يواجها علماء الإنسان والمؤرخون أغلبها مشتركة، والخط الفاصل بين هذين العلِمين غير واضح. فعلماء الإنسان يعكفون على دراسة ثقافة الإنسان البدائي، أما علماء التاريخ فيدرسون الإنسان المتحضر. وتتفق مكانة علم الإنسان وعلم التاريخ في باب العلوم الإنسان العملية إذ إن مادتيهما ذات صبغة عامة، وأن علم الإنسان موجود كالميدان الذي يلتقي فيه كل من له اهتمام بالإنسان.

إن علم الأنثروبولوجيا يتعرض إلى المسائل التاريخية عندما يتتبع التطور البشري وانتشار السكان على سطح الأرض، وبداية ظهور الثقافات والحضارات والهجرات والبناء الاجتماعي.

ومن هنا أستطيع القول: إن الثقافة تعتبر إحدى المفاهيم الكبرى لعلم الإنسان، كما أن التاريخ

يعتبر سلسلة متتابعة من ثقافات متميزة، فكل تاريخ يتولد من ثقافة، كما أن كل ثقافة تتولد من تاريخها.

وفي الحقيقة، إن الثقافات محصلة التاريخ ونتاجه، إلا أن التاريخ يتأثر بطبيعة الإنسان البيولوجي وبيئته المادية. وغالبًا ما يكون هناك اقتران بين المنطقة الثقافية بالعوامل المعينة الأخرى التي تحدد المنطقة جغرافيًا. إن حياة شعب ما لا تنظمها ثقافته فحسب، بل هناك شراكه مع التحديات التي يفرضها الطقس وخصائص المكان والحيوانات والنباتات وغيرها من الموارد الطبيعية والمكان بالنسبة للثقافات الأخرى.

فمن الممكن أن أقول: إن المفاهيم المتصلة بالثقافة والتغير الثقافي تزود المؤرخ بخلاصة العلاقات البشرية وطبيعة الثقافات الإنسانية قبل التاريخ، بالإضافة إلى تحليلها سواءً كانت شفوية أو مدونة.

يقول هيوج . أتكن: " إن علماء الإنسان قد جرو من زمن طويل على الاعتراف بأن هناك طقوسًا ذات صبغة عامة كإقامة الجنائز وشعائر الموت ، ومن هنا نشأت اللغات وتطورت الفنون عند الشعوب فإن المستفيد من ذلك هو المؤرخ عندما يبين حقيقة وأسرار الماضي ويتوصل إلى مؤشرات تاريخية من خلالها يستطيع أن يفسر كثير من العلاقات البشرية في الوقت الحاضر.

خلاصة القول: إن التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية، وهو العلم الخاص بالجهود البشرية أو محاولة الحصول على إجابات عن أسئلة تتعلق بجهود البشرية في الزمن الماضي وفيها نتعرف على جهود المستقبل، وبدون شك فإن التاريخ يصبح علمًا له أصوله.

علم الاجتماع:

هناك علوم انفصلت عن علم التاريخ، وعلوم أخرى اعتمدت على نفسها وسارت في طريقها مثل علم الاجتماع؛ والذي يدرس المجتمع وبنائه ووظائفه وعملياته ويركز على الأفعال والعلاقات الإنسانية.

في الحقيقة إن البحث التاريخي يعنى بالتغير الاجتماعي، وعلى ذلك فإنه يشمل ميدان علم الاجتماع حسبما يتضح في المنظور الزمني الذي يتخصص فيه الباحث. إن هناك قصور في المواد

التاريخية التي يعود إليها المؤرخ وتتبعه لبعض مظاهر التغير الاجتماعي؛ مثل التغير السياسي والديني والعسكري. مما جعل اهتمام المؤرخين يتحول عن الإطارات الاجتماعية للمجتمعات القديمة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن أغلب علماء الاجتماع ركزوا اهتمامهم الأكبر نحو دراسة الأنماط والمعايير التي يهيئها التفاعل الاجتماعي في مجتمعاتهم الحالية.

إن المؤرخين قد يكتسبون أفكارًا ومدركات جديدة عن طريق دراسة مكاتبه علماء النفس وعلماء الاجتماع عن الأسرة والجماعة، فلكل مجتمع من المجتمعات آماله المرجوة ومثله العليا التي توجه أفراده ليعملوا بموجبها، وهذه المعايير الاجتماعية يجب على المؤرخ أن يكون ملمًا وعارفًا بها.

إن من الأمور التي يولي لها المؤرخون وعلماء الاجتماع الاهتمام دراسة (الطبقات الاجتماعية)، والتي يمكن تعريفها بأنها تجمعات أفراد ليس لهم غالبًا أي مميزات فارقة أصيلة.

ومن المواضيع التي على المؤرخ دراستها دور الوظيفة الاجتماعية، بحيث تشمل هذه الدراسة مختلف الأدوار التي يؤديها الأفراد حين القيام بتلك الوظيفة ، كما أن دراسة الانتقال في المجتمعات الصناعية المتقدمة من مرحلة العرف والعادات والتقاليد الشعبية إلى العادات والتقاليد والأعراف المدنية، توفر للمؤرخين وعلماء الاجتماع فرصة ممتازة للتعاون. فيسهم فتوسيع مجال الفكر والبحث عند المؤرخين، بل ويساعدهم في عملية تحليل محتوي البحث ومضمونه.

خلاصة القول، إن هناك كثير من الوشائح والصلات بين كل من علمي الاجتماع والتاريخ، فعلم الاجتماع بفروعه المختلفة يساعد المؤرخين في دراسة وتحليل وفهم الأحداث التاريخية التي لا يمكن أن تحدث إلا في مجتمع أو وحدة اجتماعية وتتأثر بالأوضاع السائدة فيه.

علم السكان:

من العلوم التي ينبغي على المؤرخين الاعتناء بدراستها علم السكان؛ والذي يهتم بدراسة أحوال الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافي والمتغيرات التي تحدث فيها؛ مثل: نسبة المواليد والوفيات والهجرات .... إلخ. وغالبًا ما تستخدم بيانات ومعلومات هذا العلم من المصادر الرسمية، إما عن طريق قوائم الإحصاءات السكانية والتي يتم إجراءها في أوقات محددة، أو عن طريقة

السجلات الرسمية، مثل: سجلات الزواج وسجلات الوفاة والولادة، وسجلات الهجرة إلى داخل البلاد وخارجها. فعلى الباحث أن يدرس العلاقة القائمة بين السكان والعوامل الأخرى المؤثرة في الدوافع الإنسانية المحركة للأحداث التاريخية.

خلاصة القول، إن علم السكان له صلات وثيقة مع العلوم الاجتماعية وخاصة علم التاريخ، وهذا يعود إلى توسع في دراسات علم السكان وتفسيراته في هذا المجال واستعماله لبعض المفاهيم والمفردات.

علم الجغرافيا:

لا يخفى على دراسي التاريخ أهمية دراسة الجغرافيا عامة؛ وجغرافية الإقليم المطروح للدراسة خاصة. وذلك لأن الجغرافيا – كما يقول الدكتور جمال حمدان – " قد تكون صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها، فالتاريخ ظل الإنسان على الأرض كما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان. فالتاريخ – كما عبر البعض – ما هو إلا جغرافية متحركة، بينما الجغرافيا تاريخ توقف. فلا يتصور – مطلقًا- فهم الإنسان، بدون دراسة البيئة الجغرافية التي نشأ وتربى فيها، إذ لا يخفى – على أحدٍ – أن أثر البيئة كبير على الإنسان، أو كما يقول الأستاذ "هنري بر" Henry Berrالمشرف على صدور الموسوعة التاريخية الكبرى " تطور الإنسانية" في تقديمه للمجلد الرابع منها، وعنوانه: "الأرض والتطور البشري"، يقول: " لا ريب أن أثر البيئة قوى جدًا على الإنسان؛ فالجفاف، والرطوبة، والرياح، والضوء، والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تُعدل من صفات الكائن الحي تعديلاً دائمًا أو مؤقتًا. سواء كان هذا الكائن حيوانًا أو نباتًا. إن البيئة – بلا شك – تركت أثرها القوي في تكوين الإنسان خَلْقًا وتفننًا. لا شك ــ إذًا ــ أن هناك علاقة وثيقة بين التاريخ والجغرافيا، فالأرض هي المسرح الذي وقعت عليه الحوادث التاريخية، فبدون الأرض لا يمكن أن تقع الحادثة.

إن طبيعة الأرض ومصادرها وبما تتميز به من صفات، أثرت تأثير كبيرًا في بيئة الإنسان ووجهت ظروفه وحددت ملامح تفكيره. بل إن الظواهر الجغرافية من سهول وجبال وصحاري وأنهار

وبحار والثروات الطبيعية والموقع الجغرافي كلها تؤثر في تكوين الإنسان الفسيولوجي والنفسي ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل في سير معاركه وفي حربه وسلامه.

هذا، وقد لعب الموقع الجغرافي الاستراتيجي لبعض الدول دورًا كبيرًا في تحركها نحو الحضارة والتجارة والتوسع وبناء الإمبراطورية. كما أن الطبيعة الجغرافية تتدخل أحيانًا تدخلًا حاسمًا في تغير مجرى الأحداث التاريخية.

يضاف إلى ذلك أن المناخ له دور كبير في حركة الإنسان وتقدمه الحضاري، فعندما يكون المناخ مناسبًا للحياة يكون الاحتكاك الاجتماعي أسرع. فعادةً ما تنشأ الحضارات من الاحتكاك المتمثل في البيع والشراء، بل إن المناخ يتدخل أحيانًا في تغيير مجرى بعض الحوادث التاريخية.

يضاف إلى ذلك، أن للثروة الطبيعية أثرها الكبير في التاريخ، فغالبًا ما تنشأ الحضارات في السهول والوديان حيثُ المراعي والمزارع فوجود نهري دجلة والفرات في العراق مكّن الإنسان منذ القدم من الزراعة والاستقرار وبناء الحضارة. فالدولة الغنية بهذه الموارد الأولية إذا كانت قوية فإنها تستغل هذه المصادر لتزيد من قوتها. وأما إذا كانت الدولة فقيرة ومتخلفة فإن وجود هذه الموارد الطبيعية على أرضها يكون سببًا رئيسًا للطمع فيها وغزوها.

صفوة القول، أن علم الجغرافيا ضروري لدارسي التاريخ، ودورها مهم في فهم الأحداث التاريخية، فعلى الباحث في التاريخ ــ إذًا ــ أن يتعرف على الأحوال والعوامل الجغرافية المختلفة التي تحيط بالشعب أو بالعصر أو بالناحية التي يدرسها على النحو الذي يزيد من إمكانيته في البحث والدرس والفهم.

علم الاقتصاد:

هو العلم الذي يعنى بدراسة نشاط الإنسان الاقتصادي وأنظمة الإنتاج التي عرفت عبر التاريخ، وهو يعتبر أحد العلوم المهمة المساعدة على دراسة التاريخ وفهمه بشكل صحيح. وذلك لأن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعال على مسار التاريخ الإنساني. إن الوضع السياسي في أي دولة ــ عادة ــ ما يتأثر بالوضع الاقتصادي، فطريقة توزيع الثروات الاقتصادية، سواء المادية أو النقدية، على طبقة أو فئات من المجتمع له تأثيره على السياسة الداخلية، ويحدد علاقة هذه

الطبقات والفئات مع بعضها البعض، ويفصح عن نظام الحكم ومستوى المعيشة، وفي مدى التقدم الحضاري الذي يحصل فالدولة القوية اقتصاديًا ــ عادة ــ ما يكون النظام السياسي فيها مستقر والعمران والرخاء مزدهر، كما أن الوضع الاقتصادي له تأثيره في علاقات الدول الخارجية، سواءً العلاقات الاقتصادية أو العسكرية ،أو السياسية.

والجدير بالذكر أن هناك ثلاثة ميادين مهمة من ميادين البحث الاقتصادي تهم المؤرخ، وهي: تحليل دورة العمل، والتقدم الاقتصادي، وتنظيم العمل.

وفي الختام يتضح لنا مما سبق ذكره، أهمية العوامل الاقتصادية في حدوث التغييرات التاريخية، ولابد أن أي محاولة لتفسير الحوادث التاريخية دون النظر إلى دراسة علم الاقتصاد دراسة مهمة.

العلوم السياسية.

لازالت الأحداث السياسية تشكل ملامح التاريخ العام وتلقي الجانب الأكثر من اهتمام من أغلب المؤرخين. إن علم السياسية يهتم في المقام الأول بتكوين الجماعة السياسية المؤثرة، وعلى العوامل التي تقف خلف صناعة القرار وطريق الحكم والسلطة ووضع الدساتير والعقوبات التي تصدرها الحكومات ضد المخالفين لأنظمتها.

ومن أهم اهتمامات علماء السياسة ــ أيضًا ــالاهتمام بالعوامل الحاسمة في رسم السياسة العامة للدولة وتنفيذها. ويعنون كذلك بنظم الحكم المقارن، والعوامل الاجتماعية التي تحرك القرارات السياسية وأصولها التاريخية وتحولاتها، والاهتمام بالنظام الذي ينسق المعتقدات السياسية، وهو ما يعرف " بالأيدولوجية " والتي تنبع من الفلسفة السياسية والقانونية فعلى المؤرخ الاهتمام بهذا الجانب لارتباطه بالقرارات السياسية والتي هي بدورها تصبح أحداثها تاريخية. ومن خلال ذلك ممكن معرفة كيف تسير الدولة وكيف تعمل مؤسساتها التشريعية والقضائية، كما أن على المؤرخ المقارنة بينها وبين مؤسسات مشابهة أو مختلفة في بلاد أخرى، ليحقق المؤرخ أهدافه من الكتابة.

ومن أهم الجوانب التي يعني بها علم السياسية؛ والعلاقات الدولية التي تعرف بالدبلوماسية. ويعتبر هذا الجانب في غاية الأهمية للمؤرخين؛ وذلك لأن العلاقات بين الدول والمعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بينها تشكل اتجاه السياسية العالمية، وقيام التحالفات العسكرية والقومية

بين الدول، وكذلك قيام الحروب، وعقد المعاهدات. كل ذلك منبعه من علم السياسية من جهة، ومن جهة أخرى فهو المصدر الأول للمعلومات بالنسبة للمؤرخ.

ومن ميادين علم السياسية ــ أيضًا ــ تاريخ الفكر السياسي وتطوره وفكرة ظهور الدولة، وهي الوحدة السياسية للمناطق المتحدة. وهذا المجال يهم المؤرخ بل يعتبر من صميم عمله، فالتاريخ يبدأ من نشوء المجتمع الذي نسميه الدولة.

وفي الختام يمكن القول، إن كل ما يضعه علماء السياسية في الوقت الحاضر، أو تاريخ السياسية في الماضي من شروحات وتحليلات بين يدي المؤرخين، سوف تكون أداة مفيدة ونافعة تساعد المؤرخ على الإبداع في كتاباته ومؤلفاته التاريخية.

علم النفس:

يعتبر علم النفس من أهم العلوم التي يجب على المؤرخ معرفتها والإحاطة بها، وتأتي هذه الأهمية من أن معرفة نفسية الحاكم أو الزعيم وكل ما يتعلق بها من عقد ورواسب تكون سببًا في حدوث تغير في مصائر الأمم والشعوب ،

ولكي يفهم المؤرخ تاريخ العلوم في بلد معين لابد من دراسة السيكولوجيا الاجتماعية، فبدونها من الصعب فهم التطور المادي في المجتمع. ونعني بالسيكولوجيا الاجتماعية هي العواطف والأفكار إلى تسيطر في زمن ما على طبقة اجتماعية معينة في بلد معين. إن دراسة السيكولوجيا الاجتماعية تساعد المؤرخ على أمرين في غاية الأهمية بالنسبة للبحث التاريخي: أولهما: تشخيص الحقائق التاريخية، وثانيهما: وضع تفسير ومبادئ لتفسير هذه الحقائق.

إن المؤرخ الذي لا يدرك أهمية علم النفس في دراسته لا يستطيع تحليل الوقائع التاريخية التي تنشأ بسبب هذه الأمراض النفسية تحليلًا سليمًا وسيشكل عليه الأمر ولا تستقيم له الأحكام.

الأدب والفنون:

يعتبر الأدب أحد العلوم المساندة للمؤرخ، حيثُ أن الأدب هو مرآة لحياة الشعوب، ومن خلاله يعبر الأدباء عن كل ما يجول في أفكارهم وأحاسيسهم ومشاعرهم وتفاعلهم مع الأحداث. كما إن

الأدب يصور ما بداخل الناس من أحلام وأماني، ويرسم طبيعة الحياة في المدينة أو في الريف أو في الاقتصاد أو في الحرب والسلام.

إن الأدب له أهمية كبرى في دراسة التاريخ، وذلك لاحتوائه على كثير من المعلومات التي قد لا توجد في بعض المصادر التاريخية الأخرى. في تراث الشعوب وحضاراتهم القديمة نجد أعمالاً أدبية تذكر حوادث تاريخية متعددة، تصور حياة البشر من نواحي مختلفة. وبالتالي قد تكون مصدر من مصادر التاريخ التي يُعتمد عليها.

كما توجد في التاريخ العربي أعمال أدبية تساعد المؤرخين على معرفة التاريخ العربي وأهم الأحداث التي وقعت فيه، لذا فقد قيل: إن الشعر الجاهلي "ديوان العرب". فمن خلال هذا الشعر يمكننا أن نتعرف على كثير من النواحي الاجتماعية والنفسية عند العرب في العصر الجاهلي.

إن علم الأدب يقدم خدمات كبيرة للمؤرخين بما يحتوي من معلومات تاريخية متنوعة في كل المجالات، فدراسة الأدب توسع عقل الإنسان وآفاقه وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب من غيره.

أما عن الفنون، فإن معرفة المؤرخ بالفنون المتنوعة من رسم وتصوير ونحت وعمارة، تساعده على فهم تاريخ العصر المراد دراسته. من خلال دراسة هذه الفنون يستطيع التعرف على كثير من المناطق التي وجد فيها الإنسان، كما أنها تبين لنا كثيرًا من خفايا حياة الإنسان من حيثُ العادات والتقاليد والأخلاق.

لذا، فإننا نجد كثيرًا من الجامعات والمعاهد في أنحاء العالم قد أدركت أهمية الفنون فجعلت هذا النوع من الثقافة في المناهج الدراسية كما خصصت لها كرسي خاص بالأساتذة.

مما سبق يتضح لنا ، أن الفنون بشتى أشكالها تخدم سائر الدراسات الإنسانية والعلمية والتي يأتي في مقدمتها علم التاريخ، كما أن دراسة شيء من هذه الفنون تساعد على فهم هذا العصر ومن ثم براعة الكتابة عنه.

علوم الآثار والتراث:

علم الآثار أو الأركيولوجيا : (Archaeology) هي فرع من فـروع علم الإنســان الذي يركز

على المجتمعات والثقافات البشرية الماضية وليس الحاضرة . وتدرس تحديدًا المصنوعات الحرفية كـالأدوات والأبنية والأوعية ... إلخ وما بقي منها، والتي استمرت بالتواجد للوقت الحاضر. كما يدرس أيضًا الحفريات الإنسانية والبيئات الماضية لكي يُفهَم مدى تأثير القوى الطبيعية كالمناخ والطعام المتواجد" ــ على سبيل المثال ــ على تشكيل الثقافة الإنسانية .

هذا، وقد تعددت علوم الأركيولوجيا فأصبح لها أهمية كبيرة في دراسة علم التاريخ ، ويأتي في مقدمة هذه العلوم:

علم المسكوكات (النميات):

هو العلم الذي يهتم بدراسة النقود والمسكوكات وتطورها عبر العصور. فالمسكوكات تعتبر أحد أهم مصادر دراسة التاريخ المهمة. فالعملة المسكوكة والأنواط بما تحمل من رموز وصور الآلهة وصور الملوك والأمراء وأسمائهم وتاريخ ضربها وذكرى الحوادث التاريخية ونوعية المعادن المسكوكة فيه، تقدم للمؤرخين معلومات تاريخية قيمة عن مختلف نواحي الحياة قديماً.

إن المسكوكات (النقود) القديمة مرآة الاقتصاد في عصرها التي ظهرت فيه، لأن الغرض من سك النقود هو تسهيل النشاط التجاري حيثُ كان التعامل قبل ظهور النقود بقطع المعادن الثمينة، مثل: الذهب والفضة، ونظرًا لشدة التنافس على الحركة التجارية بين المدن تدخلت حكومة الدويلات ووضعوا أختامهم عليها لضمان نقاوة معادنها ووزنها.

يقول أحد الباحثين المعاصرين: "إن دراسة العملة علم وفن وتاريخ، علم لأن لها أصول وقواعد، وفن لأن العملة مجال دراسة فنية وتصويرية، وتاريخية لأنه يسهل تصنيفها زمنيًا وحسب الأماكن التي ضربت فيها، فضلاً عن النقوش والتواريخ التي تحملها العملة. ولهذا ساهم علم دراسة النقود مساهمة كبيرة في إثراء المعرفة التاريخية ببلدان العالم القديم والحديث، خاصة عندما تصمت الوثائق أو تعجز عن التعبير أو تكون نادرة.

الأختـــــام:

تتصل الأختام بدراسة الوثائق، وهي التي نمهر بها الوثائق المتعلقة بالمكاتبات الرسمية للحكام

أو الملوك. وقد استخدم الإنسان الأختام منذ أقدم العصور كوسيلة لإثبات الملكية، أو لتأكيد صحة قرار أو اتفاق أو معاهدة وخاصة من قِبل الملوك والحكام.

هذا، وتتميز الأختام بأشكالها وأنوعها المختلفة، ومن ذلك أختام الشمع الذي شاع استخدامه منذ أزمان بعيدة ولايزال يستخدم في بعض المناطق إلى عصرنا الحالي. كما وجدت أختام من الرصاص استخدمت من قِبل الأمراء والملوك خاصة في أزمنة مختلفة، ووجدت أختام من الذهب في العصور الوسطى واستخدمت عند بعض الأسر الحاكمة إلى زمن قريب.

ومن أشكال الأختام: المستدير، والبيضوي، والمثلث، والقلب، والصليب. وبالتالي، فإن معرفة أنواع الأختام وأشكالها والمواد المصنوعة منها تفيد الباحث بالتاريخ في التثبت من صحة الوثائق التي يقوم بدراستها.

ومن الجدير بالذكر أن المسلمون والعرب عرفوا الأختام منذ القدم، واعتبر ابن خلدون " الخاتم من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية" كما ذكر في كتابه أنه ثبت في الصحيحين أن الرسول(ص) عندما أراد أن يكتب إلى قيصر الروم، فقيل له: إن العجم لا يقبلون كتابًا إلا أن يكون مختومًا، فأخذ خاتمًا من فضة وكتب عليه "محمد رسول الله" في ثلاثة أسطر، بحيث كل كلمة في سطر.

ومما سبق يتضح لنا أن دراسة الأختام شيء ضروري وهام لدراسة تاريخ فترة زمنية معينة، من حيثُ المادة المصنوعة منها وطريقة صنعه ومن خلال ما يمكن استنتاجه من معلومات من الرسوم والكتابات المنقوشة عليه.

أما الرنك، فهي: فهو إحدى العلوم المساعدة في دراسة التاريخ، والمقصود بها العلامات المميزة الخاصة بالملوك، أو الأمراء أو الأُسر والجماعات أو الأفراد التي تظهر على الأختام أو الدروع أو السيوف أو على ملابس العساكر والنبلاء أو على الأعلام لتمييزهم عن غيرهم والدلالة عليهم. ولقد عرفت هذه الرنوك أو العلامات منذ القدم وحتى العصور الوسطى سواءً في أوروبا في الغرب أو عند المسلمين في الشرق .ومن أهم هذه العلامات؛ الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال وذيل الحصان والصليب. ثم صار للنبلاء والوزراء والقادة ورجال الكنيسة وطوائف الرهبان وكبار الموظفين رموزًا خاصة بهم.

صفوة القول: إن معرفة المؤرخ بالرنوك والعلامات الخاصة بكل جماعة أو سلطة أو فرد، تجعله قادرًا على إثبات صحة ما يجد من دروع أو أسلحة أو وثائق قديمة ونسبتها بشكل صحيح للعصر الذي تنتمي إليه.

علم الخطوط القديمة:

فكما أن لكل عصر لهجته المتميزة فإن لكل عصر خط يتميز به وتُكتب بها لغته، ويتطور هذا الخط عبر الزمان. وبناءً على ذلك، فإن علم الخطوط القديمة يدرس نشأة الخط الذي تكتب به لغة ما وتطورها ورموزها والتغيرات التي طرأت عليها والأدوات التي استعملت فيها.

إن هناك أنواع مختلفة من الخطوط القديمة تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها. وقد ظهرت أهمية هذا العلم بعد أن استطاع الباحث الفرنسي (شامبليون) من حل أصول اللغة الهيروغليفية القديمة وذلك في عام 1798م، وأثبت أن ما نقشه قدماء المصريين على آثارهم لم تكن للزينة بل هي كتابة للغتهم التي احتوت على أحداث تاريخهم وأهم أعمالهم.

بناءً على ما تقدم يمكن القول، أن هناك ضرورة لدراسة هذه الخطوط حتى تحفظ للمؤرخ الوقت وتجنبه الوقوع في كثير من الأخطاء ويتمكن من الوصول للفهم الصحيح للوثيقة أو للنص الذي يدرسه.

الوثائق (الدبلومات).

يعتبر علم الوثائق من أهم العلوم الأساسية لدراسة التاريخ، وهي: تدل بمعناها العام على كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية سواء دُوِّنَ على الورق أو على غيره. أما معناها الذي اصطلح عليه الباحثون في التاريخ، فهي:" الكتابات الرسمية- أو شبه الرسمية – مثل: الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة ، أو عادات الشعوب ، أو نظمهم وتقاليدهم وما يصيبهم من قوة أو ضعف، أو المشروعات أو المقترحات المتنوعة التي تصدر عن المسؤولين في الدولة أو التي تقدم إليهم أو المذكرات الشخصية أو البومات ، فينبغي على الباحث في التاريخ أن يتعلم المصطلحات

الخاصة بالوثيقة ، وأن يعرف نوع الحبر المستعمل في الكتابة والأقلام التي كتب بها وأنواع الورق المستعمل وخصائصه ، وأن يتأكد من صحة الوثيقة من خلال وصفها وتحديد تاريخها ومصدرها وعصرها ومؤلفها ، فإذا تأكد من كل ذلك تكون الوثيقة جاهزة من قِبل المؤرخ.

إن الوثيقة هي مصدر رئيسي يعتمد عليها المؤرخ في دراسته. فمعرفة مصطلحات الوثيقة وكيفية التعامل معها هي الطريقة التي تعين الباحث على الاطلاع على أسرارها، كما يتطلب من الباحث معرفة لغة الوثيقة والخط الذي كتبت به ، وأسلوب الإنشاء الذي كان سائدًا في عصر تدوين الوثيقة والافتتاحات التي كانت تفتتح بها والخواتيم التي كانت تنتهي بها.

كل هذه الأمور ضرورية لدراسة الوثيقة التي تم اكتشافها في أماكن مختلفة وبأشكال متعددة طوال عصور التاريخ. ومن هذه الوثائق ما وصل إلينا بحالة جيدة والآخر في حالة سيئة، ويرجع ذلك إلى أسلوب حفظ الوثيقة والمكان الذي وجدت فيه.

ومن الجدير بالذكر أن الوثائق تنقسم ــ عادة ــ إلى وثائق أدبية ووثائق سياسية أو خطابات خاصة؛ وهي التي تتناول أحوال الناس وأوضاعهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية. كما أن هذه الخطابات تتميز بالصدق والحيوية ، لأن مصدرها عامة الناس البسطاء.

علم الآثـــــار:

هو علم يعنى بدراسة آثار الإنسان ومخلفاته من بيوت وقصور عاش فيها والقبور التي حوت رفاته والمعابد التي تعبد فيها والمنحوتات والأدوات المختلفة الحجرية والمعدنية والفخارية وكل ما يتعلق بحياة الإنسان ونشاطاته في الماضي بكافة عصوره وفتراته الزمنية إن الإنسان له تاريخ طويل يمتد إلى ما قبل اختراع الكتابة ودراسة ما قبل ذلك يعتمد على ما يقدمه له دراسة آثار الإنسان المادية التي خلفها في المواقع والأماكن التي استوطنها أو أقام فيها منذ بداية ظهور الإنسان على الأرض هذا، وتتميز الآثار بأصالتها ومعاصرتها للحدث كما أنها غير قابلة للتحريف بعكس الوثائق المكتوبة فهي توضح كثير من جوانب الحضارات، مثل: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية. وهناك كثير من المناطق والعصور يعتمد في التأريخ لها على الآثار أكثر من غيرها.

ورغم أن البحث عن الآثار قديم جدًا إلا أنه كعلم يعتبر تطورًا حديثًا قد لا يزيد عن مائة عام إلا قليلًا، مع ذلك فقد توصلنا معه إلى نتائج مبهرة. فينبغي على المؤرخ أن يشاهد بنفسه آثار العصر الذي يكتب فيه، وأن يقارن بينها وبين غيرها ويزور الأماكن التي اكتشف فيها الآثار ليستنبط ويستخرج منها بعض أحكامه التاريخية. كما عليه أن يبحث عن متعلقات أخرى لتعم الفائدة ولا سيما المخلفات الشخصية ، التي تعين وتساعد المؤرخين.

صفوة القول :إن علم الآثار يقدم خدمات مفيدة جدًا لعلم التاريخ من خلال الكشف والبحث عن أثار الماضي ودراستها وتحليلها، كما أن الآثار المادية تقدم معلومات قد تعجز عنها الوثائق المكتوبة .

علم اللغات:

علم اللغات من أهم العلوم المساعدة التي لابد للباحث في التاريخ أن يتزود بها فينبغي على المؤرخ من معرفة اللغة الأصلية المتعلقة بالموضوع التاريخي الذي يرغب الكتابة والبحث عنه لأن الترجمات ـــ وإن وجدت ـــ غير كافيه لتحصيل الثقافة العامة ، كما أنها غير قادرة على تلبية حاجات البحث ، إضافة إلى إمكانية كونها محرفة أو غير دقيقه .

وكلما كان الباحث مُلمًا بعدد من اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة ، اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء ويصبح أكثر قدرة على التعامل مع الموضوع بشكل صحيح واستخراج نتائج منطقية وحتى يكون الباحث في التاريخ على اطلاع دائم بالأبحاث العالمية المتجددة التي تتعلق بمجال بحثه فينبغي عليه أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوروبية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية . وقد يرى الباحث أن تعلم اللغات – القديمة أو الحديثة – أمرًا صعبًا ولكن برغبة الباحث وجديته في تعلم هذه اللغة والصبر على ذلك تزيل هذه المصاعب .

مما سبق أستطيع القول، إن على الباحث أن يكون حريصًا على دراسة ما يلزمه من اللغات سواء كانت صعبة أو قديمة أو نادرة حتى يستطيع الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخية الأولى. وبدون ذلك لا يمكنه السير قدمًا في سبيل البحث التاريخي ، وحتى يستطيع التعبير كما يريد بشكل سليم ودقيق وواضح.

فقه اللغة (الفيلولوجيا):

هو: دراسة اللغة عبر الوثائق والنصوص التاريخية وكيفية تطورها وانتقالها عبر الزمان والمكان . كما إنه علم يعنى بدراسة " الكلمات" وتاريخها وتطورها ، وتطور مضمونها ، وكلما بُعد العصر الذي هو موضوع الدراسة والبحث ازدادت الحاجه إلى علم فقه اللغة. إذْ لابد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخي المعين . واللغة عبارة عن كائن حي ينمو ويتغير ويتطور حسب ظروف المكان والزمان وامتزاج الحضارات والثقافات والشعوب. فكلمة ما قد تحمل أكثر من معنى ، وقد تؤدي إلى معنى آخر في مرحله أخرى أو في مكان آخر. ومما تجدر الإشارة إليه، أن هناك فرق بين علم اللغة وفقه اللغة . فعلم اللغة ندرسه كنشاط إنساني أو وسيله للتعبير ونقل الأفكار ، فهو يبحث في قوانينها وقواعد تطورها . أما فقه اللغة فهو يدرس اللغة باعتبارها وسيلة إلى غاية ، وهي دراسة الثقافة بما تشتمل عليه من عادات وتقاليد وديانات وآداب ، فإن الغاية لفقه اللغة هي دراسة الحضارة.

بناء على ما تقدم يمكن القول،إن فقه اللغة علم أساسي يساعد الباحث في دراسة التاريخ لفهم مضامين النصوص فهمًا دقيقًا ، وإخضاعها للنقد والتثبت من صحتها ، وحتى لا يفسر ما يقرأ على غير الحقيقة المراد منها.

علم النقوش:

هو: العلم الذي يدرس الكتابات المنقوشة والمنحوتة على الأحجار والمعادن وعلى الأواني الفخارية أو التوابيت على اختلاف أغراضها، فمنها التذكارية أو الدينية أو شواهد القبور أو الكتابات الملكية. ، إن لكل حضارة ـــ ولكل شعب ـــ نقوشها الكتابية الخاصة بها ،فمثلًا، هناك نقوش ثمودية ، ونقوش سبئية، ونقوش حميرية ، ونقوش أرمينية، ونقوش فينيقية، وغيرها. وبفضل اكتشافات الأثريين المتزايدة للنقوش فإنها تعتبر مصدرًا مهمًا تعطي المؤرخين الحيوية والتجديد وبدونها تتجمد المعلومات. ولهذا ستظل النقوش تقدم للمؤرخين المصدر والمادة.

يقول الأستاذ وودهيد في كلامه عن النقوش: " إن المؤرخ عن طريق إلمامه ليس بالنقوش فحسب ، بل بسائر العلوم المساعدة الضرورية ،تصبح مهمته أشبه بمهمة القائد الأعلى للجيوش

في الميدان الذي يحرك فروع القوات المختلفة لصالح المعركة ، ولا يشترط أن يكون دقيق الإلمام والخبرة بطبيعة عمل كل فرع ولا يتدخل فيه تدخلًا دقيقًا. نستنتج من هذا القول أنه لا يجب على المؤرخ أن يصبح عالمًا في النقوش ، بل يكفي معرفته بقراءة النقش وتحليله وكيفية استخدامه . وكلما كان المؤرخ ملمًا بنقوش لغة العصر الذي يدرس فيه كلما كان أقرب إلى المعرفة الأصلية.

إن علم النقوش يحتوي على آلاف القرارات والمعاهدات القديمة التي تم نقشها على الحجر ، وبعض من هذه القرارات ترتب عليها تطورات مهمة حدثت من آلاف السنين ، وهذا يعطي النقوش أصالتها وأهميتها، وبالتالي سيقرأها المؤرخ مباشرة وكأنه يعيش العصر الذي كُتبِت فيه .

وتسهيلا للبحث العلمي فقد لجأت الجامعات والأكاديميات إلى جمع النقوش المتفرقة في مجلدات منظمة، حتى توفر على الباحث مشقة السفر والبحث عن هذه النقوش.

هذه ــ إذًا ــ أهم العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، فعلى الباحث أن يجتهد في تحصيل أكبر قدر ممكن من هذه العلوم حتى يستطيع أن يمضي قُدمًا في مسيرة البحث العلمي، وأن يقدم لأمته وللعالم أجمع مادة علمية جديرة بالبحث والمناقشة، بل إنه من خلال تحصيل هذه العلوم يستطيع أن يترك بصماته العلمية على صفحات التاريخ الإنساني.

تطور منهج البحث التاريخي في كتابة التاريخ

تعريف التاريخ:

يعرف التاريخ بأنه: "هو كل ما حدث" أو "هو رواية وتدوين كل ما حدث" وهو "فعالية علمية من فعاليات المعرفة البشرية ، تتسع ساحتها لكل شؤون الإنسان" وقد عرفه بعض الباحثين بأنه "التدوين الموثق للأحداث الماضية" وعرفه البعض الآخر "بأنه وصف الحقائق التي حدثت في الماضي بطريقة تحليلية ناقدة" ومن هذين التعريفين نستخلص أن علم التاريخ لا يمكن فصله بل ربطه مع المنهج التاريخي ، وذلك باعتبار أن البحث أو التقصي العلمي وسيلة موضوعية

هدفها الوصول إلى نتائج أو قوانين أو قواعد يمكن تعميمها واستخدامها للتنبؤ بما يحدث في المستقبل ضمن السياق التاريخي .

أما منهج البحث التاريخي فتعرفه بأنه: "مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخي والمؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية ، وإعادة بناء الماضي بكل وقائعه وزواياه ، وكما كان عليه في زمانه ومكانه ، وبجميع تفاعلات الحياة فيه" وهذه الطرائق قابلة دوما للتطور والتكامل ، مع تطور جموع المعرفة الإنسانية وتكاملها ومنهج اكتسابها .

لقد دار جدل ونقاش حول طبيعة المادة التاريخية وطرائق الوصول إلى الحقائق العلمية المجردة الثابتة، وكان على المؤرخين أن يثبتوا أن التاريخ معرفة علمية دقيقة ، غنية بتجربة قرون طويلة لها منهج أو طرائق في البحث والاستقصاء عن الحقيقة لا تقلل في عالميتها وصحة وسائلها عن مناهج العلوم الوضعية الأخرى .

وهكذا بحث عدد من المؤرخين في طرائق علم التاريخ ، وأثبتوا في كتبهم ومقالاتهم أن علم التاريخ علم يعود إلى الحقيقة الثابتة والمؤكدة ، وفي عام "1894م" صدر كتاب حول منهج البحث التاريخي ، قام بوضعه أرنست برنهام "E. Bernheim" ، جمع فيه ما كتب عن المنهج التاريخي ، وكان كتابا لنخبة المثقفين ، لا يتضمن طريقة صحيحة في البحث لمن يريد أما المؤرخ فوستيل دوكولانج "Futsal de Coulanges" فقد قام بتحويل قواعد المنهج التاريخي ، هو الكتاب الذي ألفه المؤرخان الفرنسيان لانغلوا "Langlois" وسين وبوس "Siganus" ، في أواخر القرن "التاسع عشر" وأطلق عليه اسم "مدخل للدراسات التاريخية Introduction aux etudes Historiques" صدر في باريس عام "1898" وقد ترجم جزء منه إلى اللغة العربية .

تتالت الأحداث المشابهة بعد ذلك ، لكن في البلاد العربية لم ينبرِ أحد لدراسة هذا الموضوع حتى الربع الثاني من "القرن العشرين" على الرغم من أن المؤرخين العرب أدركوا كثيراً من الأساسيات العلمية لمنهج البحث التاريخي بمضمونها الحديث ، وكتبوا فيها ونموذجهم الأكبر ابن خلدون "ت 808هـ/ 1406م" والكافي "ت 879هـ/ 1474م" والسخاوي "ت 902هـ/

1496م" وجلال الدين السيوطي "ت 911هـ/ 1505م" وعبد الرحمن الفاسي "ت 1096هـ 1684م"

بل إن المحدثين والفقهاء الذين دققوا في الأحاديث والسيرة ، كانوا كذلك روادا في هذا الميدان ومنهم الغزالي "ت 505هـ/ 1111م" وابن الصلاح عثمان الشهزوري "ت 641هـ/ 1243م" وابن تيمية " "ت 728هـ/ 1328م" ومحمد بن أحمد الذهبي "ت 748هـ/ 1348م" عن رجال الحديث .

إنشاء البحث التاريخي:

من خلال ما قام به الباحث التاريخي من إجراءات توصل إلى مجموعة كبيرة من الحقائق في هيكل تصنيفي معين ، وفي سياق تعليلي محدد ، وعمله لا يكتمل إلا بالتدوين ويميز النقاد التاريخيون في هذه الخطوة بين عمليتين: عملية الصياغة وعملية العرض .

الصياغة التاريخية:

وهي آخر العمليات التركيبية ، يسعى فيه المؤرخ للتعبير عن نتائج بحثه ، وهي تقابل في العلوم الأخرى الدساتير أو القوانين التي تأخذ في بعض العلوم "صياغة رياضية" ، أما في التاريخ فالصياغة وصفية ، دقيقة موجزة وهنا يصطدم المؤرخ بمشكلة هي أول ما يجابهه وهي مشكلة "ما هو المهم" من الحقائق التاريخية ، وفي أغلب الأحيان تستمد الحقيقة أهميتها من علاقتها ببيئة المؤلف وعصره وبهدفه أو أهدافه في كتابه التاريخ ، ومن المؤكد أن هناك حقائق في كل موضوع بمثابة العمود الفقري منه ، ولا معدى لجميع المؤرخين الذين يطرقونه عن الاستناد إليها ، مهما كانت الظروف والعصر اللذان يعيشون فيهما ، ومع ذلك فإنه يمكن القول: إن هذا لا يضمن اتفاقهم في القواعد العامة التي يصلون إليها ، إذ قد يجد كل واحد منهم في الحقائق ذاتها معاني مختلفة .

وقضية ما هو مهم لها تفسيران: المهم في نظر الماضي والمهم الآن ، والتاريخ العلمي الدقيق بحسب المؤرخ الألماني "فون رانكة: 1795-1886م" هو القائم على المعنى الأول وهذا يتطلب

توفر ما يسمى "الحاسة التاريخية" لدى الباحث ، وهذا الاتجاه في الدراسة التاريخية ، هو ما يعبر عنه بلفظ "الموضوعية" وهو الذي ساد في القرن "التاسع عشر" ، وسعى المؤرخون خلاله أن يحققوا بهذا المثل الأعلى .

شاع التيار الثاني منذ مطلع القرن "العشرين" الذي تحدى فكرة "الموضوعية" على أساس أنها غير ممكنة التحقيق ، ومع أنه من المتفق عليه مبدئيا أن الباحث الموضوعي ينتقي عادة من الحقائق ما كان لها أكبر النتائج على تطورات أتت بعدها ، أو ما يمكن أن يستشف منها ما سيأتي ، أو تلك التي انبثقت بشكل طبيعي مما سبقها ، فإن النقادة التاريخية قد وضعوا بعض نقاط هادية في هذا الطريق ، وميزوا بين ثلاثة أنواع من الحقائق: الحقائق العامة وهي المشتركة بين مجموع كبير من الناس أو الحقائق التي لها صفة أكثر ديمومة من غيرها "العادات ، النظم" والحقائق الفردية أو الشخصية وهي التي تخص شخصية تاريخية معينة ، وحقائق الحوادث وتعتبر من الحقائق الخاصة ؛ لأنها تحدث مرة واحدة ومحددة بزمانها ومكانها .

تدعم الصياغة الكمية الصياغة الوصفية للحقائق ، وهي الآن عنصر حيوي في الكتابة التاريخية المعاصرة ، ويمكن حصر الصيغة الكمية في التاريخ بـ: المقياس والتعداد وهو أمر إحصائي والتقدير وهو تعداد ناقص يقوم به الباحث في مجال محدود وأخذ العينات أو النماذج وهو تعداد نسبي مقصور على بعض وحدات مأخوذة من ميدان البحث .

قد تترجم الصيغة الكمية في التاريخ إلى صيغة خطية بيانياً معتمداً فيها الباحث على الوسائل الإحصائية المختلفة ، كما أن الصيغة الوصفية تعتمد على صيغة مكانية بيانية توضحها طريقة ما فالصياغة التاريخية إذن هي تركيز وتكثيف مدون للحقائق التاريخية العديدة ، ومحاولة لوضعها في صيغة عامة واحدة .

وفي الحقيقة إن عملية الصياغة التاريخية هي جزء من عملية التركيب التاريخي ، إذ قد تقود إلى التعليل أو التعليل إلى الصياغة الصحيحة ، وهي تركيز وتكثيف مدون للحقائق التاريخية العديدة ، ومحاولة لوضعها في صيغة عامة واحدة ، تسقط منها الحقائق المتغيرة وتبقى الثابتة والمشتركة منها .

العرض التاريخي:

وهو إخراج الموضوع وحدة كاملة متماسكة الأطراف ، بحيث يكون إحياء للماضي يحسسه الباحث القارئ ، وهذه الخطوة مهمة وعسيرة ، ويتبين في العرض أمران رئيسيان: أولهما اتباع الباحث مخططا واضحاً وثانيهما استخدام الباحث أسلوباً كتابياً ملائماً والعمليتان متكاملتان .

يعرف الباحث حقائقه بموجب الصيغة التي توصل إليها مترابطة ومتماسكة وشارحة وموضحة الواقع التاريخي الماضي ، مع تأكيد على التعليل ومناقشة رصينة للآراء ، ودعم بالأدلة والشواهد وقد لا يستدل الباحث بمعنى مضمون الوثيقة فحسب ، وإنما يقتبس من النص فقرة أو فقرات وقد يتضح للباحث أثناء عرضه التاريخي أن هناك نواقص وثغرات في بحثه لا بد أن تستوفي فيلجأ إلى بحث تلك النواقص ، وقد يضطر إلى تعديل نتائجه بل وتغيير توضيع الفصول نفسها نشير بخاصة إلى أسلوب عرض البحث التاريخي ، إذ أن الأسلوب الأدبي الصرف غير مستساغ أبداً في الكتابة التاريخية ؛ لأنه قد يحرف الحقائق عن مسارها الدقيق ، بما يطرحه من ألفاظ عامة ، أو حاملة لصفة المبالغة ، أو منجرفة وراء الخيال ، فالكتابة التاريخية فن لا يمتلك ناصيته جميع المؤرخين ، إنها كتابة بعيدة عن الإطناب الممل والاختصار المخل ، بعيدة عن المبالغات أو التعصبات أو الإخلال بالموضوعية تظهر من خلالها شخصية الباحث الذي يجب أن يجلو قصة الإن.

التفسير الإسلامي للتاريخ:

(إن تفسير التاريخ يقصد به معرفة الروابط التي تربط الأحداث والوقائع المتفرقة ودراستها لتبين دوافعها وارتباطاتها ونتائجها، واستخلاص السنن والنواميس الإلهية من خلالها، والاعتبار بالدروس والعظات فيها. وهو مرحلة تأتي بعد التحقيق والنقد للأخبار، فما ثبت من الوقائع والأحداث هو الذي يفسَّر وتدرس ارتباطاته ويُتعرف على دلالته وآثاره. وهذا الجانب من الدراسة (إدراك دلالة الحوادث وارتباطاتها) ملحوظ بكثرة في القرآن الكريم سواء في رض القصص الواقعي لتجارب العديد من الجماعات البشرية ومواقفهم من أنبياء الله ورسله، أو في التعقيبات التي ترد بعد كل واقعة تاريخية في عصر الرسالة ونزول الوحي على الرسول صلى الله عليه

وسلم، وهو ما سمي عند المفسرين بأسباب النزول، أو في التوجيهات والتحذيرات التي تأتي بعد سياق الحوادث التاريخية لأجل تقرير المقاييس والقيم وتصحيح المفاهيم وأخذ العظات والعبر من خلال عرض تلك المواقف).

فالتفسير الإسلامي للتاريخ (يستمد من الإسلام: من المقررات الإسلامية عن الوجود كله، سواء الوجود الإلهي، أو الوجود الإنساني، أو الوجود المادي، وعلاقة الخالق بمخلوقاته، وعلاقة الخلق بخالقهم، والسنن التي يجري بها الله أمر البشر وأمر الكون المادي سواء)، ومن خلال تلك المقررات الإسلامية نستعرض التاريخ ونفسره بناءً على التصور الإسلامي الصحيح للتاريخ البشري من خلق آدم إلى عصرنا هذا.

(إن التاريخ الإسلامي هو تاريخ هذا الدين الواحد وهو الإسلام: (إن الدين عند الله الإسلام) [آل عمران: 19]، وهو تاريخ تطبيق هذا الدين.. تاريخ تطبيق شريعة الله إلى أبناء آدم عليه السلام.. تاريخ الصراع بين الحق والباطل وبين حزب الله وحزب الشيطان.. تاريخ انتصار الرسل والدعاة في دعوتهم إلى الله عز وجل، واندحار موجات الكفر وأهله.. تاريخ أمم عرفت أوامر الله ونواهيه ولم تلتزم بها فكانت عاقبة أمرها خسرا.. تاريخ رجال لا يخشون في الله لومة لائم.. وعلماء جندوا علمهم لله، وآخرون عتوا عن أمر ربهم، وباعوا أنفسهم للشيطان، وجعلوا دين الله مطية لأهوائهم ورغباتهم، فطغوا وتجبروا وظنوا أنهم قادرون على كل شيء، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

ومن هنا تأتي العلاقة بين التاريخ والدين، وهي علاقة وثيقة.. إن التاريخ الإسلامي يروي لنا تاريخ العقيدة الصحيحة.. وجزاء من يلتزم بها ويقاتل من أجلها، وجزاء من يعرض عنها ويصرف الناس عنها).

يتعامل منهج التفسير الإسلامي مع التاريخ إذًا على أساس أن (تاريخ البشرية ينقسم بادئ ذي بدء إلى قسمين رئيسين: تاريخ الإسلام وتاريخ الجاهلية. ثم ينقسم تاريخ الإسلام إلى فترات التوهج العقيدي وفترات الوجود العادي، كما ينقسم تاريخ الجاهلية إلى فترات التبلد والاستنامة للضغوط، وفترات الثورة عليها.

فأما تاريخ الإسلام بشعبتيه فيمثل الإنسان في واقعه الأعلى، بدرجات مختلفة تختلف بمدى توهج العقيدة. وأما تاريخ الجاهلية بشعبتيه فيمثل الإنسان في واقعه الأدنى، بدرجات مختلفة تختلف بمدى وعي الناس بما يحيق بهم من الفساد والظلم، ومدى استعدادهم للتغيير.

ويظل تاريخ الإسلام هو الفترة المضيئة في تاريخ البشرية، التي يحقق فيها الإنسان وجوده الحقيقي، ومهمته التي خلق من أجلها، والتكريم الرباني الذي منحه الله إياه.

ويظل تاريخ الجاهلية هو الفترة المظلمة في تاريخ البشرية، مهما حاول الجاهليون إضاءتها بالتقدم المادي أو العلمي، أو القوة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية.. ومهما أحدثوا من محاولات الإصلاح الجزئية التي قد تغير شراً بشر أشد!).

وأول من قدم تعريفا لمعنى تفسير التاريخ من المنظور الإسلامي من المؤلفين المسلمين هو ابن خلدون (وقد سماه تعليلا)، حيثُ قال في مقدمته الشهيرة عن التاريخ: (هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتُضرب فيها الأمثال، وتُطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق).

إن محور التفسير الإسلامي للتاريخ هو أن ما يقع من الحوادث إنما يخضع لسنن إلهية، كونية أو دينية، ومن هذه السنن:

١. إن الدولة الكبرى أو الحضارات لا تقوم إلا بدين أو ببقايا دين.

فمن الملاحظ أن محل الدراسة التاريخية في القرآن الكريم ليس المقصود به شعبًا معينًا أو دولة معينة بقدر ما هو مقصود: ما هو دين هذه الأمة وما هي عقيدتها؟ وما موقفها من الرسل والأنبياء؟ فالتركيز على "الملة" باعتبار أن ظاهرة التدين هي الأصل في الإنسان، وعندما يذكر القرآن الحوادث التي وقعت لبني إسرائيل يسردها دون ترتيب زمني؛ لأن المقصود أن هذه الأمة "يهود" لها صفات معينة، وقصص الأنبياء في القرآن هي قصة الصراع بين التوحيد وبين

الوثنية والأمة الإسلامية يقابلها الأمم النصرانية أو المجوسية. وقد فرح المسلمون في مكة ببشارة القرآن لهم بانتصار الروم على الفرس، لأن الروم أهل كتاب فهم أقرب من المجوس.

وتركيز القرآن علي هذه الناحية يؤكد أن الدين هو العامل الفعال في تكوين الحضارات والدول الكبرى سواء كان هذا الدين حقًّا كما أنزله الله سبحانه وتعالى أو قد حرف وبدل، والمهم هو أن فكرة التدين أو التطلع الغيبي هي التي تعطي الحماس والجد والعاطفة التي تحتاجها الدول في إبان تأسيسها، وقد خلق الإنسان متدينًا بفطرته، بالعهد الذي أخذ عليه (ألست بربكم قالوا بلى) [الأعراف: 172]، والفكرة التي تبلغ عند أصحابها مبلغ التقديس للديانات ويتفانون في تطبيقها تؤدي إلى نفس النتيجة.

وهذه الحضارات والدول وإن قامت ابتداء على الدين إلا أنه مع تطاول الزمن والإسراف في الحضارة بدأ الفساد ينخر فيها، وهذا ينقلنا إلى السنة الثانية من سنن الله؛ سنة التدافع، فلابد إذن من مبدأ الدفع الذي سنه الله سبحانه وتعالى.

٢. سنة دفع الله الناس بعضهم ببعض ومداولة الأيام بينهم ليتبين الحق ويظهر الخير.

إن التفسير القرآني للتاريخ بمدافعة الأمم بعضها بعضًا هو أعم وأشمل من نظرية "التحدي" عند المؤرخ الإنجليزي توينبي التي هي صادقة في جانب من جوانب التاريخ الإنساني، فإن تعرض أمة لخطر خارجي أو داخلي قد يظهر من طاقات أبنائها ما كان خامدًا، فإن وقت الأزمات والمصائب هو الوقت الذي يفكر فيه الناس بالتغيير، ولكن أين هذه النظرية من تفسير القرآن الذي هو عملية مستمرة وصراع دائم بين الخير والشر ليتغلب الخير أو يخفف من الشر؟

3. زوال الأمم وهلاكها بالترف والفساد وعدم إقامة العدل.

من سنته تعالى في البشر أن الأمم التي تبطر معيشتها، وتعيش في الترف وتنهمك في الملذات، وتقارف الآثام والذنوب، لا بد أن يصيبها العقاب إن آجلًا أو عاجلًا وسواء كان عذابًا ماديًا حسيًا أو عذابًا معنويًا. قال تعالى: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) [الإسراء: ١٦].

يقول ابن تيمية مطبقًا هذه القاعدة على التاريخ الإسلامي: (وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالًا أوجبت ذلك، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم) [الفتاوى: ج١١ص١١٤]. وجاء في "سير أعلام النبلاء" تعليقًا على الأحداث التي جرت في مكة بين جيش يزيد بقيادة الحصين بن نمير السكوني وبين جيش عبد الله بن الزبير: (دخل عبد الله بن عمرو المسجد الحرام والكعبة تحترق حين أدبر جيش حصين بن نمير، فوقف وبكى وقال: أيها الناس، والله لو أن أبا هريرة أخبركم أنكم قاتلوا ابن نبيكم "الحسين بن علي" ومحرقوا بيت ربكم لقلتم: ما أحد أكذب من أبي هريرة، فقد فعلتم فانتظروا نقمة الله فليلبسنكم شيعًا، ويذيق بعضكم بأس بعض) [سير أعلام النبلاء: ج٣ص٩٤].

٤. الناس مسؤولون عن رقيهم وانحطاطهم.

قال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد: ١١]، فالتغيير يجب أن يبدأ من الإنسان، والله سبحانه وتعالى ييسر له السبل التي يريدها. والأمة التي تعشش فيها الأفكار الميتة والأنانية والبغض والحسد، وقد ركنت إلى الكسل والخمول، هذه الأمة لا يمكن أن تنتج تقدمًا أو شيئًا يذكر بل إن حكمًا علمانيًا يمكن أن يستمر ويزدهر بالاتحاد والعدالة أكثر من حكم أدعياء الإيمان إذا ما ركنوا إلى الأخلاق المنحلة وإلى الفوضى والعصيان.

٥. استحقاق النصر للمؤمنين.

قال تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) [الرعد: ١٧]. يقول ابن قتيبة شارحًا هذه الآيات: (هذا مثل ضربه الله للحق والباطل يقول: الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سيمحقه ويبطله، ويجعل العافية للحق وأهله، ومثل ذلك مطر جود أسال الأودية بقدرها (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أي عاليًا على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق، وكذلك المعادن إذا دخلت الكير يوقد عليها فيعلوها مثل زبد الماء، ثم قال: (فأما الزبد فيذهب جفاء) أي يلقيه الماء عنه فيتعلق بأصول الشجر وجنبات الوادي، وكذلك خبث الفلزّ يقذفه

الكير، فهذا مثل الباطل (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) فهو مثل الحق) [تأويل مشكل القرآن: ٣٢٦]. والمسلمون هم أحق الناس بهذه السنة وإذا تأخر عنهم فلأمر ما في نفوسهم، أو لأنه لم تتمحص صفوفهم وكيف لا ينصرهم الله سبحانه وهم أولياؤه، وهل يستوي المجرمون والمسلمون.

ويجب أن يعتقد من تأخر عنه النصر والتمكين أنه ما تأخر إلا لسبب أو لأسباب، فلا يلومن إلا نفسه، ولا يضع المعاذير لنفسه ويلقي بالتبعة على غيره.

(وعلى ضوء هذا التفسير الإسلامي للتاريخ يجب أن نفهم تاريخنا، فهو في جانب من جوانبه جزء من التاريخ العام للبشرية، ينطلق عليه ما ينطلق على الأمم الأخرى من سنن نشوء المجتمعات وارتقائها، أو انحطاطها وتخلفها، ويخضع للعقوبات الإلهية التي تحل بأهل المعاصي والذنوب وأهل البطر والترف).

أن سنة الله نوعان: (سنة متعلقة بالأمور الطبيعية كسنة الله في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، فهى تجري وفق ناموس محدد قدّره الله لها؛ وسنة متعلقة بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده، فهي ثابتة لا تتبدل، مثل نصره لأوليائه وإهانته لأعدائه.

تطور استعمال لفظة التاريخ عند المسلمين:

لقد مرت كلمة التاريخ بمراحل عدة قبل الإسلام وبعده فى مدلولاتها واستخدامتها، فالعرب الشمالية وإن لم يكن لديهم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم تقويم واحد يرجعون إليه إذ أرخوا بمشهور الحوادث وبولاية الملوك، فهذا أمر كان كذلك عند الجنوبيين، حتى جاء الإسلام واجتمعوا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تقويم واحد هو التقويم الهجري الذي أُلزم به الجميع دون سواه. واستمرت دلالة مفهوم كلمة التاريخ عند المسلمون الأوائل على نفس النسق الذى يربطها بعنصر الزمن والأحداث الهامة، وأيضا عدم الخلط بينها وبين ألفاظ أخرى استعملها المسلمون في هذا الباب ولكن في غير هذا المعنى: كالأخبار، والسير، والمغازي، والأنساب، والأيام، والأنباء، والحديث، والأساطير، والأنساب، والقصص؛ إذ منهج المؤرخ عندهم يختلف عن منهج الأخباري والنسابة، ومنهج النسابة يختلف عن كليهما..وهكذا. ثم ما

لبث منذ القرن الرابع الهجري أن بدأت الأخبار والقصص تأخذ طريقها إلى كتب التاريخ حتى صارت الأخبار جزءا لا ينفك غالبا عن التاريخ، فأصبحت بمثابة الجسد له، لا يكاد يتجسد التاريخ إلا به، وصار كل مؤرخ في هذا العصر أخباريا مؤرّخًا، وليس العكس، ونجد معنى ذلك في نَفْس ابن حجر حين قال: (ومن ثمة قيل لمن يشتغل بالتواريخ وما شاكلها الأخباري).

فضلا عن أنّ التاريخ حمل منذ ذلك الوقت معنى الأولى والآخرة، سَنَّ ذلك مؤرخ مجدد تزعم حركة انتقالية بين عصر وعصر، شارك في منهاج الأول وابتدع منهاج الآخَر، هو الطبري في تاريخه، وتبعه مَن بعده أسوة به، فلم يعد التاريخ هو "التأريخ" المطلق كما كان قبل، بل قيده فهمٌ جديدٌ أضاف لـ"التاريخ" في هذا العصر معنى جديدا، فلم يعد "التاريخ" مجرد العَدّ، ولا مجرد التقييد على الأيام والسنين فحسب، بل صار مع ذلك هو العبرة في الدنيا للفوز بالآخرة، فهو: (تاريخ الرسل والملوك)، و(تجارب الأمم) و(مرآة الزمان) ، و(البداية والنهاية).

ولايسعنا أن نقول إن دراسة التاريخ بعامة وتاريخ الأمة المسلمة بخاصة لا ينبغي أن يكون لمجرد المعرفة أو التسلية أو حفظ الحكايات والأخبار والتحدث بها، لأنه علم جليل ذكر الله منه في كتابه العزيز وهو كتاب هدى ونور مبين.

إن لدراسة التاريخ ثمرات وأهداف متعددة، تشمل الفوائد التربوية؛ ومعرفة وإدراك السنن الربانية، كسوء عاقبة المكذبين، مداولة الأيام بين الناس، وزوال الأمم بتفشي الظلم وبالترف والفساد، واستحقاق المؤمنين لنصر الله؛ والتعرف على معالم تاريخ الإنسانية، كيف بدأت، وكيف تطورت الحضارة الإنسانية، ومسيرة الأنبياء في تاريخ الإنسانية؛ وتأكيد بعض الحقائق الهامة في حياة الإنسان، فالله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، والتوحيد هو أول ما عرفته البشرية؛ والاستفادة والتعلم من الخبرات المكتسبة عبر تاريخ البشرية؛ ومعرفة الحركة العلمية في كل عصر؛ والمساعدة على فهم الحاضر؛ وبث الأمل في نفوس المسلمين.

مصادر أساسية لفهم التاريخ الإسلامي:

أولًا: القرآن الكريم: إن القرآن ليس منهجا للتاريخ أو تفسيره ولكنه منهج حياة شامل أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم لإصلاح وهداية الناس وإنقاذهم من الغي

والضلال ومن ظلمات الشرك إلى نور الإسلام: (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) [إبراهيم: 1]. لذا نرى القرآن الكريم يعرض منهج التاريخ وتفسيره ضمن منظومة منهجه الشامل لهداية البشر وإصلاحهم. "ولعل في قوله تعالى آمرا المسلمين: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) [الروم: 42] خير دليل على أن تفسير التاريخ كان أمرا إلهيا، إذ إن في هذه الآية أمرا بالاعتبار والنظر في الماضي واستخلاص العبر التي تعين على فهم الحاضر. وهذا هو المعنى الحقيقي لتفسير التاريخ".

ومما لا شك فيه أن المنهج التاريخي أخذ حيزًا كبيرا من المنهج الشامل للقرآن الكريم، فمن أول سور القرآن وهي سورة البقرة نجد العرض التاريخي لقصة خلق البشر والغرض من خلقهم ووجودهم فى الأرض: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) [البقرة: 30]. ثم نجد القصص القرآني وذكر تاريخ الأمم السابقة، قد جاء في أكثر من 80 موضعا في سور القرآن، بل هناك سور كاملة فى عرض تاريخ الأمم السابقة كسورة يوسف.

وبالرغم من هذا العدد الكبير لمواضع الأحداث التاريخية للأمم السابقة في آيات القرآن الكريم فإننا لا نجد ذكرا لكلمة التاريخ فيه صراحة (ولا حتى في السنة النبوية)، فكما ذكرنا سابقا في مفهوم التاريخ في لغة قريش وهي اللغة التي نزل بها القرآن أن المصطلح عند عرب الشمال لا تعني ولا تفي بمراد القرآن الكريم من عرض أحوال الأمم السابقة، لذا نجد القرآن الكريم قد استخدم أربعة ألفاظ (بمشتقاتها) في معظم مواضع عرض الأحداث التاريخية، وهي:

<u>نبأ:</u> وهو الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة.

<u>خبر:</u> وهو العلم بشيء مضى أو شيء حاضر أو سيحدث مستقبلا بقطع النظر عن صحته من عدمه. أو هو الخبرة والإحاطة بشكل دقيق بالحدث.

<u>قصص:</u> وهو تتبع الأثر للوصول إلى الهدف والغاية المرادة، وقصص القرآن أخباره عن أحوال الأمم الماضية ، والنبوات السابقة ، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع

الماضي ، وتاريخ الأمم ، وذكر البلاد والديار. وتتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

(وقول الحق: (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) [الأعراف: 176] يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخًا، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتى سبحانه بلقطة جديدة، لتعدد ما في القصة الواحدة من العبر، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة. ونجد في القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل، ومن قصص المبطلين مع المحقين، ومن قصص المعاندين مع الرسل لأن القصة أمر واقعي ـ والتقنين للمناهج أمر لفظي، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع، لأن واقع الحياة يعطى القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظري معزول عن الواقع).

فالقرآن إذًا حوى كلمات جاءت لتخبرنا أو تنبئنا أو تقص علينا الأحداث التاريخية، الماضية والحاضرة والمستقبلية، وتجمع لنا التجارب البشرية عبر التاريخ الإنسانى، (وهي تحدثنا عن مواقف الأفراد والجماعات إزاء عدد من الأحداث والقيم التاريخية، يمتد بعضها إلى خلق آدم، وردود الأفعال التي أثارتها هذه الخطوة الإلهية الحاسمة، ويصل بعضها إلى عدد من التجارب التى مارسها أفراد عاديون سلبا (وقائع أصحاب الجنتين، أصحاب الحجر، وقوم لوط) أو إيجابا (أهل الكهف وأصحاب الأخدود) أو نفذها قادة وملوك وزعماء كبار (فرعون وقارون وذو القرنين وأصحاب الفيل)، مرورا بسلسلة الأنبياء الطويلة الذين أرسلهم الله ليدعوا الناس إلى عبادة الله وحده... وتتجاوز بعض آيات القرآن الماضي والحاضر لكى تمد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية يحيطها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية، ولقد نفذ بعض هذه التنبؤات في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ).

إن القرآن من المصادر الأساسية في فهم وتعليل بعض أحداث السيرة النبوية كالغزوات الكبار مثل أحد وبدر والخندق وحنين وتبوك، فقد شغلت غزوة أحد حيزًا كبيرًا من سورة آل عمران، وكذلك غزوة تبوك في سورة "براءة".

كما يحدثنا القرآن وبصورة مفصلة عن نفسيات وأخلاق المشركين وأهل الكتاب وخاصة اليهود، ولا يخفى ما لليهود والنصارى من دور في الأحداث العالمية، ولا شك أن الذي يُخدع بهؤلاء لم يتمكن من فهم القرآن من قلبه، ولم يستوعب دروسه، كما يحدثنا بشكل مفصل عن فئة قد توجد في كل عصر ويكون لها دورها في المجتمعات الإسلامية وهم المنافقون، الذين يخربون من الداخل. هذه الفئة وصفها القرآن حتى كأن صورة كل منافق ترتسم أمامنا شاخصة تلوح، وإن دراسة هذه الأصناف من البشر لهي جديرة أن تعطي للمؤرخ نظرة دقيقة ورحبة عما جرى ويجري من حوادث التاريخ.

ثانيًا: السنة: ورد في السنة أحاديث صحيحة تذكر أحداثًا ستقع أو تحذر المسلمين من أمور يجب عليهم ألا يفعلوها، أو تصف عصرًا بصفة معينة، كل هذا يلقي أضواءً تعيننا على تحليل وفهم أحداث التاريخ الإسلامي.

ثالثًا: العلماء: هناك علماء لم يصرفوا جُل عنايتهم للتاريخ، ولكن لهم آراء وتعليقات على بعض الأحداث، أو نظرات عامة لبعض العصور والدول، وآراؤهم هذه لها قيمة كبيرة، لأنهم أشد الناس إنصافًا وتحريًا للحق. وليس لهم غرض عند الحكام أو المحكومين، يقول الإمام أحمد بن حنبل - عن الذي يتوقف في خلافة علي رضي الله عنه ويقول: لا أدري هل كان الحق معه أو مع غيره؟، ويظن أن هذا من شدة تحرّيه - يقول عنه: (هو أضل من حمار أهله)!.

ويقول ابن تيمية - موضحًا رأي أهل السنة في ملوك الدولتين الأموية والعباسية -: (ما قال أهل السنة أن الواحد من هؤلاء كان هو الذي تجب توليته وطاعته في كل ما أمر به، بل كذا وقع، فيقولون تولى هؤلاء وكان لهم سلطان وقدرة؛ فانتظم لهم الأمر، وأقاموا مقاصد الإمامة من الجهاد وإقامة الحج والجُمَع والأعياد وأمن السبل، ولكن لا طاعة في معصية الله).

وعندما طعن العلماء في نسب العُبيديين الذين كانوا بمصر والذين تسموا "بالفاطميين" وقالوا: ليس لهم أي صلة بنسب علي بن أبي طالب، وأنهم مجوس ملحدون، فهذا الطعن له أهمية كبيرة، ويساعدنا على فهم تصرفات هذه الدولة.

فهؤلاء العلماء من أمثال أبي حامد الإسفراييني وأبو الحسن القدوري والبيضاوي وابن الأكفاني وغيرهم لا يمكن أن يشهدوا هذه الشهادة تقربًا وتملقًا للخليفة العباسي ببغداد، كما يريد أن يصورهم البعض، وهؤلاء أجلّ من أن يشهدوا زورًا من أجل الخليفة.

ويبدي ابن تيمية رأيه في خلفاء بني العباس من ناحية إقامتهم للصلوات فيقول: (وكان خلفاء بني العباس أحسن تعاهدًا للصلوات في أوقاتها من بني أمية). ويقول أيضًا ذاكرًا بعض سلبيات الدولة العباسية: (وكان في أنصارها من أهل المشرق والأعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم حيثُ قال: (الفتنة ههنا)، وظهر حينئذ كثير من البدع، وعُرّبت أيضًا إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم، وكان المهدي من خيار خلفاء بني العباس وأحسنهم إيمانًا؛ فصار يتتبع المنافقين الزنادقة). ويقول أحد علماء المغرب المعاصرين - موضحًا حرص العباسيين الأوائل على نشر السنة: (ولما أراد بنو العباس نقل عاصمة الملك إلى بغداد، لم يجدوا في العراق ما يكفي لنشر السنة إلا بأن أتوا من المدينة بعلماء مهدوا السبيل كربيعة بن أبي عبد الرحمن ويحيى بن سعيد، وارتحل إليهم هشام بن عروة وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ومحمد بن إسحاق، ومن حينئذ بدأ ظهور السنة هناك).

رابعاً: العلماء المؤرخون: من أمثال الطبري وابن كثير والذهبي وابن الأثير والسخاوي؛ فهؤلاء يجمعون بين علم الحديث والفقه من جهة، والتاريخ والكتابة التاريخية من جهة أخرى. ولا شك أنهم مقدمون في توثيقهم للحدث التاريخي أو فهمهم له على المتخصصين في التاريخ الذين لا يهتمون إلا بجمع المادة التاريخية سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة. فعندما يبدي ابن كثير رأيه في الحجاج بن يوسف ويقول عنه: (وقد كان ناصبيًا يبغض عليًا في هوى آل مروان، وكان جبارًا عنيدًا، مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة)، عندما نسمع هذا لا نلتفت إلى ما يحاوله بعض المعاصرين من الدفاع عن الحجاج دفاعًا باردًا؛ فهو ظالم لا شك في ذلك، وكلام ابن كثير هو الحق.

ويقول الذهبي عن أمير مصر - زمن الوليد بن عبد الملك - قرة بن شريك: (ظالم جبار، عاتٍ فاسق، مات بمصر بعد أن وليها سبعة أعوام). وكيف يكون عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، مجددًا إذا لم يكن هذا الظلم قبله؟!

ويقول الذهبي أيضًا عن أبي مسلم الخراساني: (كان بلاءً عظيمًا على عرب خراسان فإنه أبادهم بحد السيف).

وهؤلاء العلماء المؤرخون معتدلون منصفون يرجعون بالحق إلى نصابه إذا طاشت الكفة هنا أو هناك، فغُلُوّ الروافض يقابله أحيانًا غلو من جهلة أهل السنة، وتأتي أقوال هؤلاء العلماء هي الحَكَم الفصل، خاصة عندما يغلب على الناس قلة الإنصاف. يقول ابن كثير - معلقًا على حديث (خلافة النبوة ثلاثون عامًا ثم يؤتي الله ملكه من يشاء) -: (هذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة، وعلى النواصب الذين ينكرون خلافة علي بن أبي طالب).

ويقول الذهبي عن معاوية - رضي الله عنه -: (حسبك بمَن يؤمّره عمر ثم عثمان على إقليم وهو ثغر - فيضبطه ويقوم به أتم قيام، فيرضي الناس بسخائه وحلمه وإن كان بعضهم تألم مرة منه وكذلك فليكن الملك وإن كان غيره من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خيرًا منه وأفضل فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وقوة دهائه وله هنات وأمور والله الموعد).

خامسًا: حقائق التاريخ: وعلى رأسهم مؤسس علم الاجتماع وعالم نقد التاريخ عبد الرحمن بن خلدون الذي حاول في مقدمته المشهورة أن يضع الأسس التي تساعد المؤرخ على تفهم أحوال الدول وتقلباتها وأسباب اضمحلالها، والمجتمعات وأسباب رقيها وانخفاضها، وليس هذا موضع تفصيل نظريات ابن خلدون في مقدمته ولكن نضرب مثالًا واحدًا للأسس التي وضعها لفهم حقائق التاريخ.

فقد نبه ابن خلدون في مقدمته إلى ناحية مهمة جدًا يذهل عنها أكثر الناس وهي تبدل أحوال الناس وتطورهم من حالة إلى حالة، في كثير من العادات والتقاليد أو طريقة التفكير وتناولهم للأمور، أي يجب أن نفهم طبيعة العصر الذي عاش فيه فلان أو قامت فيه الدولة الفلانية، ولا نقيسه على عصرنا تمامًا، فالبيئة العلمية التي تكون في عصرٍ ما هي التي تساعد على ظهور

علماء مجتهدين، والذي يظن أنه يجب أن يكون بيننا الآن من أمثال هؤلاء العلماء دون أن يكون هناك بيئة علمية فهو واهم، وقس على ذلك البيئة الجهادية التي بدأها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين والتي كان من نتائجها صلاح الدين الأيوبي.

والذي لا يتفطن لهذا يظن أن الأمور متشابهة من كل الوجوه. وقد يرى ما عليه الصحابة والتابعون من قيامهم بالأعمال الجليلة، سواء في قيادة الجيوش أو التعليم، فيظن أنه يمكن أن يتأتى له هذا دون تدريب وتعلم، ولا يعلم أن العرب - لأول عهدهم بالرسالة - كانوا من صفاء الذهن والذكاء والفصاحة ما جعل هذه الأمور سهلة عليهم. فهم يعلمون طبيعة الناس والمجتمعات دون أن يدرسوا علم النفس وعلم الاجتماع مثلًا، وقد يرى ما عليه بعض العلماء في العصور المتأخرة من التصنع في اللباس والهيئة فيظن أن العلماء السابقين كانوا هكذا.

يقول ابن خلدون: (من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة. ومن هذا الباب ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ، إذ سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب، فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب، يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل).

وللمؤرخين من غير المسلمين - وخاصة الغربيين - نظريات في التحليل التاريخي يجب أن لا تُهمل، بل نستفيد منها مع الحذر لما فيها من تعميم أو نظريات مادية أو غير صحيحة. فالمؤرخون الغربيون لهم جهود كبيرة في علم التاريخ، بل نستطيع القول إن اهتمامهم بهذا الفن قد بلغ مبلغًا عظيمًا، وذلك لما رأوه من أثر دراسة التاريخ في معرفة الحاضر والتخطيط للمستقبل.

كما أن الدراسات النفسية والاجتماعية التي تقدمت وتطورت كثيرًا في هذا العصر - هي من المصادر التي يُعتمد عليها مع التنبه إلى عدم المغالاة فيها وفي حشرها في كل شيء.

منهج البحث التاريخي في الدراسات الإسلامية: المنهج لغةً: "وسيلة محدّدة توصِّل إلى غاية معيَّنة، والمنهج العلمي: خُطَّة منظّمة لعدَّة عمليّات ذهنيَّة أو حسيَّة بُغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها". "قال الرّاغب الأصفهانيُّ في مفرداته: "النَّهْجُ: الطريقُ

الوَاضِحُ، ونَهَجَ الأمْرُ وأَنْهَجَ: وَضَحَ، ومَنْهَجُ الطَّرِيقِ ومِنْهَاجُهُ، قال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) [المائدة: 48]". فالمنهج إذًا هو الطريق الواضح، الّذي لا يتيه سالكُه، بل يصلُ إلى غايته من ورائه مباشرةً، بلا التواءٍ ولا تعرُّج.

ولقد "كان العلماء المسلمون يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد، ولذلك وضعوا أصولا وضوابط للبحث في مختلف العلوم، مثل أصول الحديث (المصطلح)، وأصول التفسير، وأصول الفقه".

أما منهج البحث التاريخي "فهو مجموعة الطرق والتقنيات التي يتبعها الباحث والمؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل وقائعه وزواياه. وكما كان عليه زمانه ومكانه. ويجمع تفاعلات الحياة فيه. وهذه الطرق قابلة دوما للتطور والتكامل مع تطور جموع المعرفة الإنسانية وتكاملها ومنهج اكتسابها". ويضيف الدكتور حسن عثمان "أن منهج البحث التاريخي هو المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية - بقدر المستطاع - ويقدمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامة. وتتلخص هذه المراحل فى تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له، ثم اختيار موضوع البحث، وجمع الأصول والمصادر، وإثبات صحتها، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه، وتحرَى نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها... وإثبات الحقائق التاريخية وتنظيمها وتركيبها والاجتهاد فيها وتعليلها، وإنشاء الصيغة التاريخية ثم عرضها عرضا تاريخيا معقولا".

يقول ابن خلدون: "اعلم أنّ فنّ التّأريخ فنّ عزيز المذهب جمّ الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم؛ حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر وتثبّت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ وينكّبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمدت على مجرد النقل ولم تحكّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قِيسَ الغائبُ منها بالشاهد والحاضر بالذاهب؛ فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا

أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار".

النقد التاريخي ومنهج الجرح والتعديل:

(لا شك أن من المهمات الرئيسة للمؤرخ بعد الاطلاع على المرويات التاريخية، تمحيص الخبر وبيان صحته أو زيفه، وذلك بعد عرضه على منهج واضح محدد المعالم يرتضيه هو لنفسه، ذلك أن الخبر بطبيعته يتطرق إليه الوهم والغلط أو الكذب أحيانًا، وقد تكلم ابن خلدون في مقدمته عن الأسباب التي تقتضي الكذب في الأخبار فذكر منها:

١. التشيعات للآراء والمذاهب.

٢. الثقة بالناقلين.

٣. الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية.

٤. الجهل بطباع العمران).

وإذا كان الخبر التاريخي يختلف عن نقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض الوجوه، إلا أن (منهج الجرح والتعديل الذي قام به أهل الحديث هو من أعظم العلوم التي برز فيها المسلمون، وإن تطبيق هذا المنهج على الروايات التاريخية - إن أمكن ذلك - لهو في غاية الأهمية، ولكن هناك صعوبات تعترض هذا التطبيق، منها:

١. لم تؤلف الكتب في جرح وتعديل رواة التاريخ كما وقع لرواة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢. إن البحث والتفتيش عن الرواة انتهى في القرون الأولى بعد أن اطمأن علماء الحديث إلى حفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن التاريخ حركة دائبة، فكيف العمل في الأحداث التي جاءت من بعد؟

٣. تتدخل عوامل كثيرة في الحدث التاريخي غير الرواية، مما يساعد على التأكد أو الشك في الخبر، كالآثار التاريخية والعوامل الجغرافية.. إلخ. لهذه الأسباب ولغيرها لا بد من الجمع بين منهج أهل الحديث، وما ذكره ابن خلدون من عدم مخالفة الخبر لسنن الاجتماع، أو عدم مخالفته

للعقل الصريح، مع الاستفادة أيضًا من مناهج النقد الحديثة عند دارسي التاريخ، مما يتفق والأصول العامة للإسلام.

وقد طبق ابن خلدون منهجه في نقد الخبر وهو: هل يثبت هذا الخبر أولًا إذا عرض على قواعد علم الاجتماع، أو أنه يتناقض مع طبيعة العصر وطبيعة العلاقات الاجتماعية يومها؛ وذكر أمثلة على منافاة الأخبار لطبيعة قواعد علم الاجتماع نذكر منها:

أ- قصة العباسة أخت الرشيد قال: (ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة عن سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، وأنه لِكَلَفه بمكانهما أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصًا على اجتماعهما في مجلسه، وأن العباسة تحيلت على التماس الخلوة، فحملت من جعفر ووشي بذلك للرشيد فاستغضب) ويتابع ابن خلدون نقده لهذا الخبر: (وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها، وأبويها، وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربع رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده، والعباسة بنت محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ترجمان القرآن، ابنة خليفة، أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز، قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة... الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على همته وعظم آبائه؛ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واستنكاف الرشيد عن الحَجْر والأنفة..).

ب- كثيرًا ما يقع المؤرخون في الوهم والغلط عندما يكون الخبر متعلقًا بالأرقام والإحصائيات، كإحصاء الجيوش، أو أموال الخراج، وبعض الناس عندهم ولع بتضخيم الأرقام، فيذكرون أشياء تصادم العقل والبديهيات، وتصادم قانون النمو السكاني، وقد انتقد ابن خلدون المؤرخين قبله لوقوعهم في هذه الأغلاط، واعتمد في نقده على علم الإحصاء، وتكاثر السكان ضمن البيئة الجغرافية التي يعيشون فيها. يقول: (وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، وأن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون).

يعلق ابن خلدون على هذه الرواية: (ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش، ولقد كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل، ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبًا منه، وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرون ألفًا كلهم متبوع، وكانوا في أتباعهم أكثر من مائتي ألف، وعن عائشة والزهري أن جموع رستم التي زحف بها لسعد بالقادسية إنما كانوا ستين ألفا.

وأيضًا، فالذي بين موسى وإسرائيل (يعقوب عليه السلام) إنما هو أربعة آباء على ما ذكره المحققون، وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة، ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد).

ولا بد من التأكيد على أن منهج أهل الحديث في نقد الخبر هو من أعظم المناهج، وإذا استطعنا الجمع بين هذا المنهج ومنهج النقد الاجتماعي والعقلي عند ابن خلدون وغيره من دارسي التاريخ مع بعض التحفظات على هذه المناهج - فسوف نؤدي بعملنا هذا خدمة جليلة للتاريخ الإسلامي).

قواعد منهج البحث التاريخي في الدراسات الإسلامية

يتضح لنا مما سبق من كلام ابن خلدون أن هناك قواعد يجب أن تُراعى وتُتبع فى منهج البحث التاريخي وطريقة دراسته. ومن خلال كلامه وكلام علماء آخرين نستطيع أن نجمل بعضًا من تلك القواعد:

أولا: التصور الصحيح:

يجب على المتصدي للبحث التاريخي أن يملك تصورًا صحيحًا، عقديًا وفكريًا وأخلاقيًا، ليمكنه من دراسة وتفسير الأحداث التاريخية بصورة صحيحة بعيدة عن الأهواء، (فالوحي الرباني هو المصدر المأمون الذي يتميز بالثبات والشمول ويقدم التفسير الشامل للحياة والكون والإنسان وحقيقة الألوهية والعبودية، لأنه كلام رب العالمين العليم الخبير المطلع على كل شيء، والمبرأ مما يعتري البشر من القصور والظلم والجهل وسوء الفهم والارتباط بالمصلحة والبيئة التي نشأ فيها، والتربية التي تلقاها، والمفاهيم والتصورات المتوارثة... فلقد وضع الإسلام ضوابط لمنهج العلم وتلقيه كما وضع ضوابط لأدوات العلم والمعرفة. فالعقل والسمع والبصر أدوات زود الله بها

الإنسان ليحصل عن طريقها على المعرفة. فهي أدوات لا مصادر مستقلة للمعرفة. واعتبار أن الوحي الرباني الذي يرجع إليه لضبط المعرفة).

ثانيا: دراسة السنن الربانية:

يقول محمد قطب رحمه الله: "إنما يُستمد التفسير الإسلامي للتاريخ من الإسلام؛ من المقررات الإسلامية عن الوجود كله، سواء الوجود الإلهي، أو الوجود الإنساني، أو الوجود المادي، وعلاقة الخالق بمخلوقاته، وعلاقة الخلق بخالقهم، والسنن التي يجري بها الله أمر البشر وأمر الكون المادي سواء".

فالباحث التاريخي يجب أولًا أن يكون على علم بالسنن الربانية التي يجريها الله سبحانه وتعالى على خلقه، فيجب عليه أن يدرك التالي:

- أن سنة الله نوعان: "سنة متعلقة بالأمور الطبيعية، كسنة الله في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، فهي تجري وفق ناموس محدد قدّره الله لها. وسنة متعلقة بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده، فهي ثابتة لا تتبدل، مثل نصره لأوليائه وإهانته لأعدائه.

- أنه سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول، فهو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين، وإذا وقع فذلك لعدم التماثل... يقول ابن تيمية: (ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها. لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن).

- السنة الربانية قد تستغرق وقتًا طويلا لكي ترى متحققة في الواقع، في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك فقد لا يرى السنة متحققة في الواقع.

وذلك من خلال دراسة التاريخ يعلم الإنسان أن الحاضر الذي يعيشه إذا كان فيه ما يتصور أنه مخالف لسنة الله الشرعية - غير مستثنى من السنة الربانية بل هو جزء منها، ولكن للسنة الربانية أجل ووقت محدد".

ثالثاً: التوثيق وإثبات الحقائق (النقد التاريخي)..

(تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على قدرة الباحث على الدرس والبحث، وقدرته على نقد ما تحت يديه من الأصول والمصادر والمراجع، وطريقته في استخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وعرضها).

فحوادث التاريخ تعرف إذًا بصفة أساسية عن طريق غير مباشر، بدراسة آثار الإنسان المتنوعة التي تُحفظ من الضياع. فالمؤرخ لا يرى الحوادث نفسها، ولكنه يرى ويدرس آثارها. وبين نقطة البدء وهي آثار الإنسان المتنوعة والهدف المراد الذي هو الحقيقة التاريخية طريق طويل معقد متشابك عتوره المصاعب والعقبات والأخطاء. ودراسة الأصول التاريخية وتحليلها هي من أهم المراحل في طريقة البحث، وهي عبارة عن ميدان نقد الأصول التاريخية

الحضارة العربية الإسلامية:

تعرف الحضارة العربية الإسلامية بأنها ما جاء به الاسلام للبشرية من قيم ومبادئ وقواعد للمضي قدما نحو الشأن المرتفع والحياة السامية الفضلى، وبالتالي التقدم والتطور في الجوانب المادية والمعنوية التي تسهل على الانسان حياته وتنظمها. كما يمكن تعريف الحضارة الاسلامية بأنها حصيلة امتزاج الشعوب العربية وغير العربية التي اعتنقت الاسلام وثقافته، كما هي نتاج لالتقاء الحضارات والثقافات التي شملتها الفتوحات الإسلامية حول بعضها البعض واتباعها المنهج الاسلامي بتطبيق مبادئه وقيمه، وبلغت ذروتها في العصر الذهبي للإسلام، وكان ذلك منذ منتصف القرن الثامن وحتى الرابع والخامس عشر للميلاد. شهدت الحضارة الإسلامية خلال هذه الفترة تقدما في المجالات العلمية والتجارية والاقتصادية والصناعية وغيرها.

أنواع الحضارة الإسلامية :

تصنف الحضارة الإسلامية إلى عدة أنواع وهي:

1-حضارة التاريخ: تسمى أيضا حضارة الدول، وهي تلك التي جاءت بها الدول الإسلامية سعيا لرفع الشأن الإنساني وتقديم الخدمة له، وشملت المجالات الزراعية والصناعية والتعليم. وركزت على طبيعة العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول الاخرى.

2-الحضارة الإسلامية الأصيلة: قام هذا النوع من الحضارات خصيصا لتقديم الخدمة للإنسان بكافة أشكالها وتشمل على ماأتى به الدين الإسلامي من عقيدة وسياسة واقتصاد وتربية وقضاء.

3-الحضارة المقتبسة: يطلق على هذا النوع مسمى"البعث والإحياء"، ويعتبر قيام هذه الحضارة بمثابة خدمة كبيرة للبشرية، وتمثلت في قيام المسلمين بإحياء ما مات عبر السنين من علوم وحضارات، وتمثلت أيضا في الجوانب الاخلاقية.

خصائص الحضارة العربية الاسلامية :

تنفرد الحضارة الإسلامية بجملة من الخصائص التي تميزها عن غيرها من الحضارات المتعاقبة على مر العصور وهي:

1- حضارة إيمانية: استمدت الحضارة الإسلامية إيمانها من العقيدة الإسلامية، إذ تحلّت بمبادئها وأخلاقها وأفكارها كاملة، فهي حضارة مؤمنة بوحدانية الله سبحانه وتعالى.

2- حضارة إنسانية: هي تلك التي جاءت لتحتضن جميع الشعوب والامم، ولا تقتصر على جنس بشري أو إقليم جغرافي معين، وتركز جل اهتمامها على الانسان وتحقيق الرفاهية والسعادة له.

3- حضارة معطاءة: يشير مفهوم هذه الخاصية إلى أن الحضارة قدمت للعالم ومدت له يد العون في إمداده بالعلم والمعرفة الزاخرة، ما يضمن الرقي والفائدة.

4- حضارة متوازنة: هي تلك الحضارة التي حافظت على توازن الجانبين المادي والروحي، وتحقيق العدالة بينهما، ويعتبر التوازن أحد خصائص الفكر الإسلامي.

5- حضارة ربانية: هي تلك التي جاءت وتطورت بعد نزول الوحي على رسول الله -صل الله عليه وسلم-.

6- حضارة باقية: يعني أنها لا يمكن لها الفناء، وباقية إلى يوم القيامة وهذا راجع إلى تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ الدين الحنيف.

دعائم الحضارة العربية الإسلامية:

الحضارة الإسلامية هي حضارة تقوم على الإسلام؛ حيثُ إن الفكر الإسلامي هو الذي بناها وشيدها، وهي حضارة إنسانية تشمل مختلف جوانب الحياة ،كما أنها حضارة ربانية تعود إلى

العلم الذي جاء به الرسول -صل الله عليه و سلم- وقد استفادت الحضارة الإسلامية من مختلف الحضارات السابقة في قيامها وقد تفوقت عليها، فرفعت من شان الشورى والعدالة والمساواة والحرية ومختلف الحقوق الإنسانية .و يمكن القول أن الحضارة الإسلامية هي حضارة نتجت من تفاعل مجموعة الثقافات الخاصة بالشعوب التي دخلت في دين الاسلام، كما انها خلاصة تفاعل الحضارات الموجودة في المناطق التي وصل إليها الإسلام أثناء الفتوحات الإسلامية.

دعائم الحضارة العربية الإسلامية:

تقوم الحضارة العربية الإسلامية على مجموعة من الدعائم والركائز أهمها:

1- الربانية: إن القاعدة التي تعتمد عليها الحضارة والشريعة الاسلامية هي معرفة الناس بخالقهم ؛حيث تساعد على إيجاد حلول لجميع المشكلات التي تواجه الإنسانية، ودونها لن يتحقق الإصلاح في المجتمع.

2- العدل الشامل: إن للعدل أهمية كبيرة في تحقيق الأمن و الاستقرار في المجتمع،والحث على الطاعات وتحقيق الألفة والمودة بين الناس؛ لذلك يعد العدل قاعدة من أهم قواعد النظام السياسي في المجتمع الاسلامي، ويجب أن يطبق العدل في الحضارة الاسلامية بين الأفراد سواء كانوا أغنياء أم فقراء أم حاكمين أم محكومين، و حتى إن كانوا غير مسلمين، فتحقيق العدل الشامل يساهم في ازدهار البلاد ونموها وعمرانها.

3- الأخوة الإنسانية: جاء الإسلام ليقضي على الفروقات الجنسية والتفريق العنصري لتحل محلها الأخوة الإنسانية، فلا فرق بين شرقي أو غربي أو عربي أو أعجمي، فجاءت رسالة الإسلام عالمية لجميع الأمم والشعوب، ودعت إلى عالم تسود فيه العدالة والحرية والطمأنينة والسلام.

4- الشورى: تعد الشورى قاعدة مهمة من قواعد الشريعة الإسلامية؛ حيثُ إن الإسلام حث على الشورى في جميع الأمور وأمر بإتباعها، ورسخ قواعدها. ولكن لم تحدّد كيفية تطبيقها؛ لأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال الاجتماعية والمكانية والزمانية. ومن مظاهر الشورى في الوقت الحاضر انشاء المجالس النيابية التي يتم من خلالها التشاور في أمورالأمة الى جانب مشورة ولي الامر.

5- المساواة: إن الإسلام لا يفرق بين الافراد في المجتمع، فالمساواة شعار أساسي من الشعارات التي ينادي بها ويجب أن تتحقق المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع الناس مهما كانت عقائدهم وألوانهم و أجناسهم و في ظل الإسلام لا فرق بين الراعي والرعية ولا فرق بين طبقة و طبقة أخرى في المجتمع.

6- الثبات: يتميز الإسلام بتشريعاته الثابتة؛ وذلك لأنها ربانية المصدر، أما تشريعات البشر فتتغير وتتعدل لسيطرة الهوى عليها و قصور علم الناس بما يصلح ويفسد أحوالهم، فالله سبحانه وتعالى أعلم بخلقه وما يصلحهم وما يفسدهم.

7- الموازنة بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة: يوازن الإسلام بين المصلحتين العامة والخاصة،كما يقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وذلك باتباع أساس التوازن والتعاون في الامر كله.

8- الرحمة : إن الإسلام دين السلام، ولا يمكن أن يخالف ذلك إلا جاهل أو حاقد وأن اسم الإسلام مشتق من "السلام"و من يؤمن بدين الاسلام يسمى مسلما.وترتكز حقيقة الدين الاسلامي في التسليم لرب العالمين في كل النواحي و الجوانب.

دور العلماء المسلمين في كتابة التاريخ

ابن خلدون وفلسفة التاريخ:

حاول الإنسان من بداية وجوده أن يسجِّل أعماله بطرق بدائية متعددة، ولما اكتُشفت طريقة الكتابة، أخذ هذا التسجيل شكلاً علمياً. فالتاريخ ولد حيثما ولد الإنسان، وازدادت قيمته والاهتمام به عندما صار الإنسان يعيش مع أمثاله في مجتمع مُتّحد الغاية والهدف لقد كان المؤرخون العرب يعتمدون دائماً على الإسناد، فيروون الحادثة نقلاً عن فلان وفلان، إلى أن ظهر ابن خلدون، فأحدث انقلاباً جذرياً في دراسة التاريخ وقد جاء يسأل: ما هو التاريخ؟ وكيف نشأ؟ ثم أجاب: إن الإنسان هو الذي يصنع التاريخ . وانتهى إلى تقرير مؤداه إن التاريخ علم قائم بذاته

له أساليبه الخاصة في البحث عن العوامل التي سيطرت، أو فرضت أحكامها على سيرهِ ومجرياته.

من هو ابن خلدون..؟

ولد عبد الرحمن بن خلدون بتونس، في غرة شهر رمضان سنة 732هـ، الموافق 27 من مايو سنة 1332م، وتوفي بالقاهرة في 26 من رمضان سنة 808هـ، الموافق 16 من مارس سنة 1406م. تحدّر من أسرة إسبانية عربية يرجع نسبها إلى قبيلة كندة المشهورة. وكان جدّ هذه الأسرة قد هجر اليمن في القرن التاسع عشر الهجري ونزل إسبانيا. تقلّد عدداً من المناصب الرفيعة في فاس، ثم غضب عليه ولي الأمر، فهجرها إلى غرناطة، حيثُ انخرط في خدمة السلطان محمد الخامس سنة 1361م، وأوكل إليه السلطان مهمة التوسط في الصلح بينه وبين بلاط الكاستيل.

وبعد سنتين، عاد ابن خلدون إلى المغرب، وشغل فيها وظائف مختلفة إلى أن اعتزل العمل، وسكن قلعة ابن سلامة، التي تسمى اليوم توغزوت ، وتقع شرقي تلمسان بشمالي الجزائر، حيثُ أخذ يضع مؤلفه في التاريخ، الذي يعرف بـ مقدمة ابن خلدون ، أو كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر وقد بقي هناك في القلعة حتى سنة 1378م. وفي سنة 1384م، عيّن ابن خلدون رئيساً للقضاء في الأزهر بالقاهرة، بأمر من السلطان المملوكي الظاهر برقوق. وفي سنة 1401م رافق ابن خلدون الملك الناصر، خلف السلطان برقوق إلى دمشق في حملته على السفاح تيمورلنك، وقد وفد ابن خلدون على تيمورلنك فأكرم وفادته.

لقد أمضى ابن خلدون الأربع والعشرين سنة الأخيرة من عمره بمصر تحت حكم المماليك، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر في اتجاه الريدانية أو العباسية الآن.

أما عصر ابن خلدون فقد اتسم بالتخلف بعد أن ضاقت فرص التعليم، ورافق ذلك التخلف تداعي مؤسسة الدولة منذ أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حيثُ أصبحت الخلافة تحت

رحمة القادة الترك، ثم البويهيين والسلاجقة، وانتهت أخيراً بالهيمنة المغولية الوثنية. وفي سياق هذا الزمن ظهر ابن خلدون، ولم تكن بيئته المباشرة المغرب أقل تداعياً من غيرها.

مفهومه للتاريخ:

طور ابن خلدون تعريف التاريخ فعرّفه بقوله فنّ التاريخ الذي تتداوله الأمم والأجيال... هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، علم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، جدير بأن يعدّ في علومها خليق .

إن هذا التعريف يعكس فكرة ابن خلدون عن التاريخ، فهو فن من فنون المعرفة، يحوي أخباراً عن الزمن الماضي، غير أن هذه الأخبار ليست كل شيء في التاريخ؛ إنما هي الصورة التي تبدو لنا، هي محصلة لحركة أخرى في هذا الكون غير مرئية، ولشكل من العوامل وفعلها المفرد أو المتضافر الذي بموجبه تحدث الأحداث الوقائع . فالمحصلة التي نراها في التاريخ -الأخبار- هي بنت الصلة بين الحركة العامة والعوامل الخاصة الظرفية وهي مع الكيفية التي يقع بها الحدث، ويكتب في شكل خبر، تشكل جوهر التاريخ.

إن الصورة النهائية للتاريخ ليست أحادية العامل في التشكيل، إنما هي متعددة العوامل تسهم فيها الحركة العامة والظرف المكاني والأسباب الكامنة وراء الحدث، ثم شكل الحدث، ثم كيفية استكشافه وتقديمه في شكل خبر.

وما يلفت النظر، اختيار ابن خلدون مصطلح العِبر لكتابه في التاريخ، فاستخدامه هذا المصطلح إنما يعبر عن رؤيته للتاريخ التي ترى فيه فناً من فنون المعرفة، أساساً ومؤثراً في الحياة الاجتماعية بصيغة استقبالية؛ لأن وظائفه من النوع الذي لا يمكن لمعرفة أخرى القيام به، من الممكن أن تحاكيه فيها، ولكن من غير الممكن تجاوزه أو إلغاؤه، كما يقول الدكتور نزار الحديثي.

وإذا كان ظاهر التاريخ أخباراً، فالأخبار ليست حالة تكوين نظري، إنما هي صياغة أدبية تسجيلية لحدث حصل في زمن له مستواه في التقدم. فالأخبار -إذاً- تستوجب الرجوع إلى طبائع العمران، فضلاً عن نقد المؤرخ، وتقدير دور التقليد والرتابة في المنهجية المعتمدة من الكاتب، قياساً إلى

الزمن؛ لأن التقليد، كما يقول ابن خلدون، جعلهم يجلبون الأخبار عن الدول وحكايات الوقائع من العصور الأُوَل، صوراً قد تجردت من موادها .

هذا يعني عملياً، أن ابن خلدون سجّل كل العناصر التي يتطلبها علم التاريخ مرة واحدة في تعريفه للتاريخ. فتأريخ التاريخ مسألة أساسية يستوجب الانتباه لها. إذ على المؤرخ قبل غيره أن يعيها دائماً، لا بصيغتها كما وضعت يوماً ما، إنما بصيغتها التي تتكون بها في كل زمن. كذلك يفترض في المنهج الذي يتعامل به المؤرخ هو الآخر، أن يكون دائم التطور، يعمل في التاريخ، ويلتقط من محيطه أدوات وظواهر مستجدة، بوظيفتها في منهجية العمل.

الرؤية النقدية للتاريخ:

بلغ تطور الرؤية النقدية لدى المؤرخ على يد ابن خلدون درجة عالية من النضج والتطور، حيثُ حدد المطلوب توافره لدى المؤرخ بالآتي:

ضرورة استيعابه لجوهر الحدث التاريخي، إذ إنه في باطنه نظر وتحقيق .

علمه بقوانين الحياة: تعليل للكائنات ومبادئها دقيق .

معرفته كيفية وقوع الحدث، والقدرة على التصور علم بكيفيات الوقائع وأسبابها .

معرفة بالفلسفة، لأن علم التاريخ أصيل في الحكمة عريق .

استيعاب جهود فحول المؤرخين في الإسلام الذين استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها لتمييزها مما فعله المتطفلون من الدسّ والتحريف والتلفيق .

تجنب التقليد، لأنه يُبعد المؤرخ عن ملاحظة أسباب الوقائع والأصول .

معرفة طبائع العمران في أحواله.

تجنب التجريد في سَوْق الأحداث للتميز عن المؤرخين الذين نقلوا الأخبار عن الدول والعصور الأُوَل صوراً قد تجردت عن موادها .

الوعي لمتطلبات العصر، وظهور الكتابة التاريخية ومعرفة أمر الأجيال الناشئة في ديوانها .

معرفة ما يفرضه الهدف من علم التاريخ.

لقد نقل ابن خلدون التاريخ من الحالة مضطربة الموقع بين العلوم إلى الحالة المستقرة، فأصبح له تاريخه ونقده التاريخي وشروطه في الكتابة. وكان هذا كافياً لأن ينقل علم تأريخ التاريخ من مقدمة كتاب المؤرخ إلى البحث المستقل، وينقل التاريخ من مجرد الإخبار إلى فلسفة التاريخ.
لقد انتقد ابن خلدون أكثر المؤرخين لأنهم قلدوا من سبقهم أو أقصروا كتبهم على سرد أسماء الملوك وأعمالهم، ورددوا أخباراً دخيلة، لا يصدقها العقل بل يقوم على فسادها البرهان. ووصف ابن خلدون كتابه كتاب العبر... بقوله: فأنشأت في التاريخ كتاباً... أبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً، وسلكتُ في تربيته وتبويبه مسلكاً غريباً، واخترعته من بين المناحي مذهبياً عجيباً، وطريقة مبتدعة وأسلوباً، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنسانيّ من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرّفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها .

فلسفة التاريخ:

ابن خلدون، مؤسس فرع فلسفة التاريخ، أن البحث في هذا الفرع يتجه إلى كشف العوامل في صنع التاريخ للوقوف على طبيعة التاريخ، في بُعديه الماضوي والمستقبلي. وقد حدّد هذه العوامل بأنها قوى كامنة في المجتمع، وفي ظرفيه المكاني والزماني: وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك ، أي وصول المؤرخ إلى فَهم أدق للتاريخ عن طريق التسلح بوعي وخبرة أعمق. ويتحقق هذا عند ابن خلدون في الوصول إلى الأسباب الحقيقية وراء الأحداث، ومعرفة الكيفية التي وقع بها الحدث، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، وعن طريق تطبيق المؤرخ الطريقة التاريخية السليمة فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت .
فالمعرفة التاريخية تقررها مسألتان جوهريتان هما: استيعاب العلّية ودقة الطريقة التاريخية المتبعة في كشفها، إذ بهما يتحقق الفهم الدقيق للتاريخ، ويتم تشكيل وبناء المعرفة التاريخية، ويتكون الوعي، وتتحقق الخبرة، وتتم فائدة الاقتداء، لأن التاريخ اكتسب من شروط العلم ما يكفي ليجعله لدقته من علوم الحكمة.

إن اتجاه ابن خلدون إلى دراسة التراكم التاريخي للمعرفة مضمون التاريخ هو الاتجاه السليم لإرساء أساس لفلسفة التاريخ؛ فالفلسفة هنا تسعى لفهم ما ينظم هذا المضمون ويعطيه دلالاته، ويجعله موضع اعتبار وعبرة في حياة الشعوب، وهو سعي يختلف عن سعي الفلاسفة الآخرين الذين اتجهوا إلى تحكيم قواعد وقوانين خارجية على مضمون التاريخ.

ويرى ابن خلدون أن الاكتفاء بحدود الأخبار ليس هو التاريخ. فالتسجيل هو الجانب السلبي فيه. أما إذا كان المطلوب هو التأريخ ، فالتوجه يجب أن يتجاوز التسجيل ويذهب إلى معرفة لماذا وقع الحدث، وكيف جاء الإخبار عنه، ولماذا تمت صياغة الخبر بهذا الشكل، وما هي النتائج التي تترتب على حركة التاريخ؟

والذي يمارس كتابة هذا النوع من التاريخ هو فيلسوف؛ لأن عمله يقع أصلاً في حقل الفلسفة الحكمة . فالعِلِّية، كما يراها ابن خلدون، حالة مستترة خلف الحدث، وإظهارها يستوجب مراناً يتزود به المعنيّ بالمعرفة في بُعدها الماضي، ومراناً على قراءة الخبر. بمعنى تنشيط عملية ذهنية تحلل الخبر، وتبحث في خلفياته عن مبتغاها، والخروج بالحدث من دائرته الذاتية، بعد استيعابها إلى دائرة أوسع، هي عصر الحدث، أي التدرج في كشف ارتباطاته. ثم إخضاع كل المعلومات المتحصلة للتحليل والتدقيق، وإعادة تقديم الخبر في ضوء هذا البحث، بحيث يُفصح عن نفسه ويؤكد أنه هو الصورة الأقرب إلى الحدث لحظة وقوعه، ومن ثم الخروج بحكم تاريخي عام وشامل. فابن خلدون يعطي التاريخ دوراً للفعل في ذهن القارئ والتأثير فيه عن طريق تكوين قناعة لديه بأن ما يقرأ هو التاريخ.

إن مثل هذه القواعد، تستلزم بالضرورة مراناً في علوم ومعارف مساعدة كثيرة. يجب أن يُتقن المؤرخ التعامل بها واستخدامها كوسيلة من وسائل التحليل والقياس.

وتعتقد الباحثة الدكتورة زينب محمود الخضيري في كتابها: فلسفة التاريخ عند ابن خلدون أن ابن خلدون فرّق بين نوعين من التاريخ، الأول: علم التاريخ أو فن التاريخ، في ظاهره، والثاني: فن التاريخ، في باطنه.

فالنوع الأول، عبارة عن سرد أحداث الماضي والكلام عن الدول المختلفة، كيف قامت واتسعت ثم زالت. هو -إذاً- التاريخ بمعناه العام.

أما النوع الثاني، فهو فرع من فروع الحكمة أو الفلسفة؛ لأنه يبحث في أسباب الأحداث والقوانين التي تتحكم فيها. وهذا الوجه الآخر لفن التاريخ هو الذي يسمى اليوم بـ فلسفة التاريخ .

آراء منصفة وأخرى مزرية:

درس المؤرخ ساطع الحصري، (1880 – 1969م) مقدمة ابن خلدون دراسة وافية، وقارنها بمؤلفات كل من فيكو و مونتيسكيو وغيرهما، فجاء كتابه دراسات في مقدمة ابن خلدون من أروع الكتب الحديثة التي كشفت نقاطاً حسّاسة كانت غامضة عن ابن خلدون. ويرى الحصري أن نزعة ابن خلدون الفكرية كانت أقرب من نزعة فيكو إلى مناحي البحوث العلمية بوجه عام، وإلى أصول علمي التاريخ والاجتماع بوجه خاص.

كما يرى الحصري في القول إن شرف إدخال عنصر الاقتصاد في علم التاريخ يعود إلى مونتيسكيو، ما هو إلا افتراءات على الواقع والحقيقة، وإن هذا الشرف هو في حقيقة الأمر يعود إلى ابن خلدون الذي سبق مونتيسكيو في هذا الشأن بمدة تزيد على ثلاثمائة وخمسين سنة .

أما المؤرخ البريطاني الشهير آرنولد توينبي (1889 – 1975م) فقد وصف ابن خلدون بأنه من العباقرة، ويرى في مقدمته دلائل ساطعة على سعة النظر وعمق البحث وقوة التفكير ، وذلك لأن ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ، وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه، خلقه أي عقل في أي زمان ومكان . وقال روبرت فلنت: من وجهة نظر علم التاريخ وفلسفته، يتحلى الأدب العربي باسم من ألمع الأسماء، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة، ولا العالم الأوروبي في القرون الوسطى، يستطيعان أن يقدما اسماً يضاهي في لمعانه اسم ابن خلدون .

أما ماكدونالدز فيقول: إن مقدمة ابن خلدون أساس التاريخ، وحجر الزاوية فيه. وهي مقدمة تاريخية فلسفية لم ينسج أحد على منوالها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم .

ويرى دي بور أن المؤرخين القدماء لم يورثونا التاريخ علماً من العلوم يقوم على أساس فلسفي، على الرغم من جمال أسلوب بعضهم، وأن القدماء كانوا يعللون عدم بلوغ الإنسانية منذ زمن بعيد درجة أعلى مما بلغته في المدنية، بالاستنتاج أن حوادث أولية كالزلزال والطوفان، وإلى أن

المسيحية كانت تعد التاريخ بوقائعه، تمهيداً لملكة الله على الأرض. أما ابن خلدون، فكان أول من حاول أن يربط بين تطور المجتمع الإنساني من جهة، وبين علله القريبة مع حُسن الإدراك لمسائل البحث وتقديرها، مؤيدة بالأدلة المقنعة .

غير أن بعض المستشرقين، روج عن ابن خلدون فكرة مغلوطة مآلها أن هذا الفيلسوف الكبير لم يلتزم في تاريخه بالقواعد التي وضعها في مقدمته، بل كان يجمع الأخبار ولا يكترث بالسند ولا بالمتن. كما أزرى بالمقدمة فريق آخر من الباحثين؛ لأنها تطرقت إلى مواضيع كان ينبغي أن يترفع عنها هذا العبقري، وألاَّ يدع لها مكاناً في كتابه القيّم، وكادوا من أجل بعض الفصول أن يذهبوا بجميع مزايا المقدمة، وأن يبخسوها حقها.

تجديد يبرر الشهرة:

ارتكزت شهرة ابن خلدون على مقدمته، إذ وردت فيها لأول مرة نظرية النشوء التاريخي المبنية على الأخذ بعامل المناخ والجغرافيا، وتأثير العوامل الخلقية والروحية في مجرى حوادث التاريخ. وقد قال ابن خلدون عن نفسه في مقدمته إنه مخترع طريقة مبتدعة في علم التاريخ والعمران، وذلك من حيثُ سعيه للبحث عن قوانين التقدم والانحلال القومي، وقرر في تعريفه للتاريخ عدة

أمور جوهرية:

إن التاريخ علم، وهو كأي علم له قواعده، سواء في المفهوم أو الصياغة النظرية للمفهوم، أو في الكتابة، أو آلية التحقيق.

إن آلية التحقيق، أو لنقل عمل التاريخ ليست آلية حتمية، بل آلية تحويلية، بنت عناصر أساسية أبرزها طبيعة العمران في الزمن المعين والمكان المعين. فالحدث هو نوع من عمل التاريخ، ودور الأذراف فيه دور تاريخي، ومن ضمنهم المؤرخ.

إن الطريقة التأريخية ذات أسلوب نقدي خاص، تتحد عناصر الأساسية في: المؤرخ، ومفهوم التاريخ، وأسلوب الكتابة التاريخية، واستيعاب الخبر والوعي بما خلف الخبر من صلات غير منظورة للخبر ببيئته المكانية والزمانية.

إن التاريخ يحوي عمقاً فلسفياً متعدد الأبعاد، يتجاوز حدود العمق في المفهوم، بما يكفي للتميز بين المفهوم المباشر للتاريخ، والمفهوم غير المباشر له. باعتبار أن التاريخ هو الزمن المتحدّ في واقع، بما يكفي ليجعل حدثاً معيناً يقع بهذه الصورة وليس بصورة أخرى.

إن للتاريخ دوراً استقبالياً، فهو يهتم بالماضي، لا لذاته، ولكن للوعي وللمستقبل لطالما أن التاريخ عِبَر ، والعبر تعمل مع الآتي، لكي يكون كما نريد. لقد أراد ابن خلدون أن يستخدم التعليل أداة في كشف العلة في الحدث واستخلاص الأسباب المحركة للتاريخ؛ أي أنه أراد إعادة ترتيب الماضي ليقدم لنا منه صورة غير مسجلة؛ إنما مستخلصة.

إن تركيز ابن خلدون على أن التاريخ هو خبر عن الإجماع الإنساني، يعني عملياً أنه أخرجه من حيازة كل العوامل الأخرى، وأرجعه إلى النشاط الإنساني، وفي الوقت نفسه، حرّر التاريخ من الطبيعة التسجيلية. فعندما يكون التاريخ خبراً عن النشاط الإنساني فإنه لا بد أن يحمل أثر طبيعة المجتمعات. فالمجتمع كيان حي، ينمو ويتطور.

ويرى ابن خلدون أن التاريخ في ظاهره لا يزيد على الأخبار عن الأيام والدول .. ولكن في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأساسها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعدَّ في علومها خليق .

كما وضع ابن خلدون الأسلوب التاريخي وهو يرى الأغلاط التي وقع فيها الذين سبقوه، وأرجعها إلى عدة أسباب أهمها، تشيّع المؤلفين وتصديقهم لكل ما يرد من دون تمحيص، وجهلهم بطبائع العمران وأحوال الناس. ولا يقف ابن خلدون عند هذا الحد، بل نراه يضع القوانين لدراسة التاريخ كربط الحوادث بعضها ببعض، ارتباط العلة بالمعلول، وقياس الماضي بقياس الحاضر، ثم مراعاة البيئة واختلاف تأثيرها باختلاف الأقاليم.

لقد اتخذ ابن خلدون من المجتمع كله، ما يعرف فيه من الظواهر، مادة لدراسته، وحاول أن يفهم هذه الظواهر، وأن يعللها على ضوء التاريخ، وأن يرتب من سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة. وهذا ما جعل الباحثين يقولون بتفوق ابن خلدون على ميكافيللي (1469 – 1527) تفوقاً عظيماً في التفكير ونوع النتائج.

إن العلاَّمة ابن خلدون هو الذي مهّد الطريق أمام علماء التاريخ ونقاده. فهو -إذاً- في عداد كبار طلائع المؤرخين الفلاسفة. وفي الحقيقة أن العالم كله لم يشهد رجلاً يماثله في هذا الميدان حتى لا أرسطو ولا أفلاطون.

ويزيد في قيمة ابن خلدون العلمية والفكرية أنه كان يعمل من دون مساعدين. وأنه رغم الظروف الخاصة التي أحاطت به، خرج إلى العالم بهذا النجاح الهائل المدوي في نتائج أبحاثه ودراساته. لقد قامت شهرة ابن خلدون على المقدمة العظيمة التي وضعها لتاريخه، فكانت فتحاً جديداً في الثقافة العربية والإسلامية لم يعهده الناس من قبل. وانكب العلماء والباحثون على دراسة ما فيها من أصول لعلم الاجتماع وقواعد لفلسفة التاريخ. فخصها طه حسين بدراسة عن الفلسفة الاجتماعية، وضعها باللغة الفرنسية، ونقلت إلى العربية.

وعرفت دمشق في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين حلقات يلتقي فيها الطلاب والشباب حول إمام من أئمة العلم ليقرأوا عليه المقدمة وليشرح لهم بعض ما استغلق عليهم من معانيها ومبانيها. ولما أدخلت الفلسفة الإسلامية مادة أصلية في الدراسة الثانوية، انحلت هذه الحلقات بطبيعة الحال، كما يقول الأستاذ الدكتور ظافر القاسمي.

كان ابن خلدون شاهداً على عصره، فاختار لإنجاز عمله طريقة تاريخية مبتكرة، مركزاً فيها على البعد التبشيري للعلماء والخاصة على السواء، مع الحرص على ترتيب وتبويب خاص غير مألوف في التأليف التاريخي، سالكاً فيه أسلوباً في العرض والتحليل، ومعتمداً الأخبار مادة أولية لعمله.

وختاماً نذكر أن العلاَّمة ابن خلدون قد سجل بنفسه تاريخ حياته في كتابه المعروف الرحلة الذي حذا فيه حذو الرحالة الشهير ابن بطوطة.

اطوار الكتابة التاريخية في العصر الحديث: نحن نأخذ الكتابة التاريخية كما نألفها الآن أمرا مسلما به، ونستغرق في صراعات المدارس التي تطرح بشأنها مناهج مختلفة، من قبيل مدرسة الحوليات، أو مدرسة التاريخ المصغر، أو المدارس المتأثرة بما بعد الكولونيا لية؛ وقد نتجادل حول التاريخ الأَولى بالعناية: التاريخ السياسي، أم الاقتصادي، أم الاجتماعي؟ تاريخ

المهمشين، أم تاريخ المؤسسات؟ مثلا. وقد نطرح التساؤلات عن الحيازات هذه المناهج، بل وحول مصداقية كتابة التاريخ، وهل هي قادرة بالفعل على أن «تقول الحقيقة» عن الماضي؟، أم هي مجرد رؤى صاغها المؤرخون المحدَثون، تنتمى لعصرهم، فرضوها فرضا على هذا الماضي، بوعى أو، غالبا، بغير وعى. لكن الحقيقة الجديرة بالنظر هي أن هذا الجدل المتشعب المتواصل على مدى قرنين لم يؤدِ إلى تراجع جهود كتابة التاريخ، وظلت محتفظة بمكانتها الممتازة بين المعارف أو الدراسات الإنسانية. أول ما يلفت النظر أن التاريخ قبل العصر الحديث كان بغرض تخليد حاضر المؤرخ، الذى كان يكتب الأحداث التي شهدها واعتبرها مهمة، لتَعرِفها الأجيال اللاحقة، وتَعتبِر بها، أو يؤلف تاريخا شاملا (في الحضارات القديمة والإسلامية) اعتمادا على كتابات من سبقه، ثم يضيف ما شهده في عصره من أحداث. كان بالإجمال تاريخا يُكتَب في الحاضر، عن الحاضر أساسا، من أجل المستقبل، وبغرض حفظ الأحداث في ذاكرة الجماعة الإنسانية. هذا النشاط، على أهميته، كان يقع نوعا ما على هامش الاهتمامات المحورية للثقافات قبل الحديثة؛ لأن هذه الثقافات كانت تبحث، بدوافع دينية أو فلسفية، عن المعرفة النهائية الصادقة عن موضوع ما، وعن التعريفات والتصنيفات، سواء في الفلسفة، التي كانت تبحث في الجوهر الثابت خلف الأعراض، أو في العلوم الدينية كاللاهوت والفقه، التي ترمى إلى معرفة طبيعة الإرادة الإلهية أو كيفية تطبيقها على الظروف الإنسانية والحالات المختلفة. كانت هذه عصورا يبحث فيها الفكر عما هو ثابت أو خالد، وعن كيفية رد العارِض المتغير إلى الثابت (مثلا بالقياس في الفقه). أما التاريخ، فيتناول بطبيعته التغيُّر أساسا، ويتناول ما هو عارِض وعابِر. لذلك كان في أفضل الأحوال، في النظرة القديمة، سِجل بما شاءته الإرادة الإلهية أو أهواء البشر، سجل يفتقر بحد ذاته إلى معنى، ولا يمكن تفسيره بالعقل الباحث عن الثابت والنهائي، فظل يحتل موقعا هامشيا نسبيا في هذه البنية العامة للمعرفة، ولم تكن فكرة «تفسيره» مما يخطر للمؤرخين على بال (باستثناءات معدودة).

التاريخ في العصر الحديث مختلف عن ذلك كثيرا؛ فلم يعد نظرة على الحاضر من أجل أجيال المستقبل، بل نظرة على الماضي من أجل الحاضر؛ فنحن نَكتُب تاريخ الماضي ليعرفه المعاصرون لنا. لم يعد المؤرخ ينقل الأخبار والأحداث المعاصرة ويُعلِّق عليها برأيه (فهذه مهمة الصحافة

والإعلام الآن، سواء العامة أو المتخصصة التحليلية)، ولم تعد مهمته حفظ الأحداث والمواقف (فهذه مهمة الأرشيفات)، بل أصبح يتناول موضوعات معينة في فترات محدَّدة من الماضي، من زوايا أو جوانب بعينها، بغرض تكوين فكرة متكاملة عنها (مثلا اقتصاد عصر البطالمة، وصعود وسقوط الإمبراطورية الرومانية، والحياة الاجتماعية في العصور الوسطى، وهكذا). كذلك لم يعد المؤرخ مقيَّدا برؤى العصور والشعوب والأفراد الذين يكتب عنهم، فهو في الأساس باحث أو مراقب خارجي لا ينتمى إلى هذه العصور وعقلياتها، ويُدرك هذه المسافة، بل أصبح يَعتبر شهادة أهل الماضي ورؤاهم مجرد جانب، لكنه جانب مهم، من المعطيات التي يستند إليها في فهم عصرهم وتفسيره، لأنه يستطيع بمناهجه الحديثة وبإلمامه بالظاهرة والفترة التي يتناولها ككل، بعد أن مضت واكتملت، أن يرى أو يلاحظ روابط وعلاقات ومؤثرات ونتائج لم يرها هؤلاء المعاصرون. لم يكن الإسكندر يعرف أنه يُدشِّن العصر الهلنستي، ولم يكن دافنشي يعرف أنه يسهم فيما سيسمى عصر النهضة، ولم يكن مخترِع الآلة البخارية أنه يُدشِّن ما سيسمى الثورة الصناعية. سرعان ما امتد هذا الاهتمام بالماضي ليشمل كافة العصور والمجتمعات القديمة، وصولا إلى حضارات الإنسان الأولى، في سعى لا يهدأ لتكوين صورة تفصيلية عن ماضي الإنسان. بل امتد هذا الاهتمام بالزمن والتغيُّر إلى دراسة الطبيعة؛ الطبيعة الحية مع ظهور نظرية التطور لدارون، وإلى الطبيعة الصماء، حيثُ كَتب العلماء تاريخا للماضي الكون المعروف، توَّجته نظرية الانفجار الكبير. أصبح للمجموعة الشمسية، وللمجرات، عُمر يُقاس، وسقطت فكرة الثبات في كافة المعارف.

على هذا النحو، أصبح التغيُّر في قلب المعرفة، كُل المعرفة. بعبارة أخرى، أصبحت المعرفة الحديثة تنظُر إلى كل شيء من زاوية كونه زائلا وعابرا، أي من زاوية التغيُّر. ولم تَسلَم منتجات الإنسان الفكرية الكبرى، تلك التي كانت تنشد التوصل إلى الأصل والجوهر، من هذه الرؤية، فنحن ندرس تاريخ الفن والدين والفلسفة والعلم، ونُدرِك أن كافة هذه المنتجات الفكرية ابنة عصرها. يريد هذا العصر أن يعرِف كل ما مضى، ليس بحثا عن أصل مقدس أو نهائي، بل عن تفاصيل السيرورة التي يرى نفسه نتاجا لها. وبالتبعية أصبح ينظر إلى نفسه، وإلى عصره على

أنه مجرد لحظة في تيار زمنى لا ينقطع ولا تتشابه فيه لحظتان. بل إننا نُدرِك الآن أن ما نُنتِجه من معارف لن يلبث بدوره أن تجتاحه رياح التغيير.

باختصار، وعلى حد تعبير ماركس في البيان الشيوعي، «كل ما هو صلب يذوب في الهواء»، كل مطلق يتحول إلى نسبى، ويعُم التغير كل شيء، وبسرعة متزايدة، بحيث أصبحت فوارق أنماط الحياة نفسها متزايدة الاتساع بين جيل وآخر يليه؛ بل يمُر أبناء كل جيل الآن بعدة تحولات في أنماط حياتهم، حتى لو لم تتجاوز أعمارهم الستين أو السبعين عاما. أصبحت حياة الفرد نفسها حيوات متتالية، وأصبحت معرفته بتاريخه جزءا متزايد الأهمية من معرفته بنفسه.

صحيح أن التأريخ لا يقود العالَم معرفيا، بل تقوده العلوم الطبيعية التي تبحث عن القوانين الثابتة، لكن الشعور بتغير الزمن وأنماط الحياة أصبح كامنا في قلب الحياة المعاصرة من كافة جوانبها، لأن الناس يرون بأعينهم «العوالِم» وهى تحل محل بعضها بعضا في عقود قليلة، بما في ذلك النظريات العلمية التي يعقُب بعضها بعضا. مع هذا التغير الجذري في العلاقة بالماضي، لا عجب في أن تلتفت الفلسفة في العصر الحديث إلى التاريخ، وتُحاول أن تُنتِج فلسفات عنه. إذا استثنينا فلسفة العمران التي طرحها ابن خلدون، ولم تجد صدى كبيرا في حينه، لا نجد في حضارات البحر المتوسط ما يمكن تسميته فلسفة في التاريخ قبل الفيلسوف والفسيولوجي الإيطالي فيكو. لاحقا، وضع فولتير (1694 - 1778) مصطلح »فلسفة التاريخ«، وتَلَته إسهامات أخرى من فلاسفة التنوير، بما فيهم كانط. ثم أتى هيجل (1770- 1831) ليضع أول فلسفة شاملة للتاريخ، ويُدخل التغيُّر في صميم الفلسفة ككل.

مَولِد المقال التاريخي:

بالإضافة إلى التغيُّر، دخل مبدأ التنوع في تكوين الفكر التاريخي الحديث، بفعل الكشوف الجغرافية، التي جلبت إلى أوربا ثروة من القصص والملاحظات عن أوضاع وتواريخ مجتمعات وحضارات عديدة، تختلف في معتقداتها وظروف حياتها ومعارفها وتصوراتها عن العالَم عن مثيلاتها عند الأوربيين المعاصرين، بل وعن مثيلاتها في مجمل ثقافات عالَم البحر المتوسط التي احتكت بها شعوب أوروبا على مدى آلاف السنوات. خلق هذا الوضع حاجة ملحة إلى تأطير وفهم

هذا التنوع المنفجر، الذى لم تعد تصلُح لتفسيره التصورات المسيحية التقليدية عن تاريخ البشرية، ولا تلك الموروثة من عصور الحضارات القديمة (اليونانية-الرومانية). وهكذا بدأ التفكير فيما هو عالمي، فيما هو إنساني بصفة عامة، على أمل أن يستوعب هذا المستوى الأعلى من التجريد التنوُّعَ ويفسِّره.

لأسباب مرتبطة بتطورات المجتمعات الأوربية (الثورة العلمية، وصعود الفردية، ونمو المدن وصعود الطبقة الوسطى، إلخ)، لم يتعامل الفكر الأوروبي مع هذا التنوع كمجرد مادة للعجب، أو الإعجاب، أو الاستهجان أو التسلية (على نمط ما نجده مثلا في قصص ألف ليلة وليلة، خاصة ليالي السندباد)، ولا سلَّمت به باعتباره تجليا للإرادة الإلهية وتوقفت عند هذا الحد؛ بل اعتبرت من موقع مسئولية المستعمِر عن إدارة مستعمراته، أو عن تجارته مع البلدان التي لم تكن أوروبا قد استعمرتها بعد، أن ثمة قضية فكرية مطروحة هنا، هي ضرورة إيجاد مبادئ عامة تستوعب هذا التنوع، وهو ما استجاب له هيوم ـ مثلا ـ بالقول بنسبية الأخلاق والأديان والمعارف.

أدى هذا التحول الفكري إلى كتابة التاريخ بطريقة وأهداف مختلفة، كتابته بغرض التفسير والفهم؛ فكتب مفكرو التنوير الفرنسيون في منتصف القرن الثامن عشر عن تأثير المناخ، ونظم الحُكم والديانة والموارد الاقتصادية على تواريخ الشعوب وطبائعها، وبدأت كتابة تواريخ للعالَم تهدف إلى إبراز بعض الأُسس والقواعد التي تُفسِّر الاختلاف، وظهر التقسيم المألوف للتاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، وكذلك نظرية التقدُّم، التي حاولت أن تضع تصورا عاما عن حركة الإنسان في الزمن، وظهرت في المقابل نظرية الدورات التاريخية المتصاعدة التي قال بها جيا باتيستا فيكو وفكرة روح العصر.. وهي التي سعت إلى تفسير الترابط بين مختلف نُظم المجتمع الواحِد سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. وهكذا أصبح التاريخ حقلا مفتوحا للتفسير والفهم، أي لتأطيره وفقا لأفكار، لا مجرد سجل للأحداث بغرض حفظها من النسيان، أو للعظة والاعتبار وذلك في سياق سعى شامل لتفسير كل شيء بالعقل التجريبي والمنطقي، من الظواهر الطبيعية إلى السلوك الإنساني؛ تفسيره من داخله، بمحاولة فهم منطق الواقع ذاته، وليس بالإحالة إلى أية قوى غيبية. لقد استُبعِدت السماء من حيثُ المبدأ من المعرفة، وإن كانت لم تُستبعَد من الأخلاق أو الضمير.

حين أصبح التاريخ يرمى إلى التفسير والفهم، أصبح بحاجة إلى صيغة جديدة للكتابة، تختلف عن صيغة الحوليات التي سادت في العصور الماضية. هذه الصيغة هي صيغة المقال essay، التي ظهرت منذ عصر التنوير (وجذورها عند أرسطو). المقصود بالمقال كتابة نثرية متسلسلة عقليا حول موضوع محدد، لها بداية تطرح موضوعا أو قضية أو حالة، تعقُبها مناقشة للقضية، أو استقصاء للجوانب المختلفة للموضوع، أو مقارنة بين حالة وغيرها... إلخ، لينتهي المقال إلى نتيجة أو خلاصة، سواء كانت هذه النتيجة إجابة أو تفسيرا، أو سؤالا جديدا مطروحا للبحث. المقال إذا بنية مغلقة، لا تدخل في استطرادات لا داعى لها، ولا تقفز من موضوع إلى آخر، لأن هدفها يقيدها. لكنها أيضا صيغة تتسع لأنماط خطاب متعددة وتتيح الربط بينها، تتسع لأساليب التقرير والتحقيق القضائي والسرد القصصي ومناقشة الآراء السابقة والتحليل والربط وغيرها وهى جميعا أدوات يستعملها المؤرخ حسب الأحوال. هذا المقال، كصيغة للكتابة، قد يكون مئات قليلة من الكلمات، وقد يمتد ليشغل بضع مئات من الصفحات أو بضعة مجلدات.

مهمة المقال التاريخي (أي كُتب التاريخ ودراساته كما نعرفها الآن) هي التأمل في وقائع الماضي الخاصة بموضوع ما لاكتشاف ما يُنَظِّمها، سواء وصلنا إلى تحديد قوانين، أو اكتفينا بالربط بين الأحداث لتفسير تسلسلها على النحو الذى جرت عليه. هو محاولة لنقل المنهج العلمي إلى التعامُل مع الماضي. صحيح أن التاريخ لا يصل إلى صياغة قوانين على طريقة العلوم الطبيعية، تؤدى إلى التنبؤ، لكنه محاولة لضبط رواية الماضي والتحقُّق منها، من ناحية، وإيجاد منطق داخلي لترابط الأحداث التاريخية، إما في مجملها، في فلسفة التاريخ، وإما في أقسام محددة من الماضي ومن زوايا معينة، مثل الدراسات التاريخية التي يكتُبها المؤرخون من ناحية أخرى. لقد دخل الفكر قلعة التاريخ.

كان التاريخ دائما مرتبطا بالدولة وسياساتها. كان في البداية يُتابع الحروب وقيام الدول وسقوطها وتطور أوضاع السلطة وصراعاتها، وقد يعرُج إلى تقصى أوضاع المجتمعات، خصوصا الأجنبية لتأثيرها على دولهم ومجتمعاتهم، مثل كتابات هيرودوت عن شعوب شرق المتوسط، أو كتابة تاكيتوس المؤرخ الروماني عن الشعوب الجرمانية المرابطة على حواف الإمبراطورية. وأضاف المسلمون ترجمات للفقهاء وغيرهم من «المثقفين» في كُتُب الطبقات؛ وهم في مجملهم مرتبطون

بالدولة، سواء كانوا معارضين لنظام قائم أو مؤيدين له. وكانت أهمية التاريخ قديما تهذيب الملوك والأمراء والقادة، بإمدادهم بالمعرفة بأحداث سياسية وسير ملوك وأباطرة ودُوَل توسِّع أفقهم، كما كان يهم الجماعات المتعلمة، التي كانت ضئيلة الحجم، ومرتبطة بشكل أو بآخر بالدولة.

السبب في محدودية هذه الرؤية للتاريخ أن الدول كانت قبل العصر الحديث محدودة التكوين والتأثير. كانت هذه الدول مُلْكا، لا تنتسِب إلى شعوبها أو سكانها، بل تنتسب، حتى في أسمائها إلى فاتحيها (مالكيها، ملوكها)، من قبائل وأُسَر وجماعات قبلية-مذهبية ومُدُن انطلقت منها الفتوحات. وكان الشأن السياسي بالتالي مقتصرا على هذه الفئات المحدودة ومن لحق بها من «المثقفين»، مثل رجال الدين. وكانت مسئوليات الدولة تجاه السكان محدودة، تكاد تقتصر على تعاقد ضمني مؤداه: الجباية (جباية الضرائب) مقابل الحماية (توفير الأمن وإجراء أحكام القضاء والحماية من الهجمات الخارجية). ولا يكاد هذا التعاقُد يتقيَّد إلا بمبادئ عامة (تجرى مخالفتها أحيانا)، من قبيل عدم المغالاة في تقدير الضرائب، ومراقبة عملية جبايتها لكى لا يُظلم دافعوها على أيدى «عُمَّال» الدولة، والمساعدة في مواجهة أحوال القحط والكوارث البيئية. وفى العصور الوسطى، مُنِحت هذه المبادئ صفة دينية، تحت مسمى عريض، هو العدل. على هذا النحو لم تكن أحوال السكان وأنشطتهم العادية، في معظمها، جزءا من مهمات الدولة ومسئولياتها.

فوق ذلك، كانت علاقة هذه الإمارات والمَلَكيات والإمبراطوريات بسكانها هشة إلى حد كبير بالمقارنة بالدولة الحديثة؛ فقد كانت الجماعات السكانية، من قبائل وقرى وطوائف دينية أو حرفية وغيرها، تُسيِّر شئونها الخاصة بنفسها إلى حد كبير، ولا تكاد تتقاطع مع الدولة إلافي جباية الضرائب أو حين تستدعيها للقضاء في الخصومات وتنفيذ العدالة، أو مواجهة قطاع الطُرُق وما إلى ذلك، وتتصل بالدولة عن طريق رؤسائها «الطبيعيين».

تُفسِّر طبيعة الدولة هذه لماذا لم تكن العادات والتقاليد والصناعات وغيرها تدخل في مجال اهتمام المؤرخين، ولماذا ظل التاريخ بالدرجة الأولى تاريخ الحروب وتصرفات الحكام في الداخل والخارج، ولماذا ظل المؤرخ يَحكم عليها بمعايير القوة والضعف، أو الحكمة والغفلة، أو العدل والظُلم..!

في العصر الحديث، تجاوزت الكتابة التاريخية هذا المدى المحدود، لتشهد موضوعاتها تنوُّعا متزايدا بلا توقُّف؛ فظهر إلى جانب التاريخ السياسي (المحلى في بلد بعينه، والدولي) التواريخ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وامتد التاريخ إلى دراسة تطور العادات والتقاليد في شتى مجالات الحياة، وإلى دراسة تاريخ العلوم، والفنون، والآداب، والأديان، والمذاهب بغرض تفسير ظهورها وتطورها (لا مجرد تقصيها من زاوية تعاليمها كمِلَل ونِحَل)، وإلى تاريخ الصحافة والنشر والكتابة، وإلى تواريخ التجمعات البشرية النوعية كالنقابات والحرف، وإلى كيانات جغرافية، مثل المدن أو البحار أو أحواض الأنهار من حيثُ تطور علاقة الإنسان بها وصراعاته حولها، وامتد إلى دراسة الجماعات المهمشة على اختلافها، سواء كانت مهمشة على أساس النوع، أو العرق، أو الديانة، أو غيرها، وإلى دراسة الحركات الاجتماعية، ونشأة وتغيُّر أنماط الاستهلاك والأذواق، وحتى الشائعات والخرافات.

كثير من هذه الموضوعات تناولتها، جزئيا، كتابات أخرى في العصور السابقة، مثل كتب الجغرافيا أو أدب الرحلة؛ لكن العصر الحديث أخضع هذه جميعا للدراسة التاريخية المنظمة؛ لأنها ببساطة أصبحت موضوعات سياسية، نظرا لتغيُّر طبيعة الدولة في العصر الحديث.

الدولة الحديثة دولة تتدخل بقوة في شئون سكانها المختلفة، وترتبط بهم بروابط عضوية؛ فقد اتسعت مجالات اهتماماتها تدريجيا لتشمل الصحة، والتعليم، والاقتصاد، والمواصلات، والإسكان، والعِلم، والثقافة؛ وأصبحت تتدخل بالضبط الاجتماعي في هذه الأنشطة وغيرها، وأصبحت سياساتها بالتالي ماسة بشكل مباشر بحياة الناس اليومية من مختلف جوانبها. استدعى ذلك بالضرورة انجذاب قطاعات متزايدة الاتساع من الجمهور إلى الاهتمام بشئون الدولة، ورغبتهم في الضغط عليها، أو المشاركة في توجيهها، لكى تراعى مصالحهم في هذه السياسات المتشعبة الماسة بهم. على هذا النحو، أصبح «كل شيء» تقريبا في الحياة الاجتماعية سياسيا بدرجة أو بأخرى. ومن هنا ظهر مصطلح «المجتمع»، كما ظهر مفهوم الأُمة أو القومية (السياسية، لا الدينية).

كذلك أصبحت الدولة الضامن النهائي، والمُشرِّع، والمُنظِّم، والمراقِب لكافة التنظيمات الاجتماعية التي كانت مستقلة ـ إلى حد كبير ـ سابقا، من الأسرة، إلى النقابة، إلى الجمعية الأهلية، إلى

الشركات بأنواعها، بل والمسئول الأول عن انضباط المجتمع وقيمه، في تفاعل متبادل بين قوى تغيير تنبع من أسفل، وقوى محافِظة وأوضاع قائمة.

مع هذا التدخُّل المتزايد للدولة في شئون السكان، لم تعد سياساتها تقاس بمعايير العدل والظلم بالدرجة الأولى (المرتبطة بوظيفة الحماية مقابل الجباية)، بل أيضا وبدرجة أكبر بمعايير الكفاءة، ليس فقط في حماية البلاد وإقرار الأمن، بل كفاءة سياساتها الاقتصادية، والصحية، والتعليمية، إلخ، وبمعايير انحياز السياسة المطبقة لفئات أو طبقات مختلفة... وهكذا، أصبحت سياسات الدولة محل نزاع داخلي متشعب ومعقد، محل تنافُس فئات اجتماعية مختلفة راغبة في تعديل التشريعات وممارسات الدولة التنفيذية.

فوق ذلك، وضعت الدُول القاعدة المؤسسية لممارسة الكتابة التاريخية الحديثة. فمع تشعُّب اهتمامات الدولة، كان لا بد لها من الاحتفاظ بأرشيف لأنشطتها المتزايدة، وهو الذى أصبح المادة الأساسية التي يعتمد عليها المؤرخون. ومع تزايد العلاقات المتشعبة بين الدولة وسكانها، أصبح إنشاء المكتبات، وجمع المخطوطات وإتاحة الأرشيف من بين مهمات الدولة الحديثة في تأكيد بعدها القومي وانتمائها لشعوبها. ومع الوقت، انتشرت فكرة الأرشيف لتمتد إلى مختلف مؤسسات المجتمع الحديث، كالنقابات والأحزاب... إلخ.

على هذا النحو، يرجع تنوع الكتابة التاريخية إلى الاتساع المتزايد لمعنى السياسة، وفكرة الدولة. وبالجمع بين هذا التحوُّل وفكرة المقال التاريخي، تغيرت طبيعة الجدل التاريخي نفسه. فبدلا من اختلاف المؤرخين قديما في وصف الوقائع، بسبب انحيازهم الديني أو السياسي، أصبح الخلاف يدور حاليا حول المناهج قبل المعلومات (فصحة المعلومات مرجعيتها الأرشيف والمكتبة). أصبحت المشكلة الآن هي، ماذا ينتقى المؤرخ من المادة الأرشيفية الواسعة ليُثبت فكرته عن موضوعه. والأهم، ما هو منهجه الذى يستخدمه في صياغة مقاله التاريخي؟ هذه الخلافات المنهجية تضرب بجذورها، في الخلافات الاجتماعية حول الدولة الحديثة وسياساتها، تجاه مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية المتصارعة، وقد تمتد إلى تأسيسها على رؤى فلسفية مختلفة عن طبيعة الإنسان، والمجتمع، وطبيعة المسار التاريخي العام.. على هذا النحو، أصبح التأريخ مقالا تفسيريا متشعب الاهتمامات. هذا يعنى أنه بشكل أو بآخر لا بد أن ينتهى إلى أزمة

ممتدة، ترجع جذورها إلى طبيعته المذكورة، يُمكن تسميتها عموما أزمة النسبية. هذه الأزمة لا تؤدى إلى توقف الكتابة التاريخية (فهي أزمة ممتدة)، بل إلى إعادة كتابته مرارا وتكرارا بمناهج وبآفاق جديدة باستمرار.

تطور علم التاريخ في القرن 19:

في القرن التاسع عشر، كان ثمة طموح أن يكون التاريخ «علما» على نمط العلوم الطبيعية، بأن تؤدى دراسة الماضي إلى قوانين يُمكِن القول أنها تحكم حركة البشر في الماضي، ومن ثم يُمكِن أن تؤدى إلى التنبؤ بالمستقبل، فضلا عن فهم الحاضر. وعلى الأقل، كان ثمة طموح أنه يُمكِن مع تراكُم المعرفة التاريخية، أن يكون لدينا صورة كاملة عن الماضي. سقط هذا النوع من الأهداف مع الزمن، نظرا لتعدُّد التفسيرات التاريخية المقبولة معرفيا لحُقَب زمنية ماضية.

لكن المشكلة أعمق من تعدُّد التفسيرات؛ فمن الناحية المنطقية، أية محاولة لتأطير التغيُّر وفهمه تنطوي على تناقض، لأن أي تأطير بطبيعته تثبيت، تثبيت للمتغيِّر. أدى هذا التناقُض بين الإطار ومحتواه، إن جاز التعبير، إلى الاعتراف بأن كل تأطير ناقص بالضرورة، وبالتالي مؤقت بقدر ما تظهر زوايا جديدة للرؤية، أو تتراكم المعارف لتفيض خارج الأطر.

ومع ذلك، لا يُمكن قبول مبدأ النسبية على إطلاقه، لأنه سيؤدى في النهاية إلى إنكار صدق أي طرح، عن التاريخ أو عن غيره. كل معرفة تسعى من حيثُ المبدأ إلى الشمول وإثبات صدقها وإلا ما كانت سعيا معرفيا من الأساس. وبين السعي إلى التأطير وإدراك حدوده، وتجاوزه ببناء أُطُر جديدة تتقدم المعرفة بالماضي، بما في ذلك ماضي المعرفة التاريخية، أي دراسة تاريخ التأريخ نفسه.

صحيح أن الكتابة التاريخية الحديثة، في صيغة المقال، تنطوي على مفارقة تجعل نتاج كافة مساعيها نسبية؛ لكنها لا تجعلها بلا مصداقية أو معنى، أو مجرد تعسُّف يمارسه المؤرخ على الماضي، ويمنحه معنى من عدياته، على نحو ما تقول النظريات البنيوية والتفكيكية عن الكتابة التاريخية.

مشكلة هذه النظريات أنها تَغفَل أن الكتابة التاريخية (وكل كتابة في الحقيقة، لكن هذا ليس موضوعنا هنا) تطرح نفسها كجسر بين كينونتَيْن مختلفتين بين الماضي والحاضر. صحيح أن المؤرخ يُخاطِب الحاضر، وهو نفسه ابن الحاضر في لغته ومناهجه، لكنه يخاطبه بشأن ما يختلف عن هذا الحاضر، بشأن الماضي. ويُمكِن أن نقيس قدرة المؤرخ بقدر نجاحه في التعمق في فهم هذا الاختلاف وعرْضه في نثره البسيط أو التحليلي عن الماضي. المؤرخ هو الذى يأتي بصيغة المقال ويفرضها على سجلات الماضي، لكن بنية المقال التاريخي تسعى (ولا معنى لها إن لم تسعَ)، إلى التوافق مع موضوعها، أي مع ما وجده المؤرخ بالفعل في الأدلة التي تنتمى إلى الماضي، التي تظل بذلك قيدا جوهريا على عمله، وليست مجرد مادة سلبية طيعة قابلة للتشكُّل وفق أي قالب مُسبق يحمله معه المؤرخ، وبالتالي تلعب دورا مهما في توجيه عمله ككل، من البداية وحتى الصياغة النهائية.

بغير أن نضع هذا القيد في الاعتبار، سنصل مع البنيوية وما بعدها إلى القول إن الماضي لا يملُك، ولا يُمكن أن يملُك، معنى في ذاته، بل يأتيه المعنى من المؤرخ الذى يفرضه عليه فرضا، سواء بشكل واعٍ أو غير واع. لكن هذه الرؤية قد تُمثِّل وجهة نظر المتلقي، قارئ للتاريخ، الذى لا يعرف الماضي إلا من خلال الكتابات التاريخية المتنوعة، لكنها ليست وجهة نظر المؤرخ الذى يواجه الاختلاف والغرابة وهو يتعامل مع مصادره ويشعر بثقلها وتأثيرها على ما يحاول القيام به. النسبية غير المقيدة تنطلق من وجهة نظر المستهلِك، لا المُنتِج.

ليست مهمة المؤرخ صب الماضي في قوالب الحاضر، رغم أنه يخاطِب الحاضر، وليس الغرض من هذه الجهود المستمرة عبر أكثر من قرنين مجرد تدعيم رؤى الحاضر بشواهد تاريخية؛ لأننا حتى لو افترضنا أن هذا هدفه، أو حقيقة كتابته التي لا يعيها، سنصل إلى العجز عن تفسير أهمية هذه الشواهد؛ لأنها ستكون في هذه الحالة أشبه بلبنات ليست لها طبيعة خاصة، تَصلُح للاستعمال في بناء أية بنية يراها المؤرخ. الواقع أن كتابة التاريخ ترمى، بالعكس، إلى عرض الماضي بوصفه مختلفا جوهريا عن الحاضر، بوصفه تجربة أخرى تختلف عما نعيشه، حيثُ يتفق جميع فلاسفة التاريخ على أن ما يُميِّز الكتابة التاريخية عن فن الدراما هو أن الوقائع، التي تعتبر من أهمها السرد التاريخي، يجب أن يكون صحيح وقابل للإثبات. السبب في ذلك أن الهدف من هذا

النوع من النثر هو تقديم وتفسير تجربة حدثت بالفعل، ليست افتراضية ولا خيالية من حيثُ المبدأ. يترتب على هذا أن قارئ التاريخ إنما يرغب في أن يرى عصره في ضوء عصر آخر، في ضوء واقع قديم مختلف، كإمكانية من ضمن ممكنات الحياة الإنسانية، مقابل تجارب عصور وشعوب وحيوات أخرى اتبعت مسارات ومبادئ مختلفة كثيرا أو قليلا، لكنها ليست غريبة عنه تماما، بحُكم أنها إنسانية أيضا. باختصار، التاريخ الحديث يواجِه القارئ بنسبية عصره، يواجه بالاختلاف. بعبارة أخرى، لا يُسقِط المؤرخ لغته ومناهجه على الماضي فحسب، بل «يُسقِط أيضا لغة الماضي واهتماماته ومعارفه وطبيعته التي تُميِّزه على نصه الحاضر.

زد على ذلك، الماضي الذى يواجه المؤرخ ليس من الأصل مادة «خاما»، بل مادة مصاغة مسبقا في سرديات أو تقارير، هي الوثائق أو الشهادات التي تعود إلى الماضي؛ فالأقدمون، الذين يكتب عنهم المؤرخ، كانوا يفهمون عالَمهم من الأصل في صورة نثرية مبنية على تصوُّرات ضمنية أو صريحة، تماما مثلما يصب المؤرخ نتاج عمله في مقاله التاريخي، وكان فِعلُهم التاريخي نفسه مرتبطا بتصورهم عن حاضرهم، أي كان بالضرورة تأويلا أو تفسيرا لواقعهم نفسه.

يعنى هذا أن المادة التي يتعامل معها المؤرخ ليست مادة خام، أولا، ولا هي، ثانيا، من طبيعة مختلفة جذريا عما يقوم به المؤرخ المعاصِر الذى يواجها. منذ فجر التاريخ، كان للأمم سرديتاها وتصوُّراتها، شفوية أو مكتوبة، عن ماضيها وحاضرها، في صور أدبية أو أسطورية أو في صورة حكايات تاريخية، وأخيرا في صورة وثائق وشهادات؛ بل يمكن القول إن كل إنسان له سرديته، أو حتى السرديات المختلفة، عن ماضيه. باختصار، لا يمكن مهما نوغل في الماضي أن نعود إلى مادة تاريخية خام لم تمسها أية صياغة من أي نوع. وحتى العملة والآثار وغيرها من المخلفات المادية تتكلم، وكانت بمعنى ما منذ البداية كلاما متجسدا أو متحجرا، كان لها معنى وقصة عند الأقدمين. وهكذا فإن المؤرخ لا يستطيع، حتى لو حاول، أن يجد أحداثا غُفلا من المعنى، على نحو ما يتصدى عمال المحاجر لجبل ويستخرجون منه قوالب حجرية متشابهة تبدو فقيرة الصلة بطبيعة الجبل نفسه، وموقعه، وتضاريسه... إلخ، لكى يستعملها مهتديا بحاضره فحسب.

تظل الكتابة التاريخية النثرية الحديثة التجلي الأعلى لمقولة النسبية التي تحكُم العصر؛ إنها تتحدى بطبيعتها نفسها المسلَّمات، العقائدية، أو السياسية أو الفكرية أو القائمة على العادات والتقاليد، لأنها تُحوِّل كل ما هو مطلق إلى نسبى، بما في ذلك مطلقات الفكر الفلسفي؛ تُحوِّل كل ما يبدو مقدسا، كل ما يطرح كمبدأ أعلى، إلى شيء دنيوي مفهوم أو قابل للفهم، بوضعه ضمن سياقات، مؤثرات وقوى وتمهيدات ونتائج متعارضة أو مختلفة، وتضعه بذلك في متناول التأمُّل الإنساني. لذلك تبقى الكتابة التاريخية في قلب روح العصر الحديث، عصر معرفة التغيُّر، وتبقى النزاعات الفكرية حولها حية بقدر أهميتها ومحورتيها.

العصر الحديث وتطور الكتابة التاريخية

العصر الحديث:

1492هذا الرقم يعني مجموعة من الحوادث التاريخية المفصلية، التي تمخض عنها ولادة العصر الحديث الذي فيه نعيش، فمن جهة كان سقوط دولة الأندلس في هذا العام بداية لدوران العلم والمعرفة والانتاج – الذي امتازت به العصور السابقة – من بلاد الإسلام الى بلاد الغرب، ومن ناحية ثانية، فإن بدء الاكتشافات الجغرافية التي بدأها البرتغاليون والإسبان على يد كولومبس واكتشافات العالم الجديد كانت ارهاصات لمرحلة جديدة، يتكتل فيها الغرب ليس في اوروبا فحسب بل يمتد الى القارة الجديدة.

كانت حجة الاكتشافات الجغرافية الجديدة التي باركها حكام اسبانيا الجدد "الأندلس الفردوس المفقود" تتمثل في التوسع البشري واكتشاف العالم، والانتقال الى عالم الحضارة والترقي، اضافة الى غيرها من الأسباب التي تعتبر ايذانا ببدء مرحلة جديدة من الاستعمار الاوروبي لجميع أنحاء العالم، واذا ما ذكرنا الأسباب على القياس الذي بحث فيه علماء ومؤرخو التاريخ الاسلامي فإن من أهم اسباب الاستعمار في مرحلة لاحقة تمثلت في نهب ثروات الأمم والشعوب في البلاد الإسلامية وآسيا وأفريقيا والأمريكيتين.

تعتبر الناحية الاقتصادية وجهاً جديداً من أهم وجوه الوصول الى العصر الحديث، بما فيه من زيادة في الإنتاج وتطلع اوروبي للاستحواذ على المواد الخام كنتيجة للثورات الاقتصادية الزراعية والصناعية والاستهلاكية، حيثُ اعتبر مؤرخو العصر الحديث أن اوروبا عندما غزت العالم كانت تتطلع الى السيطرة على المواد الخام كركيزة من ركائز الصناعة، ومن هنا جاء نهب ذهب ومعادن وثروات الأمم والشعوب، وخيرات آسيا وأفريقيا والأمريكيتين كركيزة من ركائز التبادل التجاري.

هذا كان من جهة، ومن جهة أخرى كانت اوروبا بحاجة الى القوة العاملة الضخمة والتي توازي الثورات الزراعية والصناعية، مما جعلها تقتاد البشر وتسترقهم كعبيد، أفواجا من القارة الأفريقية، الى البلاد البيضاء لتتم بذلك النهضة الاوروبية والأمريكية، لتبني العمران والاقتصاد الذي نشاهده اليوم، وتنتج السلع بكافة أشكالها المعاصرة، ومن ثم تم فتح الأسواق العالمية المستعمَرة امام حركة البضائع التجارية الاوروبية الى أسواق آسيا وافريقيا والهند والبلاد العربية وغيرها من المناطق الجغرافية المستعمرَة التي خضعت لسيطرة الرجل الأبيض.

تلك كانت بداية العصر الحديث، وقد رافقها العديد من الحوادث والمتغيرات التي أثرت على مسيرة الأمم والشعوب، خاصةً فيما يتعلق ببدء نشوء امبراطوريات غربية جديدة مستمدة من الإرث والتقدم العلمي والحضاري والثقافي الإسلامي حتى وصلت اوروبا وأميركا اليوم الى ما وصلت اليه، بعد أن ترجمت ونقلت التقدم والعلوم الإسلامية لتبني عليها نهضتها الحديثة، فإذا كان مبدأ الدوران قد لف باتجاه الغرب، فهل سيعود مرة أخرى باتجاه البلاد الإسلامية؟ واذا كان الأمر كذلك فمتى سيعود؟ وهل حقا هو من مستحيلات الرجوع؟ أم أن مبدأ الدوران سيلف لفته التالية؟ هنالك العديد من علامات الاستفهام والتعجب على الأسئلة السابقة، لكن لا بد من الإشارة الى أن الغرب قد وصل الى القمة، ولم يحدث في أي زمن وتاريخ أن بقي أحد ما من الامم والشعوب متربعا على القمة الى ما لا نهاية، الا اذا كانت هذه هي النهاية.

الأوبئـــــة :

مجلة الديمقراطية - تطور علم التاريخ في العصر الحديث.

فلسفة التاريخ (هيجل)

فلسفة التاريخ عند واحد من أكبر فلاسفة القرن التاسع عشر تأثيرًا، وأكثرهم غموضًا وتعقيدًا وعسرًا على الفهم، كما عبر عن ذلك الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل.

والحقيقة أن فلسفته للتاريخ يمكن أن تعبر عن فلسفته كلها، ويوضح هذا المعنى "جوستين غادرا" بقوله: "مصطلح الفلسفة يعني عند هيجل: منهجًا لفهم حركة التاريخ قبل كل شيء؛ لذلك يبدو من شبه المستحيل أن نتحدث عن هيجل، دون أن نتحدث عن تاريخ البشر.

ولذلك فإنه عند تناول فلسفة التاريخ عند هيجل فكأننا نتناول فلسفة هيجل من كل جوانبها، وليست نظريته التاريخية فقط، وهنا تكمن صعوبة "الدراسات الهيكلية" عمومًا، ففلسفة هيجل متداخلة ومترابطة بشكل عجيب، حيثُ لا يمكن فهم فلسفته في قضية جزئية إلا من خلال فهم فلسفته ككل، يقول الدكتور أحمد صبحي: "لا يتسنى فهم نظرية هيجل في التاريخ إلا من خلال النسق العام لفلسفته.

وعند الحديث عن النسق العام لفلسفته، فلا بد من ذكر ما يُسمى "الديالكتيك" أو "الجدل الهيجلي" فالجدل عند هيجل هو العصب الرئيسي في فلسفته ، كما أننا لا يمكننا فَهْم فلسفة التاريخ عند هيجل فهمًا كاملاً دون الإشارة إلى منهجه الجدلي الشهير أو منطقه.

هيجل حياته وأهم أعماله:

جورج فلهلم فردريك هيجل، ولد في شتوتغارت بألمانيا عام (1770م)، ويعد واحدًا من أعظم الفلاسفة تأثيرًا في جميع العصور.

كان هيجل تلميذًا نشيطًا، وقام بتحليل كل الكتب الهامة التي قرأها تحليلاً مفصلاً، وتأثر كثيرًا بدراسته للأدب اليوناني والحضارة الأثنية، وبقي التأثير واضحًا عليه حتى النهاية.

وفي العشرين سنة الأولى من حياته كانت الحركة التنويرية قد بلغت أوجها، وأخلت السبيل أمامها لحركة جديدة، هي حركة الرومانسية والثورة، وهكذا تجاذبت هيجل الشاب نزعتان متعارضتان:

- نزعة التنوير العقلية الخالصة.
- نزعة الثورة والحركة الرومانسية.

وفي أكتوبر 1787م دخل معهد وتبنجن الديني، وهذا المعهد كان معهدًا بروتستانتيا لتخريج القساوسة الإنجيليين، ودرس فيه لمدة خمس سنوات، فحظي هيجل بأساتذة ممتازين، تركوا في تكوينه الفكري أكبر الأثر، ولكن أكبر أثر هو الذي تركه فيه زميلان في الدراسة؛ هما: الشاعر "هيلدرلن" أكبر شعراء الحركة الرومانسية، والفيلسوف "شلنج"، وهو وإن كان يصغر هيجل بخمس سنوات فقد كان مبكر النضوج والعبقرية إلى أقصى حد، وقد أثر فيه شلنج من حيثُ رفضه النزعة الذاتية، واتجاهه إلى إنشاء فلسفة جديدة تجمع بين الطبيعة والروح.

تخرج هيجل في المعهد عام 1793م، وبذلك أصبح ما كان يسمى باسم "حامل الأهلية اللاهوتية"، ولكنه لم يمارس مهنة القسيس؛ لأنه لم يُبدِ أيَّ ميل إلى هذه المهنة، فاشتغل مدرسًا خصوصيًّا في مدينة "برن" عاصمة الاتحاد السويسري.

وفي أغسطس 1796م، عرض عليه صديقه "هيلدرلن" أن يقوم بوظيفة مدرس في فرانكفورت، فوافق هيجل؛ رغبة منه في العودة إلى ألمانيا.

ثم بدأت مرحلة جديدة في حياة هيجل، بوفاة والده عام 1799م، فقد أصبح وريثًا لمبلغ سمح له بالتطلع للدراسة الأكاديمية، وكان صديقه "شلنج" قد سبقه في هذا الميدان، وأصبح أستاذًا ممتازًا، حيثُ عين أستاذًا في جامعة يبينا سنة 1798م، بينما كان هيجل لا يزال مغمورًا.

وفي سنة 1801م، حصل هيجل على الإجازة للتدريس في جامعة يبينا برسالة عن "أفلاك الكواكب"، وألقى محاضرات في المنطق وما بعد الطبيعة، وفي هذه الفترة ألف أول كتبه الكبرى والهامة "ظاهريات الروح".

وفي عام 1806م، احتلت الجيوش الفرنسية مدينة يبينا، ومر هيجل بفترة سيئة في حياته، غادر بعدها إلى مدينة هيدلبرج، واشتغل بالصحافة وأصبح رئيس تحرير جريدة بمبرج سنة 1807م وأثناء تلك الفترة ألف أحد أهم كتبه "المنطق".

حتى جاء عام 1816م، وتحقق لهيجل أمله المرموق منذ عهد بعيد، وأصبح أستاذًا في جامعة هيدلبرج، واحدة من أهم الجامعات الألمانية في الدراسات الفلسفية والإنسانية، وأثناء هذه الفترة ألف أحد أهم كتبه "موسوعة العلوم الفلسفية"، واتخذ منه أساسًا لمحاضراته في تلك الجامعة.

ثم أتيحت له فرصة أفضل، هي الأستاذية في جامعة برلين، عاصمة بروسيا، وبدأ بالتدريس فيها سنة 1818م، وقد كانت هذه الفترة التي قضاها في برلين فترة مجد وشهرة من ناحية، وقلة إنتاج غريبة من ناحية أخرى؛ فلم يؤلف في تلك الفترة إلا كتابًا أساسيًّا واحدًا هو "فلسفة القانون" سنة 1821م، وفيه لخص كل أفكاره عن الأوضاع السياسية في ألمانيا.

وفي سنة 1831م، انتشرت الكوليرا في بروسيا، وكان هيجل من ضحاياها، فتوفي في 14 نوفمبر سنة (1831م).

مؤلفاته:

إن "هيجل" نفسه لم ينشر سوى الكتب الأربعة التي سبق ذكرها أثناء استعراض حياته، وهي:

1- ظاهريات الروح.

2- المنطق.

3- موسوعة العلوم الفلسفية.

4- فلسفة القانون.

إلا أنه بعد وفاته قام تلاميذه بإعداد نشرة كاملة لمؤلفاته، جمعوا فيها ما نشره هيجل بنفسه قبل وفاته، ثم ضموا إليها كل ما ألفه مخطوطًا، ومحاضراته التي ألقاها في جامعة برلين، والمذكرات التي كان يستعين بها لإلقاء محاضراته، "ولم يلبث الناشرون أن اهتموا بمقالات هيجل ورسائله، فقام بعضهم بنشرها ضمن مجموعة مؤلفاته، حتى بلغ عدد المجلدات التي تضمها الآن أعماله الكاملة حوالي ثلاثين مجلدًا.

ويهمنا في هذا السياق أن نشير إلى أن من ضمن كتب هيجل التي نشرها تلميذه "إدوارد جانز" اعتمادًا على محاضرات أستاذه في جامعة برلين: "محاضرات في فلسفة التاريخ"، وقد نُشر في مجلدين، يحمل المجلد الأول عنوان "العقل في التاريخ"، والثاني بعنوان "العالم الشرقي"، وقد تَرجم المجلدين الدكتور إمام عبدالفتاح إمام.

الجدل عند هيجل:

ذكرتْ "الموسوعة الفلسفية المختصرة" أن الجدل أو "الديالكتيك" يستمد اسمه من الفعل اليوناني الذي يعني: "يحاور"، وكان معناه في الأصل "فن الحوار، أو النقاش، أو الجدال".

وكان أرسطو هو أول مَن أقام الجدل على أساس متين في كتابه "الطوبيقا"، مستهدفًا به أن يجد من البراهين ما يؤيد رأيه أو يدحض الرأي الآخر؛ أي: إن الجدل عند أرسطو كان مجرد منهج استدلالي عقلي، إلا أن هيجل قد نحا بالجدل منحى جديدًا للغاية، فهو لم يعده مجرد عملية استدلال، بل عده طريق سير، لا في التدليل العقلي وحده، بل كذلك في التاريخ وفي الكون ككل (كما سيتضح في السطور التالية)، فمفهوم "الجدل" عند هيجل يختلف تمام الاختلاف عن مفهومه عند أرسطو ومَن حذا حذوه؛ ولذلك يعاني كثير من الباحثين ويخطئون في فهم هيجل عندما يقرؤونه بعقلية "أرسطية"، بمعنى أنه مَن أراد أن يفهم مصطلحات هيجل من خلال المعاجم الفلسفية التقليدية، فسيكون كمَن يَنقش على الماء، لا جدوى ولا أثر! فهيجل كفيلسوف كبير له مصطلحاته الخاصة التي ابتكرها، كما أنه استخدم مصطلحات قديمة وأراد بها معنى خاصًّا أيضًا، وهذه نقطة جوهرية تمهيدية، وجب التنبيه عليها لمَن أراد دراسة هيجل وفلسفته عمومًا.

ويتألف الجدل عند هيجل من حركة ضرورية ثلاثية، تنتقل من "الدعوى" إلى "نقيضها" إلى "التأليف" بين الطرفين، وشرح هذا "الثالوث" (كما أطلق عليه هيجل)، هو:

"إننا في البداية نتناول فكرة ناقصة، فتؤدي مناقضاتها إلى أن يحل محلها نقيضها، غير أن هذا النقيض تظهر فيه العيوب نفسها، فلا يبقى طريق للخلاص سوى أن ندمج بين محاسن التصورين في تصور ثالث، ومع أن هذا العلاج من شأنه أن يحل المشكلات السابقة ويتقدم بنا خطوة نحو "الحقيقة"، إلا أنه بدوره يتكشف عن متناقضات، فينشأ من جديد موضوع ونقيضه، ثم يرتفع هذا التناقض بينهما في تآلف جديد، وهكذا دواليك، حتى نصل إلى مقولة (الفكرة المطل(.

أي: إن الجدلية هي تعبير عن التفاعل بين الفكرة ونقيضها، على نحو يدفعها للتطوير والرقي، على شكل سلم لولبي، حتى نصل إلى "الفكرة المطلقة".. وإذا كان الجدل هو عصب فلسفة هيجل، فالتناقض هو عصب جدليته، فهو - حسبما يرى هيجل - أصل كل حركة وتطور وتقدم، ولولاه ما

تحققت حركة أي شيء وحيويته، أو كما يعبر عن ذلك "جوسيتان غادرا": "ما من شيء أفضل للتقدم من وجود معارضين أقوياء.

والمجال لا يسمح بالتوسع أكثر في شرح الجدلية الهيجلية بشكل مستفيض، ولكن السبب الذي دفعني إلى التطرق لها هنا، هو صلتها بموضوع البحث "فلسفة التاريخ عند هيجل"، فيبقى أن أشير إلى ارتباط الجدل عند هيجل بفلسفته التاريخية.

يقول ول ديو رانت:

"إن التاريخ - عند هيجل - حركة منطقية (جدلية)، وهو في الغالب سلسلة من الثورات، يستخدم فيها "المُطْلَق" الشعوب إثر الشعوب والعباقرة إثر العباقرة أدوات في تحقيق النمو والتطور (نحو الحرية) إن هذه العملية المنطقية (الجدلية) في سير التاريخ تجعل من التغيير مبدأ الحياة الأساسي؛ إذ لا شيء خالد، وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ يوجد تناقض وتعارض لا يقوى على حله سوى صراع الأضداد والتاريخ هو نمو نحو الحرية وتطورها.

هذه هي نظرة هيجل للتاريخ باعتباره مسرحًا للجدلية (الديالكتيك)، سعيًا للرقي بالوعي والوصول للحرية، فهو يرى أن التاريخ هو مسار يعبر عن التقدم من خلال الشعور بالحرية، وهذا المسار لا يكون إلا من خلال صراع المتناقضات، وفقًا لمنطقه الجدلي، وفي كل دورة جدلية نتقدم نحو الأفضل والأرقى في الشعور بالحرية، وهو لا يرى أن الحروب والصراعات بين الأمم ضرورية للتقدم فحسب، بل إنه يرى أن فترات الرخاء والهناء والسلام الخالية من التناقض، ليست عصورًا تاريخية، ولا تعتبر مرحلة تاريخية أثناء عرض مراحل التاريخ!

وهذه الإشارة للجدلية عند هيجل، وعلاقتها بالتاريخ، مقدمة جيدة للتمهيد للدخول في المبحث القادم، لُبِّ البحث وأساسه؛ لتوضيح نظرية فلسفة التاريخ عند هيجل.

فلسفة التاريخ عند هيجل: العقل يحكم التاريخ لقد أوضح لنا هيجل نظريته في فلسفة التاريخ، من خلال كتابين نشرهما أحد تلامذته بعد وفاته، هما عبارة عن محاضراته في فلسفة التاريخ أثناء تدريسه بجامعة برلين، كما أشرنا سابقًا، وهذان الكتابان هما:

1- محاضرات في فلسفة التاريخ، المجلد الأول، "العقل في التاريخ".

2- محاضرات في فلسفة التاريخ، المجلد الثاني، "العالم الشرقي".

وبقراءة فاحصة، يمكن أن نعتبر المجلد الأول هو المدخل النظري لفهم فلسفة التاريخ عند هيجل، أما المجلد الثاني فيمكن اعتباره التطبيق التاريخي العملي لفلسفة هيجل التاريخية.

وسنطل على فلسفة التاريخ عند هيجل بنفس الطريقة التي اتبعها هو في محاضراته، من خلال المجلدين سابقي الذكر.

أولاً: مناهج دراسة التاريخ:

قبل أن يبدأ هيجل استعراض فلسفته للتاريخ، يؤكد أنه لا يقصد عرض مجموعة من الملاحظات العامة حول التاريخ، أو تناول تاريخ جزئي لأمة من الأمم، بل التاريخ الكلي والعام للإنسانية، تاريخ الإنسان وتطوره الحضاري، ومَهَّد لذلك بعرضٍ للمناهج التي يمكن أن يُدرَس بها التاريخ، وقد قسمها إلى ثلاثة أنواع:

أ- التاريخ الأصلي:

والمقصود به هو التاريخ الذي يكتبه المؤرخ وهو يعيش أصل الأحداث ومنبعها، فهو ينقل ما يراه أمامه، وما سمعه من الآخرين كما هو.

ب- التاريخ النظري:

وهذا النوع لا يقف فيه المؤرخ عند أحداث عصره وما شاهده بنفسه، بل يعرض تاريخ أمة من الأمم، أو عصرًا من العصور يجاوز عصره، فيقوم بجمع المادة التاريخية وتصنيفها، وتبدو في هذا النوع من التاريخ طريقة المؤرخ وأسلوبه في عرض الوقائع وتفسيره لبواعثها، فلكل مؤرخ طابعه الخاص الذي يتميز به.

ج- التاريخ الفلسفي:

وهذا النوع هو المقصود بفلسفة التاريخ عند هيجل، "ومن هنا فإن الطريقتين السابقتين من طرق الكتابة التاريخية إنما تشكلان مادة الكتابة لهذا النوع الثالث إن الدراسة الفلسفية للتاريخ تعني دراسة التاريخ من خلال الفكر؛ لأن التاريخ هو تاريخ الإنسان، وجوهر الإنسان هو الفكر

ومن هنا نبتت نظرية هيجل في التفسير التاريخي، وهي أن تاريخ العالم يتمثل أمامنا بوصفه مسارًا عقليًّا، وأن العقل يسيطر على العالم، وأن مسار التاريخ الإنساني إنما هو مسار تطور العقل.

هذه المقولة "العقل يحكم التاريخ" هي المحور الذي تدور حوله فلسفة هيجل التاريخية، ويمكن أن نعتبرها تلخيصًا لفلسفته كلها؛ ولذلك سنحاول في السطور التالية توضيح المقصود من تلك المقولة الأساسية عند هيجل.

ثانيًا: العقل يحكم التاريخ:

يرى هيجل أن هذه الفكرة التي تقول بأن العقل (أو الروح) يحكم التاريخ (أو العالم)، ليست جديدة، بل قديمة قدم الفلسفة اليونانية، وشائعة شيوع الدين فالفلسفة اليونانية تعني بهذه المقولة أن الطبيعة تجسيد للعقل، وأنها تخضع لقوانين كلية، أما من الناحية الدينية، فيذكر هيجل أن أحداث العالم ليست متروكة للمصادفات؛ وإنما هناك حكمة إلهية أو عناية إلهية توجه العالم، وبالتالي فإن كل ما يحدث للعالم طبقًا لخطة إلهية.

• ويحاول هيجل أن يفسر ما يعنيه بقوله: "العقل يحكم التاريخ"، من خلال ثلاثة عناصر:

1- طبيعة العقل (أو الروح):

يمكن إدراك طبيعة وماهية الروح بمعرفة ما يقابله (ضده)، فالمادة تقابل الروح، وجوهر المادة هو الجاذبية، بينما جوهر الروح هو الحرية، وخصائص الروح كلها كامنة في الحرية، "ولا يكشف الروح عن وعيه الذاتي بالحرية كما يكشف عنه في التاريخ، فتاريخ العالم - إذًا - هو مسار يكافح فيه الروح لكي يصل إلى وعي بذاته، أعني: لكي يكون حرًّا، ومِن ثَم فهو ليس إلا تقدم الوعي بالحرية، وكل مرحلة من مراحل سيره تمثل درجة معينة من درجات الحرية"[22].

• ويقسم هيجل المراحل التي مر بها الروح في سيره نحو الحرية إلى ثلاث مراحل:

أ- الحضارات الشرقية القديمة؛ الصينية والهندية والفارسية والفرعونية، وهذه المرحلة تتميز بأن المواطنين جميعًا كانوا عبيدًا للحاكم، وينفذون مشيئته، وهذا الحاكم هو وحده الحر.

ب- أما المرحلة الثانية، فتمثلها حضارة اليونان والرومان، فقد اتسع نطاق الحرية عما كان عليه عند الأمم الشرقية القديمة، فقد كان بعضهم أحرارًا وليس الحاكم فقط، وهؤلاء الأحرار هم المواطنون اليونان والرومان، أما الأمم الأخرى فقد كانوا ينظرون إليهم على أساس أنهم برارة وهمج؛ ولهذا اتخذوا من أَسْراهم عبيدًا لهم.

ج- أما المرحلة الثالثة، فيرى هيجل أنها تتحقق في "الأمم الجرمانية"، فهم أول الأمم التي تصل إلى الوعي بأن الإنسان بما هو إنسان حر، فالروح الألماني هو روح العالم الجديد.

"لقد بلغ تمجيد ألمانيا حدًّا يجعلنا نتوقع أن نجدها التجسيد النهائي للفكرة المطلقة، التي لا يمكن بعدها أن يحدث تطور أبعد.

ولكن هذا التقسم الغريب الذي ينبئ عن تعصب عرقي، وكأن التاريخ انتهى عند ألمانيا، فهي التجسيد المطلق للحرية! يناقض نظرية الجدل (الديالكتيك) عند هيجل نفسه، فكأنه قد حكم على التاريخ بالتوقف، والتطور بنهايته، والروح بتحقق وعيها الكامل، والفكرة بالوصول إلى مطلقها، فقط عند الشعب الجرماني!

2- وسائل تحقق الروح في العالم:

يرى هيجل أن "مشكلة الوسائل التي تطور بها الحرية نفسها في العالم، تقودنا إلى ظاهرة التاريخ نفسه، فعلى الرغم من أن الحرية هي في الأصل فكرة غير منظورة (أي جوانية)، فإن الوسائل التي تستخدمها هي على العكس خارجية وظاهرية، تتمثل في التاريخ أمام أنظارنا، وأول نظرة إلى التاريخ تقنعنا بأن أفعال الناس تصدر عن حاجاتهم وانفعالاتهم وطبائعهم ومواهبهم الخاصة، وتقنعنا بأن هذه الحاجات والانفعالات والمصالح هي المنابع الوحيدة للسلوك، وهي العوامل الفعالة في ميدان النشاط هذا.

غير أن هذا النشاط البشري، بما في ذلك أعمال الرجال العظام، ليس إلا مجرد وسيلة لتحقيق غاية لا يعرف هؤلاء عن أمرها شيئًا، مع أنها متضمنة في أفعالهم، متحققة خلال تصرفاتهم.

وهذا ما يسميه هيجل "خبث العقل الكلي المسيطر على التاريخ"، فمن خبثه أنه يستعين بالشخصيات التاريخية العظيمة، في سبيل تحقيق أهدافه وخططه ومقاصده، دون أن يكون هؤلاء

على علم بذلك، وإنما الذي يجعل هؤلاء أقوياء هو أن أهدافهم الجزئية ومصالحهم الخاصة تحتوي على المحتوى الجوهري الذي هو إرادة الروح الكلية.

3- الشكل الذي تتحقق فيه الروح.

قبل شرح هذه النقطة ينبغي أولاً أن نوضح ثلاثة مصطلحات استخدمها هيجل أثناء حديثه عن تحقق الروح، وهذه المصطلحات هي: (العقل الذاتي - العقل الموضوعي - الوعي المطلق.

فيرى هيجل أن روح العالم يعِي نفسه على ثلاث مراحل متتالية:

أولاً: يعني روح العالم نفسه في الفرد "العقل الذاتي".

ثانيًا: تأتي الدرجة الأعلى، حيثُ يعي روح العالم نفسه في الدولة "العقل الموضوعي"؛ لأنه عقل يتجلى من خلال تواصل الناس فيما بينهم.

وتأتي المرحلة الأخيرة، حيثُ يبلغ روح العالم أعلى أشكال المعرفة بذاتها في "الوعي المطلق"، وهو الفن والدين والفلسفة، حيثُ تمثل هذه الأخيرة الشكل الأكثر سموًّا للعقل.

وعندما نأتي إلى الشكل الذي تتحقق فيه الروح، فيرى هيجل أن هذا الشكل لا بد أن يكون وحدة للجانب الذاتي والجانب الموضوعي، وهذه الوحدة لا تتجلى إلا في "الدولة"، فالدولة هي التحقق الفعلي للحرية؛ إذ فيها تبلغ الحرية مرتبة الموضوعية؛ ذلك لأن الإرادة التي تطيع القانون وتخضع له هي وحدها الإرادة الحرة؛ لأنها تطيع نفسها، وتخضع إرادة الإنسان الذاتية للقانون. وينفي هيجل فكرة أن القوانين تقيد الحرية الفردية؛ وإنما تقيد الغرائز الوحشية والهمجية التي فيه، وهذا التقييد هو جزء من الوسائل التي يحقق بها الوعي بالحرية ذاته.

"ومعنى هذا - كما يذكر هيجل - أن تحقق الحرية هو نهاية لا بداية للروح، وهي تتخذ الجانب الذاتي وسيلة لهذا التحقيق، والصورة التي تتحقق فيها هي الدولة بوصفها الكلي الأخلاقي، الذي يضم الجانبين الذاتي والموضوعي، ونشاط الروح كله ليس سوى هذه الغاية؛ أن تصبح الروح واعية بهذه الوحدة.

الأساس الجغرافي لتاريخ العالم:

في هذا الجزء يشير هيجل إلى أن هناك ارتباطًا كبيرًا بين الجغرافيا والتاريخ، وأن الموقع الجغرافي له أثره في إنتاج روح شعب ما وثقافته وطبيعته، وبالتالي موقعه التاريخي، فيقول: "مجال اهتمامنا هو معرفة النمط الطبيعي للموقع المحلي من حيثُ صلته الوثيقة بنمط الشعب وشخصيته التي هي ثمرة لمثل هذه التربة.

• وعندما يتحدث هيجل عن مسرح تاريخ العالم، فإنه يستبعد المنطقة الحارة والمنطقة المتجمدة من دراما التاريخ؛ لأنهما ليستا موقعًا مناسبًا لظهور التاريخ، كما يستبعد العالم الجديد (أمريكا وأستراليا؛ لأننا لم نعرف شيئًا عنهما إلا حديثًا، وعلى ذلك فإن مسرح التاريخ الحقيقي هو المنطقة المعتدلة، لا سيما المنطقة التي تقع حول البحر الأبيض المتوسط، الذي يشبه خليجًا ضخمًا يربط بين قارات العالم الثلاث التي يتألف منها العالم.

وقد جعل هيجل البحر الأبيض المتوسط هو مركز تاريخ العالم بالنسبة إلى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، يقول: "فههنا تقع اليونان منارة التاريخ، وهنا - أيضًا - القدس في الشام، وهي مركز اليهودية والمسيحية، وفي الجنوب الشرقي منه تقع مكة والمدينة مهد الديانة الإسلامية، ونحو الغرب تقع دلفى وأثينا، وإذا سرنا أبعد في طريق الغرب وجدنا روما، وعلى شاطئ البحر المتوسط توجد - أيضًا - مدينة الإسكندرية، ومدينة قرطاجة، وعلى ذلك فإن البحر المتوسط هو قلب العالم القديم، فهو الذي يتحكم فيه ويشيع فيه الحياة، وبدونه ما كان يمكن تصور تاريخ للعالم. ويقسم هيجل المناطق الجغرافية ثلاثة أقسام، هي: (الأرض المرتفعة - السهول الوديانية - المناطق الساحلية)، وقد جعل القارات الثلاث تمثل بصفة عامة هذا التقسيم الثلاثي؛ فإفريقيا وأواسط آسيا هي الأرض المرتفعة، وآسيا هي منطقة السهول الوديانية، وأروبا تمثل المنطقة الساحلية.

• فالمناطق المرتفعة تتميز بوجود أماكن كثيرة تصلح للرعي؛ ولهذا تظهر فيها الحياة الأبوية البطريركية التي لا تظهر فيها العلاقات القانونية بين السكان في هذه المناطق الجبلية؛ ولهذا توجد فيهما صفتان: الكرم وحسن الضيافة من ناحية، والسلب والنهب من ناحية أخرى.

• أما منطقة السهول الوديانية، فهي المنطقة التي تتميز بالأرض الخصبة والأنهار، كما في الهند والصين وبابل ومصر، وفي هذه المناطق تنشأ الدول والممالك العظمى، حيثُ تكون الزراعة هي

مصدر الرزق، ويقوى الارتباط بين الإنسان والأرض، حيثُ يرتبط الإنسان بالتربة وتشده إليها، وتجعله خاضعًا لمجموعة لا نهاية لها من التبعيات.

• أما الأرض الساحلية، فيقول هيجل: إن البحر يعطينا فكرة اللامتناهي، ويشجع الإنسان على تجاوز نطاق المحدود؛ ولهذا فالبحر يدعو الإنسان إلى الغزو والفتح والقرصنة، لكنه يدعوه - أيضًا - إلى التجارة والكسب الشريف، ويتميزون بالجرأة والحكمة.

التاريخ من الطفولة إلى الشيخوخة:

يصف هيجل مجرى التاريخ كمسار الضوء، فكما أن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب، فإن آسيا هي بداية التاريخ، وأروبا هي نهايته، وقد اعتبر أن تاريخ العالم ليس إلا ترويض الإرادة الطبيعية على الخضوع للنظام، وجعلها تطيع المبدأ العام.

وقد جعل المراحل التي سارت فيها هذه العملية هي:

1- مرحلة الطفولة، وتبدأ من الشرق (الصين والهند) الذي لم يعرف الحرية إلا لفرد واحد.

2- مرحلة الصبا، التي تمثلها آسيا، ويقصد بآسيا هنا (بلاد فارس ومصر).

3- مرحلة المراهقة، التي تمثلها اليونان.

4- مرحلة الرجولة، وتمثلها الدولة الرومانية.

5- مرحلة الشيخوخة، ويمثلها العالم الجرماني، ويقول هيجل عن هذه المرحلة: "إذا كانت الشيخوخة في الطبيعة تعني الضعف والهرم، فإن شيخوخة الروح تعني نضجها وقوتها الكاملة.

• هذه هي النتيجة النهائية التي لخص بها هيجل فلسفته للتاريخ، حيثُ اعتبر أن الوعي بالحرية هو النتيجة النهائية التي يتجه مسار التاريخ إلى إنجازها.

وفي السطور الأخيرة من المجلد الأول من محاضراته في فلسفة التاريخ "العقل في التاريخ" يذكر هيجل أنه "علينا أن ندرس بالتفصيل ذلك الطريق الطويل (مسار التاريخ لتحقيق غايته) الذي تتبعناه هنا بطريقة عاجلة. وهذه الدراسة التفصيلية التي أبدى هيجل رغبة في تناولها لمسار الطريق هي ما يتناوله المجلد الثاني من محاضراته في فلسفة التاريخ "العالم الشرقي"

وهذا ما دعانا إلى افتراضنا السابق؛ أن المجلد الأول بمثابة "النظرية"، والثاني بمثابة "التطبيق" العملي لها عند هيجل.

ملاحظات عامة حول فلسفة التاريخ عند هيجل:

• إن أول ما نلاحظه عند دراسة فلسفة هيجل في التاريخ هو عنصريته وتعصبه لأروبا بشكل عام، ولألمانيا بشكل خاص، فقد جعل أوربا هي مركز العالم، ونهاية التاريخ! وهو في تعصبه لا يصل لهذا الحد، بل يقول: "إن القدر المحتوم للإمبراطوريات الآسيوية أن تخضع للأوربية، وسوف تضطر الصين في يوم من الأيام أن تستسلم لهذا المصير.

• لقد تجاهل هيجل الحضارة العربية والتاريخ الإسلامي، ومر عليه كأنه لم يكن، فاختزل مراحل التاريخ إلى تاريخ شرقي قديم، ثم يوناني وروماني، ثم جرماني! وكأن الحضارة العربية والإسلامية التي جاءت بعد الرومان ليس لها أيُّ قيمة ولا ذكر أو حتى إشارة! وهي سقطة كبيرة في حق فيلسوف كبير.

• المتأمل لفلسفة هيجل يلاحظ أنه لا يوجد عنده معيار للخطأ والصواب، والشر والخير، فكل الأمور عنده نسبية، ولا توجد أيُّ مقاييس أخلاقية، بل إنه برر الأفعال التاريخية الشنيعة للحكام، حيثُ جعلها مسارًا طبيعيًّا كان لا بد للروح أن يتخذه في طريق تحقيق أهدافه، "تقوم فلسفة هيجل التاريخية على أصول ميكا فيلية ـ بعد أن جعل التبرير ميتافيزيقيًّا ـ فنظريته لا تعبأ بالأخلاق، ولا ببؤس الشعوب، وقد أصبحت نظريته التاريخية جزءًا من أيديولوجية أبشع النظم السياسية وأكثرها تعصبًا وبربرية؛ إنه النظام النازي.

• نظرة هيجل تجاه قضية الحرب والسلام غريبة نوعًا ما، وتحتاج قدرًا من التأمل، فهو يرى ضرورة وأهمية وجود الحروب بين الشعوب، "وإذا كان فلاسفة القرن الثامن عشر قد دافعوا عن ضرورة السلام بين الشعوب، فإن هيجل لا يجد غضاضة في القول بأن الحرب حالة ضرورية بين الشعوب، وأنها تلعب دورًا كبيرًا في تاريخها فالحرب تحرك حياة الشعوب ولا تجعلها تتكاسل وتستكين، إنها في نظره دليل على الصحة وسلامة الأخلاق وبدون الحروب تفقد الشعوب تدريجيًّا

معنى الحرية، وتتمسك بالحياة المادية وحدها وإذا عاشت الشعوب في سلام زمنًا طويلاً فإنها تفقد حياتها ووجودها، فالرياح التي تهب فوق مياه البحيرة تحفظها من الركود والعفن.

- تطور الحضارات..

- كيف ظهرت الحضارات..

- أصل الحضارة..

تُطلق الحضارة على جملة معانٍ خاصة تجتمع معًا فيتألف منها معناها؛ ففي الناس طوائف تعيش في الغابات بعيدة عن الحضارة، وبدو الصحراء ليسوا متحضرين إلا بمقدار ما اكتسبوه من المتحضرين؛ من لباس يلبسونه أو ثقافة بسيطة قد تلقنوها منهم في تدجين حيوان أو الإيمان بإله أو معرفة شيء عن الكواكب.

فنحن نفهم من معنى الحضارة ناسًا يعيشون معًا في مقام لا يرحلون عنه، لهم صناعة أو زراعة يرتزقون منها، ولهم نظام اجتماعي ونظام حكومي، ولهم شيء من ثقافة الدِّين أو العلم قلَّت أو كثُرت.

والآن نتساءل: كيف نشأت الحضارة؟

ونقول إنها نشأت بعد أن سبقها دهر طويل من حال البداوة، حين كان الإنسان يعيش باقتيات الجذور والأثمار البرية وبعض الحشرات وصغار الحيوان، على نحو ما تفعل القردة العليا الآن، وكان الذكر يستأثر بأنثى ويمنع سائر الذكور من الاقتراب منهن، ثم أخذ الإنسان في الاجتماع لأجل الصيد، فساعده ذلك على:

(١) صناعة السلاح من الأحجار للصيد.

(٢) إيجاد حرمة لنسائه وقت غيابه، وهذا أول الأخلاق.

(٣) اجتماع النساء معًا، وفي ذلك تنشيط اللسان على الكلام وإيجاد لغة للتفاهم.

(٤) استئناس بعض الحيوانات الصغيرة التي قُتلت أباؤها في الصيد.

ولكن كل ذلك لم يكن ليكفي لإيجاد حضارة؛ فقد كان الإنسان لا يزال يعيش عريانًا لا يعرف شيئًا عن الصناعات المختلفة، يجهل القراءة ولا يعرف من الدين سوى أرواح الغابة وما يتشوَّش به

ذهنه من الأحلام، والحقيقة أنه لم يكن في حاجة إلى الحضارة؛ فقد كان مشرَّدًا لا يهدأ بمكان ولا يطمئن إلى صناعة.

وإنما ابتدأت الحضارة حين عرف الإنسان الزراعة؛ لأن الزراعة تقتضي الإقامة بمكان لا متحوَّل عنه، والإقامة تستدعي السكنى في كوخ، فتنشأ صناعة البناء، ثم يصير استئناس الحيوان — الذي كان يحدث اتفاقًا وقت الصيد — تدجينًا دائمًا، فتُعرف صناعات الألبان والأصواف والأوبار، ويعرف الإنسان من اللبن فوائد الخميرة، فيستعملها في خبزه وجعته.

والزراعة تقتضي التوقيت المُحكَم، فيضطر الإنسان إلى معرفة شيء عن الكواكب؛ لأن الإنسان وهو في البداوة يكتفي بالتوقيت القمري، وهذا لا ينفعه بشيء في الزراعة؛ فهو لذلك محتاج إلى معرفة السنة الشمسية، ولا بد له من شيء من الفلك لإتقان ذلك، ثم هذا التوقيت لا يمكن إتقانه ما لم يضبطه بالكتابة.

فالحضارات الأولى نشأت عند الأمم الزراعية في البلاد المعتدلة الحرارة؛ مثل مصر، أو العراق، أو الهند، أو الصين، وأقدم حضارات العالم التي عرفها العلماء الآن هي حضارة مصر؛ ولذلك يمكننا أن نقول إن مصر هي أصل الحضارة في العالم أجمع.

والمنطق والتاريخ يؤيدان هذه النظرية؛ فإن الإنسان كان طيلة الوقت الذي سبق اكتشاف الزراعة خلوًا من أي معنى للحضارة، وكيف يكون متحضرًا من يعيش في الغابة يأكل الأثمار والجذور ويصيد من وقت لآخر وحشًا؟! فإن هذه الحياة لا تتطلب منه معرفة أية صناعة سوى صناعة الصيد.

فإذا سلَّمنا بأن الزراعة هي أصل الحضارة بقي أن نعرف أن الأمم الزراعية سبقت غيرها؛ إذ لا بد أن واحدة منهن قد سبقت الجميع، ولسنا نعرف من تاريخ بابل أو الهند أو الصين أن إحدى هذه الأمم تساوي مصر في قدم تاريخها.

والاستقراء يثبت أن الثقافة المصرية، من دينية وصناعية، قد خرجت من مصر وسارت في جميع آسيا، بل وصلت إلى أمريكا؛ حيثُ عُرف أسلوب من التحنيط المصري في وقت كان قد مات فيه من مصر؛ إذ كانت المسيحية قد انتشرت عندنا، على نحو ما نرى الآن الصناعات التي كانت

فاشية في عهد الحروب الصليبية قد انتشر استعمالها الآن بين زنوج إفريقيا الغربية الذين يصنعون السيوف والدروع على طريقة الصليبيين.

ولا بد أن الحضارة الأولى نشأت في بلاد معتدلة الحرارة حول أحد الأنهار؛ لأن الزراعة التي هي أول أنواع الحضارة لم تكن مستطاعة في العصور الأولى في بلاد شديدة الحرارة أو شديدة البرودة.؛ لأن شدة الحرارة تسرع نمو النبات والأعشاب فلا يستطيع الإنسان السيطرة عليها، ولا يزال للأن سهل الأمازون في برازيل غير آهل بالسكان؛ لكثرة غاباته وأحراشه التي لم يقدر الإنسان على التغلب عليها.

وكذلك شدة البرودة تبطئ نمو الزرع، ويتكلف فيها الزُّرَّاع مشقة أكبر مما يتكلفه الزُّرَاع في البلاد المعتدلة الحرارة، وإنما تنجح الزراعة في أوربا الآن لكثرة الآلات العصرية.

فبلاد مصر هي أولى البلاد التي ظهرت فيها الزراعة في العالم لاعتدال مناخها، وهي لذلك أول قطر عرف الحضارة في العالم؛ لأن الزراعة أجبرت المصري على أن يعرف صناعة البناء (والخزف ضمنًا) وتدجين الحيوان وخميرة الخبز والجعة والتوقيت، وهو يحتاج إلى معارف فلكية عن الشمس والكواكب، ثم الكتابة لكي يضبط بها التوقيت في تقويم خاص.

وما زلنا نحن للآن نشهد بصحة توقيت قدماء المصريين باستعمالنا تقويمهم في الزراعة؛ فإن السنة القبطية هي السنة المعوَّل عليها بين الفلاحين الآن، ومن الحروف الهيروغليفية الصورية اهتدى الفينيقيون وغيرهم إلى حروف أبجدية انتشرت في جميع أنحاء العالم.

وبوجود الزراعة في مصر وُجد مجتمع منظم، ووُجد نظام للكهنة وأوقاف للمعابد، وصار الدين عقائد ثابتة لا تتغير، وكل هذه الأنظمة خرجت من مصر وفشت في البلاد الأخرى، بل ربما كانت لفظة «آمين» المنتشرة في العالم الآن التي تختم بها الأدعية هي نفسها لفظة «آمون» الرب المصري القديم؛ لأنها في الهيروغليفية تكتب «آمن»، ويمكن أن تنطق أمان وأمين وأمون.

وهذه هي الحضارة، وهي لا تختلف عن حضارتنا الراهنة إلا من حيثُ الدرجة لا من حيثُ النوع، فمنذ عرف الإنسان الزراعة بدأت الحضارة.

أما كيف عرف الإنسان الزراعة فلا يزال موضع شك، وقد قيل في ذلك أنه عندما كان الإنسان يدفن موتاه كان يضع بعض الأثمار معه حتى يأكلها؛ اعتقادًا بأنه يحتاج إلى الطعام بعد وفاته،

فكانت البذور التي في الأثمار تنمو، بل تنمو زكية لأنها تتغذى بسماد الجثة المتوفاة، فكان هذا داعيًا إلى تنبيه ذهنه إلى الزراعة وإلى الإيمان بأرواح الموتى أيضًا.

ومن الإيمان بأرواح الموتى ترقَّى الإنسان إلى الإيمان بالآلهة، ومما يزيد هذا الظن أن الأمم القديمة، وبعض الطوائف المتوحشة الحديثة، كانت تضحي بإنسان أو بماشية وتقطِّعه أجزاء توزعها في الحقول حتى يزكو الزرع؛ كأنها تجري على التقليد القديم حين كان يعتقد الإنسان أن الزرع لا ينمو إلا عن واسطة ميت، وربما ابتدأت الملكية في الأرض أيضًا من هذا الأصل؛ لأن من دفن قريبًا له صارت الأرض حوله حرمًا له يزرع فيه ما يشاء، ويكون الزرع ملكه؛ لأن روح الميت التي أنبتته هي روح قريبه الذي لا حق لأحد عليه غيره.

وسواء أصحَّت هذه الفروض عن الزراعة أم لم تصح فإن الذي يمكن الجزم به أن الزراعة هي أصل الحضارة، وأن القطر المصري أول ما زرع من أقطار العالم، فهو بذلك أصل حضارته، وانتظام الفيضان الذي يأتي به النيل كل عام مع مواظبته في مواعيد محددة كان جديرًا بأن يفتح أذهان المصريين القدماء إلى قيمة الماء في حياة النبات، وبأن يرشده إلى الزراعة.

وبتقدُّم الصناعة وظهور المعادن صارت الزراعة تتجه نحو الشمال بالتدريج، في أفينيقيا أولًا، ثم في بلاد الإغريق، ثم في إيطاليا، ثم في أوربا، صاعدة من الجنوب إلى الشمال؛ أي من الحر إلى البرد.

وأغلب الظن أن الزراعة نشأت أولًا على عمل الرقيق، وللرِّقِّ فضل على الإنسان؛ لأنه علمه مزاولة العمل والإقلاع عن حياة التشرد في الغابات، وفي معاني «عَمَل» وشغل» ونصب» ما يدل على أن الإنسان القديم لم يكن يستسيغ العمل.

وكما كانت الزراعة أصل الحضارات القديمة فهي لا تزال أساس الحضارات الحديثة، ولكن ظهر عامل جديد في الحضارة، وهو الصناعة التي يختلف أثرها الاجتماعي عن أثر الزراعة؛ فالزراعة تدعو إلى تشتيت العمال، كما هو الحال في الهند ومصر، وهذا يساعد على وجود حكومات استبدادية، وأيضًا تتوافر فيها الأقوات الرخيصة ويتكاثر فيها السكان، فتنتشر الفاقة بين العمال الفلاحين لهذا السبب، والفاقة تدعو إلى الاحتقار والمهانة، ثم إلى استبداد الأغنياء بالفقراء.

أما حيثُ تكون الحضارة صناعية فإن أجور العمال تبقى مرتفعة والأقوات غالية الثمن، وارتفاعها يدعو إلى احترامهم؛ لأنهم لا يظهرون بمظهر الفقر المهين، والعمال يتجمَّعون حول المصانع ويتعاونون على صيانة حقوقهم وزيادتها، وهنا تنشأ الحكومة الديمقراطية، ومن هنا نفهم السبب في ديمقراطية الحكومات الأوربية.

والحضارة الأوربية تتجه الآن نحو الاشتراكية بلا جدال، يساعدها على ذلك نزعة الأهالي الديمقراطية وكثرة الآلات؛ فإن انتشار الآلات والمصانع الكبيرة لا يتفق والملكية الفردية.

نشــأة الحـضــارة

مفهوم الحضارة:

الحضارة نظام اجتماعي يعين الانسان علي الزيادة من انتاجة الثقافي ، وانما تتألف الحضارة من عناصر اربعة الموارد الأقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون وهي تبدا حيثُ ينتهي الأضطراب والقلق ، لانة اذا ما امن الأنسان من الخوف تحررت في نفسة دوافع التطلع وعوامل الأبداع والانشاء وبعدئذ لاتنفك الحوافز الطبيعية تستنهضة للمضي في طريقة الي فهم الحياة وازهارها.

أهم عوامل قيام الحضارة:

لقد ساعدت الاكتشافات الأثرية والمستحاثات وبقايا المدن القديمة المرتبطة بالشعوب القديمة في تشكيل فكرةٍ عن نشوء ونمو الحضارات القديمة التي ساعدت في رسم الحضارة اليوم، ورغم أن بعض هذه الحضارات كانت قائمةً على الأساطير والخرافات كالحضارة الرومانية وحضارة أتلانتيك، إلا أن هذا لا يقلل من أهمية هذه الحضارات القديمة لأن كلًا منها شكل عاملًا هامًا ومميزًا في تكوين العالم، وبشكلٍ عام فقد نشأت الحضارات عندما بدأ الناس بالاستقرار وتحسنت الحالة الاقتصادية والثقافية، وقد ساعد في ذلك عدة عواملَ هي:

الطعام والاقتصاد: فعندما توفرت كمياتٌ كافيةٌ من الطعام ازداد عدد السكان الذي ترافق مع زيادة الطلب على الطعام، ومن أجل ذلك كان لا بد من القيام بالتالي:

· تأمين مصدر موثوق ومستقر من الطعام سواء كان الاعتماد على الزراعة أو تربية الحيوانات، والاستفادة من لحمها وحليبها.

· الاستقرار في مكانٍ واحدٍ طالما أن الزراعة وزيادة إنتاج المحاصيل الزراعية، والاعتناء بالحيوانات أمورٌ تتطلّب بقاء الناس في أماكنَ قريبةٍ من أماكن عملهم في الحقول.

تطور الصناعات المعدنية بعد أن أصبح الناس قادرين على التنقيب عن الرصاص والنحاس والبرونز والذهب والفضة والحديد وغيرها من المعادن، وتحويلها إلى أدواتٍ تفيد في عملية إنتاج الطعام تطور الحرف وإيجاد مهنٍ تتطلب أفرادًا قادرين على تخصيص جزءٍ من وقتهم، أو التفرغ الكامل لإنجازها كالأعمال النسيجية وإنتاج الفخاريات وصنع المجوهرات وكذلك أيضا وجود أعداد كافية من الأيدي العاملة.

نشأة التخطيط الحضري وإيجاد المراكز السياسية والدينية وأماكن استقرار مجتمعية دائمة ذات عناصرَ مختلفةٍ.

ظهور الأسواق وتطورها لتقابل احتياجات الفئات النخبوية في المجتمع من الطعام والبضائع، وتوفيرها احتياجات عامة الشعب لضمان تحقيقهم الاكتفاء والأمان الاقتصادي.

العمارة والتقدم التقني: والمقصود بالتقدم التقني هو البناء الاجتماعي والمادي المحسوس الذي يدعم نمو السكان، وبالتالي قيام الحضارات على أساسها، ويشمل ذلك ما يلي:

وجود أبنية كبيرة خارجية يمكن للمجتمع مشاركتها كالكنائس والمعابد والقصور، وكل ما يشار إليه بكونه معلمًا أثريًّا.

وجود أنظمةٍ للكتابة لتبادل المعلومات عبر مسافاتٍ طويلةٍ داخل وخارج منطقةٍ ما.

وجود مجموعاتٍ دينيةٍ يرأسها رأس ديني كالكاهن أو الشامان.

وجود تقويم أو مراقبة للأرصاد الجوية لمعرفة وقت تغير الفصول.

وجود شبكاتٍ طرقية لربط المجتمعات ببعضها.

السياسة وضبط المجتمع: ويشمل البناء السياسي للمجتمعات المتقدمة ما يلي:
ساعد وجود ربط طرقي بين المجتمعات على مشاركة البضائع مما ساهم في إنتاج بضائع غريبة وفخمة كالكهرمان البلطيقي؛ وهو نوعٌ من المجوهرات مصنوعٌ من معادنَ ثمينةٍ، والزجاج البركاني وصدفة المحار الشوكي والعديد غيرها من المواد الأخرى.
ظهور الطبقات الاجتماعية والألقاب ذات السلطات المختلفة في المجتمع.
تشكيل قوى عسكرية مسلحة لحماية المجتمع وقادته.
إيجاد طرق لجمع الضرائب والجزية إضافةً إلى الأملاك الخاصة.
وجود حكومة مركزية لتنظيم كل ما سبق.
لا يشترط تواجد جميع هذه العوامل والميزات مع بعضها في مجتمع ما ليُسمى حضارة، إلا أن توافرها جميعًا يعتبر دليل مجتمع متطور نسبيًا.

العوامل الجغرافية لقيام الحضارة تشمل ما يلي:

الحماية الطبيعية: يتمثل الحاجز الطبيعي بأحد تضاريس الأرض أو أشكالها البيئية، التي تمتاز بصعوبة التنقل عبرها، وتوفر الحماية الطبيعية للمناطق القريبة منها، وقد وفرت هذه الحواجز الحماية للحضارات من التعرض للغزو، وأعاقت موجات الهجرة من مناطقها، ومن الأمثلة على الحواجز الطبيعية التي ساهمت في نشأة الحضارات: الجبال، والمستنقعات، والصحراء، والمناطق الجليدية.

المصادر المائية: اعتبرت الأنهار مواقع جذبٍ للحضارات، وزودتها بالإمدادات الثابتة من مياه الشرب، كما حافظت على خصوبة التربة المهمة للمحاصيل الزراعية، استخدم البشر الأنهار للتنقل، وكانوا يمارسون الصيد على ضفافها؛ بما في ذلك صيد الأسماك والحيوانات التي تأتي لري ظمأها، وأوجد بني البشر الطواحين عند مصادر المياه لطحن القمح، والقنوات والأنابيب لنقل الماء، والشبكات الخاصة للمياه الجوفية.
المناخ: تعد التغيرات المناخية من العوامل المهمة التي تؤثر على نشوء الحضارات أو انهيارها

فالمناخ المسقر يضمن نمو المحاصيل على مر السنين، وهذا بدوره يؤدي إلى استقرار الناس في أماكنهم وتطوير ثقافتهم.

العوامل الاقتصادية لقيام الحضارة تشمل ما يلي:

الزراعة: ابتكر البشر الزراعة لإنبات كل ما يحتاجونه من طعامٍ في مكان واحد، وبواسطة مجموعة محدودة من الأشخاص (المزارعين)، حيثُ ساهمت الزراعة في ازدياد أعداد السكان في الحضارات، ونشأة المدن وتطور التجارة، كما ساعد تفرغ المزارعين لممارسة عملهم في توجه بقية السكان للعمل في مجالاتٍ أخرى مثل؛ الحكومة، والجيش، والصناعة، وبشكلٍ عام ازدهرت الحضارات أينما ازدهرت الزراعة؛ وساهمت في استيطان البشر وتطويرهم للبنى التحتية في مجتمعاتهم.

التجارة: اعتمد سكان الحضارات على التجارة لتوفير السلع والموارد التي يحتاجونها ولا يستطيعون إنتاجها، كان من بين الموارد التي تمت المتاجرة بها: البهارات، والمعادن، والقماش، وعملت التجارة على زيادة ثروات المدن التي ضمت السلع التجارية، ومع نمو الحضارات، ازدادت حاجة سكانها للموارد؛ مما أدى لتطوير التجارة، ومثلت التجارة أيضًا حلقة وصل بين الحضارات المختلفة، وقوت سبل التواصل بينها والاستفادة من بعضها البعض.

المصادر الطبيعية: اهتمت الحضارات القديمة بالموارد الطبيعية، وتمّ جلبها عن طريق التجارة والتنقيب، واستمدت أهميتها باستخدامها في الصناعات التي حققت للحضارات الثروات الاقتصادية، وقد فرت المصادر الطبيعية المواد الخام لإنتاج السلع، واستخدمت أيضًا في صناعة المواد الغذائية والوقود، من الأمثلة على أهم المصادر الطبيعية: النفط، الفحم، المعادن، الحجر، الرمل، الهواء، التربة، الماء، التربة، ضوء الشمس، كما تعتبر الحيوانات، والطيور، والأسماك، والنباتات من ضمن الموارد الطبيعية.

العوامل الاجتماعية لقيام الحضا تشمل ما يلي:

التقسيم الطبقي (الطبقات الاجتماعية): تعتبر الطبقات الاجتماعية أساس قيام الحضارات المستقرة؛ حيثُ من دونها ستعم الفوضى المجتمعات وقد يؤدي ذلك لانهيارها، وينظم التقسيم

الطبقي دور كل فرد في المجتمع، ويحدد وظيفته؛ سواء أكان عاملاً في الميدان أو جنديًا في الجيش يدافع عن أراضي الحضارة وممتلكاتها، والافتقار إلى التقسيم الطبقي يؤدي بالحاكم ليصبح ديكتاتورًا يقتل كل من يعصي أوامره، ويؤدي أيضًا لتمرد العمال والعبيد ضد من يعملون لديهم، ولن يتمكن التجار والبائعون من بيع سلعهم.

الاستقرار الاجتماعي: اعتمدت الحضارات في وجودها على الأنظمة والقوانين؛ حيثُ احتاج البشر لها لتنظيم حياتهم ومنع انهيار المنظومة الأمنية في المجتمعات، واعتبرت الحكومات رأس الاستقرار الأمني في الحضارات، وتمثلت بأشكالٍ وألقابٍ مختلفة، مثل الملك، والفرعون، والكاهن، والديكتاتور.

الحكومة المنظمة: ازدادت أهمية الحكومة في الحضارات مع ازدياد أعداد السكان، وتولت الحكومات مهمة الحفاظ على النظام وسن القوانين وتطبيقها، بالشكل الذي يحفظ أمن المجتمعات داخليًا وخارجيًا، وتولت الحكومات مهام عديدة، منها الإشراف على الأعمال التجارية، وإدارة المدن وصيانتها، إلى جانب تنظيم سلوك الأفراد ومحاسبتهم، وحماية المواطنين وجمع الضرائب.

العوامل الدينية لقيام الحضارة تشمل ما يلي:

الوحدة الدينية: كان الدين أحد العوامل التي وحدت الحضارات؛ باعتبارهِ منظومة من المعتقدات والسلوكيات التي آمن بها سكان الحضارات للتعامل مع معنى الوجود، وأسّس الدين أرضية مشتركة بين الأفراد الذين يتشاركون في نفس المعتقدات، وعزز قيم الثقة والاحترام المتبادلين، مما انعكس إيجابًا على المجتمعات.

النفوذ الديني: ارتبطت السياسة بالدين قديمًا بشكلٍ وثيق، وكان القادة السياسيون يعملون أيضًا كقادةٍ دينيين، وفي حالاتٍ أخرى، شكل القادة الدينيون مصدر تأييد للقادة السياسيين، ودعموا سلطتهم ونفوذهم في الحضارات، وساعد التنظيم السياسي والديني على نشأة تسلسلات السلطة في المجتمعات، التي رسمت حدودًا بين الأفراد والمجموعات، وفي نفس الوقت الذي تولى فيه القادة السياسيون اتخاذ قراراتٍ ذاتٍ تأثيرٍ شاملٍ على المجتمعات، اكتسب الزعماء الدينيون مكانة خاصة باعتبار أنهم وحدهم الذين يقدرون على التواصل بين المجتمع والآلهة.

العوامل الفكرية لقيام الحضارة. تشمل ما يلي:

العمارة: وظفت الحضارات القديمة العمارة لتغطية الاحتياجات الأساسية واليومية لسكانها، وللتعبير عن معتقداتها، وتطلعات شعوبها، وتسلسلات المجتمع والسلطة فيها.

الفن: استخدم الفن قديمًا للتعبير عن توثيق ثقافة وقيم ومعتقدات الحضارات؛ حيثُ كان القليل من الناس وقتها يجيدون القراءة والكتابة، وكان الفن من أهم الوسائل البديلة لتسجيل الأحداث المهمة، ويعتبر الفن وسيلة للتعبير عن الإنجازات البشرية، وكان يوظف في الحضارات القديمة للعديد من الغايات، التي من أهمها: إرضاء الآلهة، وتخويف الأعداء، وإخضاع الناس، والتمييز بين الثقافات المختلفة، إضافة إلى استخدامهِ للغايات الاقتصادية والشخصية.

الكتابة: تعتبر الكتابة من أهم الابتكارات التي تميزت بها الحضارات عن بعضها البعض، لكن الغاية منها تشابهت؛ فقد استخدمها سكان الحضارات لتوثيق السجلات، خاصة ما يخص الضرائب وقيمتها، إلى جانب الأعمال التجارية، والمعرفة والأدب وأشكالهما.

عوامل قيام الحضارة

العوامل البيولوجية:

الحضارة مرحلة تتوسط عصرين من جليد فتيار الجليد قد يعاود الأرض في اي وقت قيغمرها من جديد بحيث يطمس منشأة الانسان بركام من ثلوج واحجار ويحصر المياة في نطاق جيد من سطح الأرض ووجود الزلأزل التي نبني حواضرنا في غفوتة وربما تحرك حركة خفيفة بكتفية فابتلعنا في جوفة غير ابة.

العوامل الجغرافية:

حرارة الأقطار الأستوائية وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لاتقع تحت الحصر، لاتهيئ للمدنية اسبابها فما يسود تلك الاقطار من خمول وامراض مبكرة وكذلك تتم تلك العملية في اشباع الجوع وعملية التناسل بحيث لاتذر للانسان شيئا من الجهد ينفقة في ميدان الفنون وجمال التفكير والمطر ايضا عامل ضروري لان الماء وسيلة الحياة وكذلك من الممكن ان تقضي علي الجفاف

مثل حضارة نينوي وحضارة بابل وقد تسرع الخطي نحو القوة والثراء مثل المدن في بريطانيا العظمي ، واذا كانة تربة الأقليم تجود بالطعام او المعادن ووجود الانهار وسائل للتبادل مع غيرهم من البلدان واذا كانت الامة فوق هذا كلة تقع علي الطرق الرئيسية للتجارة العالمية كما كانت الحال في أثنا وقرطاجنة وفلورنسا والبندقية ، اذن العوامل الجغرافية يستحيل ان تخلق المدنية خلقا الا أنها تستطيع ان تبتسم في وجهها وتهيئ سبل اذدهارها.

العوامل الاقتصادية: ظل الانسان في مرحلة الصيد البدائية واعتمد في وجودة علي ما عسي ان يصادفة من قنائص فأنة يستحيل أن يتحول من الهمجية الي المدنية تحولا تاما ، قد تكون قبيلة البدو علي درجة نادرة من الفتوة والذكاء ومن صفاتها الشجاعة والكرم والشمم ، لكن ذكائها بغير الحد الأدني من الثقافة الذي لابد منة ، حيثُ يذهب الي البحث عن موارد القوت ومخاطر الصيد ومقتضيات التجارة واول صورة تبدت فيها الثقافة هي الزراعة حيثُ الانسان لايجد لتمدنة فراغا الا اذا استقر في مكان يفلح تربتة ويخزن فية الزاد ليوم قد لايجد فية موردا لطعامة ووجود موردا محققا من طعام وماء ، حيثُ بدا الانسان يبني لنفسة الدور والمعابد والمدارس ويخترع الالات التي تعينة علي الأنتاج ويستأنس الكلب والحمار والخنزير ، ثم يسيطر علي نفسة اخر الامر فتعلم كيف يعمل في نظام واطراد ويحتفظ بحياتة امدا اطول ويزداد قدرة علي نقل تراث الأنسانية من علم واخلاق نقلا امينا.

العوامل الثقافية: ان الثقافة لترتبط بالزراعة وهو ماينتجة الريف من ثراء ونوابغ للعقول وكذلك تعمل الاخترعات وتعمل الصناعة في المدينة علي مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ وفي المدينة يتقابل التجار حيثُ يتبادلون السلع والافكار حيثُ تتلاقي طرق التجارة فينتر العقول ويرهف الذكاء وتستشار فية قوتة علي الخلق والابداع وكذلك في المدينة يستغني عن فئة من الناس فلا يطلب منهم صناعة الاشياء المادية ، فتراهم يتوفرون علي انتاج العلم والفلسفة والادب والفن ، نعم ان المدنية تبدا في كوخ الفلاح ، لاكنها لا تذدهر في المدن وليست تتوقف المدنية علي جنس دون جنس فقد تظهر في هذة القارة او تلك قد تنشأ الحضارة بسبب العرق او اللون

وقد تنهض مدنية في بكين او دلهي في ممفيس او بابل او لندن او بيرو او يوقطان ، فليس هو الجنس العظيم الذي يصنع المدنية بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب.

العوامل المادية: العوامل المادية لازمة لنشأة المدنية حيثُ لابد ان يسود الناس نظام سياسي مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف حدا يدنو بة من الفوضي كما كانت الحال في روما وفلورنسا ايام النهضة من وحدة لغوية الي حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الافكار ثم اياضا عن قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة او المسجد او المدرسة لان ذلك يرفع الاخلاق من مرحلة توازن فيها لبن نفع العمل الي مرحلة الاخلاص للعمل ذاتة ولذلك لابد من تربية لكي تنتقل الثقافة علي مر الأجيال فنورث الناشئة تراث القبيلة فنورثها نفع الحضارة ومعارفها واخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها سواء كان ذلك الثوريث عن طريق التقليد او التعليم او التلقين لا هذا التراث الا الاداة الاساسية التي تحول هؤلاء النشئ من مرحلة الحيوان الي طور الانسان.

العوامل الطبيعية: تتحكم العوامل الطبيعية تحكما واضحا في توزيع السكان وقد كانت العوامل الطبيعية تتحكم تحكما كاملا في هذا التوزيع في الماضي ، اما في الوقت الحاضر فقد برزت اهمية العوامل البشرية ، ولم يعد الانسان عبدا للطبيعة ، حيثُ تسيطر علية العوامل الطبيعية دون غيرها ، انما اصبح يلعب دورهاما في تعديل وتخفيف اثر هذة العوامل الطبيعية مثل المناخ وعوامل التضاريس وعوامل التربة وادارة الموارد الطبيعية.

العوامل البشرية: ان العوامل البشرية لها تأثير كبير في توزيع السكان بين المناطق المختلفة حيثُ ان لهذة العوامل الدور البارز اكثر من العوامل الطبيعية والبشرية ، مثل اتجاهات النمو السكاني والحرف السائدة والمواصلات والعامل السياسي وراس المال البشري والايدي العاملة.

تاريخ تطور الحضارات

عصور ما قبل التاريخ: الصيد في العصر الحجري القديم.. كانت المهارة التي استخرج بها اولئك الاجداد من البر والبحر طعاما كانت الاساس بالنسبة لمجتمعاتهم حيثُ كان يتنازعون

بأيدهم المجردة انتزاعا ما يستطيعون اكلة مما يبدية سطح الارض من اشياء وكنت تراهم يقلدون او يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه ويصنعون بأنفسهم الات من العاج والعظم والصخر ، وينسجون الشباك والمصائد والفخاخ من خيوط الحلفاء والليف ، ويصطنعون من الوسائل عددا لا يحصي باصطياد فريستهم من يابس او ماء ، لقد كانت الشباك طولها الف ذراع لا يستطيع استخدامها المائة رجل مجتمعين ، وبمثل هذا تطورت وسائل ادخار القوت جما الي جمب مع النظم السياسية ، وكان اتحاد الناس في تحصيلهم للقوت مما اعان علي قيام الدولة اذا كان يضع علي راسة غطاء يشبهه راس عجل البحر ثم يخفي نفسة بين الصخور ويصرخ بمقل صوت ذلك الضرب من الحيتان ، فتاتية عجول البحر ويطعنها بسنان رمحه ، لا يجد في ذلك ما يؤنبه علية ضميره ، لأنه يتم علي اوضاع يعرضاها القتال في صورته البدائية ، وكان من عادتهم كثير من القبائل ان يلقي سماكها مادة مخدرة في مجرئ الماء ليهون عليهم استجلاب السمك بعد تخديره فتسكر الاسماك وتطفو علي السطح مخمورة لا تحذر الخطر ، فيمسك منها الانسان البدائي ما اراد من الأسماك يلوك حيثُ كان الصيد عند الصائد والمصيد كلأيهما امرا تتعلق به الحياة او الموت ، ذلك لان الصيد لم يكن سبيلا الي طلب القوت وكفي بل كان ذلك حربا يراد بها الطمأنينة والسيادة ، حربا لو قرنت اليها كل ما عرفة التاريخ المدون من حروبه ، تألفت هذه الحروب بالقياس اليها بمثابة الغط اليسير ، وما يزال الأنسان في الغابة يقاتل في سبيل الحياة ، لانة علي الرغم من ان الحيوان هناك لا يكاد يهاجمه مختارا الا اذا اضطره الي ذلك الجوع الشديد او الخوف من الوقع فريسة لا يجد لنفسة مهرب به ، فليس في الغابة قوت يكفي الجميع ، واحيانا لا يظفر بطعامه الا المقاتل او الذي يستخدمه لنفسة حيوانا مقاتلا ، وها هي ذي متاحفنا تعرض امام ابصارنا بقايا تلك الحرب التي نشبت بين الانسان وسائر الانواع الحيوانية ، اذ تعرض امامنا المدي والهراوات والرماح والقسي وحبال الصيد والفخاخ والمصائد والسهام والمقاليع التي استطاع بها الانسان الاول ان يفرض سيادته علي الارض ، ويمهد السبيل امام خلف لا يعترف بالجميل ، ليحيا حياة امنة من كل حيوان الا الأنسان ، وحتي في يومنا هذا ، فكل ما نشب من حروب تستبعد العاجز عن الحياة لتبقي علي القادر حيثُ لم يكن الصيد والسماكة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادي ، بل كان وجهين من أوجه ولم يكن الانسان مبتكرا حين اصطنع الصيد

وسيلة لعيشة، ولو حصر الأنسان جهدة في نطاق الصيد لما كان اكثر من حيوان اكلا للحم ويضاف اللي قائمة اكلة الحيوان ، وانما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق ، الي مرحلة اكثر اطمئنانا واوثق اتصال واطرادا وهي مرحلة الرعي التي اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، اذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن. أدي ذلك كلة الي تكاثر الناس وازدادت الحياة استقرارا وثباتا واصبحت سيادته علي الأرض اكثر اطمئنانا ، حتي اذا غاب الزوج في رحلات صيده اخذت الزوجة تحفر الارض بحثا عن جذور تؤكل وتقطف الثمار والبندق من الشجر وتجمع العسل والفطر والحب والغلال التي تنبتها الطبيعة ولا تزال بعض القبائل في استراليا حتي يومنا هذا تحصد الغلال التي تنبت في الطبيعة فيجوز انه حين اخذ الانسان في جمع الحبوب النابتة بطبيعتها ، كانت تسقط منها حبات وهو في طريقة من مكان النبات الي حيثُ يقيم ، فنبهته اخيرا الي السر العظيم الكامن في نمو النبات فالقي الناس البذور في الأرض وتركوها تشق لنفسها طريقها الي الفضاء ، فكانوا يضعون الحب في حفارات يحفرونها بعصاة مدببة اذ هم سائرون عبر الحقول فكانت هذه العصاة او الحافرة ابسط ما عرفة الأنسان من ادوات زراعة الأرض ، فيأخذن في حفر الأرض بعصيهن ، وقلب التربة ووضع بذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد ، وبعد ذلك يمضين الي خط اخر من خطوط الحقل والمرحلة التي تلت ذلك في تقدم الفلاحة وادواتها مرحلة استعملت فيها الفأس في الحرث ، وذلك بان ركب الأنسان عظمة في طرف العصاة الحافرة ، وربط فيها قطعة اخري مستعرضة لتكون صالحة لضغطها بالقدم ، حيثُ تستخدم اداة لحرث الارض بالفأس حتي اذا ما استؤنس الحيوان وطرقت المعادن امكن استعمال ادوات اثقل فكبرت الفأس حتي اصبحا محراثا يضرب في الأرض فانكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة فغيرت سيرة الأنسان تغيرا كاملا ، فزرع انواعا من النباتات كانت تستعصي علية من قبل واستنبتت انواعا اخري للزرع واصلح من الانواع التي كان يزرعها قبل ذلك وادرك بذلك فن التحوط للمستقبل وادرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل ، حيثُ كشف عن بعض السبل التي تمكنه من حفظ اللحم بتدخينها وتلميحها وبتبريدها وكذلك حفظ الغلال من الامطار والرطوبة والحشرات واللصوص ، فكان يحتفظ الطعام في اشهر الجفاف وهكذا تبين علي مر الايام أن الزراعة يمكن ان تكون موردا للقوت اجود نوعا واثبت اطرادا من الصيد فلما

تحقق الانسان من نجاح عملية الزراعة خطي الي الأمام احدي الخطوات الثلاثة التي نقلته من الحيوانية الي المدنية وهي الكتابة واللغة والزراعة ولذلك ان الانسان بحرثة للأرض اضاف طريقة جديدة لاغتال الطعام حيثُ مزج هذه الصنوف بالفاكهة والثمر واللحم والسمك وكان طعامهم الرئيسي الغلال واللبن والخضر وكان طعامهم السمك وقنافذ البحر والضفادع البحرية والعناكب والديدان والعقارب والحشرات والنباتات والزواحف والطيور وتجفيف الحشرات في الشمس ويخزنها لتاكل في وليمة ، وتعاونت النار والزراعة علي تحرير الأنسان من اعتماده علي الصيد واخذ الأنسان يزداد اعتماده علي الغلال والخضر ويجعل
منها غذاءه الرئيسي.

العصر الحجري الحديث:

حدث في فترات مختلفة من القرن الاخير ان وجدث اكداس هائلة مما يرجح انه من فضلات ما قبل التاريخ ، وجدت في فرنسا وسردينيا والبرتغال واليابان ومنشوريا ثم وجدت فوق هذا كلة في الدانمرك حيثُ اطلق عليها (فضلات الملطخ)التي اصبحت تعرف بة امثال هذه الاكداس من اثار القديم وتتألف هذه الاكداس من قواقع خصوصا قواقع المحار وبلح البحر وحلزون البحر ومن عظام كثيرة من الحيوانات البرية والبحرية ومن الات واسلحة صنعت من العظام والقرن والحجر غير المصقول ومن بقايا ارضية مثل الفحم والرماد والخزف المكسور ، وهذه الأثار التي لأتأخذ العين بجمالها دلالة واضحة علي ثقافة تكونت في تاريخ يقع حول سنة 8000 قبل الميلاد وهو تاريخ أحدث من العصر الحجري القديم والوسيط لكنة كذلك لا يبلغ من الحداثة ان يكون من العصر الحجري الحديث لأنه لم يكن قد وصل بعد الي عصر استخدام الحجر الثقيل المصقول ولا نكاد نعلم شيئا عمن خلفوا لنا هذه الاثار ، سوي ان ذوقهم كان اصيلا الي حد ما ، ويمكن اعتبار فضلات المطبخ بالإضافة الي ثقافة (ماد زيل) في فرنسا وهو اقدم من عصر الحجري الوسيط وهو مرحلة انتقال بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، حيثُ وجدت الات من العظم والحجر المصقول الذي اصبح في رأي علماء الاثار علامة مميزة للعصر الحجري الحديث الذي ازدهر حوال 10000 الاف قبل الميلاد ، في اسيا وحوالي سنة 5000 الاف سنة في واروبا

وشبية بهذة الاثار ما تركة الجنس البشري العجيب الذي نسميه (بناة الجبال)من بقايا هائلة ضخمة في وديان المسيسبي وفروعه ولسنا ندري عن هذا الجنس من اجناس البشر حيثُ في هذة الجبال التي بنوها علي هيئة مذابح القربان وعلي اشكال ورسومات هندسية او علي هيئة حيوانات الطمطم ، ووجدت اشياء صنعوها من حجر وقواقع وعظام ومعابد ومعادن مطروقة مما يضع هؤلاء الناس في خاتمة العصر الحجري الحديث.

مرحلة الاستقرار الزراعي:

اننا نستطيع ان نقول ان التاريخ الأنسان كلة بمعني من معانيه يدور حولا انقلابين الانقلاب الذي حدث في العصر الحجري الحديث فنقل الانسان من الصيد الي الزراعة والانقلاب الذي حدث اخيرا فنقلة من الزراعة الي الصناعة ولن تجد فيما شهد الأنسان من ضروب الانتقال ما هو حقيقي اساسي كهذين العاملين وهو ما نقل الانسان القديم الي مرحلة الاستقرار النسبي في الحضارات حيثُ كان الانسان في العصور الحجرية الحديثة وظهور الزراعة كان يعتمد اعتمادا كليا علي القمح والذرة والحبوب والشعير والشوفان فضلا عن مائة وعشرين نوعا من الفاكهة وانواع كثيرة من البندق واستخدم انسان العصور الحجرية الحديثة استخدم المحاريث وهي اسنان كانت تصنع من الخشب فيدق جذع شجرة الي فرع بمسمار من حجر الصوان ووجدت نقوشا محفورا علي الصخر من العصر الحجري الحديث يدل علي صورة فلاح يسوق محرثا يشده ثوران وهذا يحددنا اختراعا جاء بمثابة بداية لعصر جديد من عصور التاريخ ، ان الأرض قبل ان تدخلها الزراعة كان في مستطاعها ان تهيء اسباب العيش لما يقرب من عشرين مليونا من الأنفس البشرية وحياة هئولاء العشرين مليونا كانت معرضة لموت سريع بسبب الصيد الحرب اما بعد الزراعة فبداء تكاثر الأنسان علي الارض سيادة مكينة لاشك فيها ، وفي الوقت نفسة كان اهل العصر الحجري الحديث يقيمون اساسا اخر من اسس الحضارة وهو استئناس الحيوان وتربيته ولاشك أن قد استغرق هذا العمل حينا طويلا من الدهر قد تكون بداية اسبق تاريخا من العصر الحجري الحديث فحب الأنسان بغريزته للاجتماع بغيرة ربما عاملا مساعدا علي اتصال الأنسان والحيوان واقدم العظام في اثار العصر الحجري الحديث حوال 8000 الاف قبل الميلاد هي عظام

الكلب ثم جاء بعد حوال 6000 الاف سنة قبل الميلاد الماعز والخروف والخنزير والثور واخيرا جاء الحصان الذي لم يكن عند اهل العصر الحجري القديم الا حيوانا يصطاد اذا حكمنا من الرسوم التي في الكهوف اما في العصر الحجري الحديث فقد استخدم الحصان في شتي الصور ليزيد للإنسان ثروة الأنسان وفراغة وقوته وهكذا اخذ الأنسان الذي بسط سيطرته علي الارض اخر الامر في الاكثار من موارد طعامه بتربية الحيوان بجانب صيده وكان انسان العصر الحجري الحديث يشرب لبن الابقار، وكذلك اخذ انسان هذا العصر يوسعون ويحسنون ألاتهم واسلحتهم حيثُ اكتشف في الكهوف مخلفاتهم بكرات من القطن ورافعات ومخازر وملاقط وفنس وسلالم وازاميل ومغازل ومناسج ومناحل ومناشير وأشاص السمك وقباقيب.

للانزلاق من الفلج وابر ومشابك صدر ودبابيس وكذلك استخدم انسان هذا العصر العجلة وهي مخترع اخر من مخترعات الانسان الأساسية ثم ها هنا فوق هذا كلة تري العجلة ، وهي مخترع اخر من مخترعات الأنسان الأساسية ، وضرورة متواضعة من ضرورات الصناعة والمدنية فهي في هذه المرحلة من العصر الحجري كانت قد تطورت الي قرص والي انواع اخري من العجلات ذوات الأقطار ، وكذلك استعملوا كل اصناف الحجر في هذه المرحلة حتي العصي منها كالحجر الزجاجي الأسود فطحونه وثقبوه وصقلوه واحتفرت الصوامات علي نطاق واسع فوجد في أحد محافر العصر الحجري الحديث في مدينة بردان في لندن ثمان حفارات من قرن الغزال ووجدت علي اسطحها بصمات العمال التي وضعوها منذ 10000 الاف سنة من السنين ، وفي بلجيكا كشف عن هيكل عظمي لعامل من عمال المناجم وفي العصر الحجري الحديث سقط علي شخص حجر فأراده ، حيثُ كشف عنة ولاتزال الحافرة من العجلات في قبضة يده فكم من الأف السنين قضاها الأنسان وهو يمزق احشاء الأرض يستخرج الأسس المعدنية التي قامت عليها المدنية فلما صنع الأنسان الأبر والدبابيس بدا ينسج حركته لضرورة الي صناعة الأبر والدبابيس ، ذلك أن الأنسان لم يعد يرضيه ان يدثر نفسة بفراء الحيوان وجلوده فنسج صوف خرافة والياف النبات اردية كانت هي اساس الثوب الذي يلبسه اسفل الجسم الذي كان يردسه انساس ذلك العصر وسائر الاصناف الخلابة التي تراها في الثياب عند الأنسان ثم صنع الناس صبغ استخرجوها اصنافا من اخلاط عصير النبات او مستخرجات الأرض ، وصبغوه بها الثياب لتكون علامة ترف

ينفرد بها الملوك ,والظاهر أن الأنسان قد لبث ألاف السنين يحفظ طعامه في أنية طبيعية كهذه الي جانب كؤوس القرع وجوز الهند وقواقع البحر ، ثم صنع لنفسة اقداحا ومخارف من الخشب أو الحجر كما صنع السلال والمقاطف من القش وقد صنع أواني من الطين المجفف وبه ابتدع مخترعا جديدا يعد من أعظم الصناعات التي عرفها البشر وهنا نجد العلامة الأخرى من كبري الصناعات الاولية وهي صناعة البناء فأنسان العصر الحجري الحديث الفينا بعض وسائل البناء مثل السلم الخشبي والبكرة والرافعة والمفصلة فكان هذا العصر الحجري الحديث وجود نجارين مهرة يربطون أعمدة الخشب الي اساس البناء بخوابير ثابتة من الخشب او يصلونها وهي موضوعا رأس لرأس ويزيدونها قوة بدق عوارض تتصلب معها علي الجوانب ، وكانت ارضية الغرفة من الطين وجدرانها من الغصون المجدولة مغطاة بطبقة من الطين والسقف من اللحاء والقش والغاب ثم بمعونة البكرة والعجلة استطاع الأنسان ان ينقل البناء من مكان الي مكان وكذلك اصبح النقل صناعة من الصناعات فصنعت الزوارق التي لابد وان تكون قد ملاءة البحيرات حركة ، ونقلت التجارة عبر الجبال والي القارات البعيدة واخذت أوربا تستورد من البلاد النائية احجارا نادرة كالعنبر والبشم والحجر الزجاجي الأسود مما يدل علي ما كان بين جماعات البشر قبل التاريخ من اتصال ثقافي ، ولو استثنينا الخزف وجدت ان العصر الحجري الحديث لم يخلف لنا فنا نستطيع مقارنته الي ما كان عند انسان العصر الحجري القديم من تصوير وصناعة التماثيل وهذا يبين مشاهد الحياة في العصر الحجري الحديث من انجلترا الي الصين تري اكواما مستديرة من الحجر او اعمدة قائمة او اثار ضخمة من البناء لانعرف الغاية من بنائها والراجح اننا لن نعرف معني هذه الأثار البنائية او وظائفها ربما كانت بقايا مذابح للقرابين او معابد ، ذلك لان انسان ذلك العصر لابد وان كانت له ديانات واساطير يصور بها الشمس كل يوم من مأساة ونصر وما تصيب التربة من موت وبعث كما يصور بها تأثير القمر علي الأرض ، ويجوز تركيب الأحجار في هذه الأبنية لاعتبارات فلكية ويدل علي معرفتهم للتقويم وكان الناس في ذلك العصر ايضا لهم المعرفة العلمية لان بعض الجماجم من العصر العصر الحجري الحديث وجدت الكتب العلمية ،ظ ووجود بعض الهياكل العظمية فيها اعضاء يظهر فيها اعضاء يظهر انها كسرت ثم جبرت ، ليس في وسعنا ان نقدر ما أداة الأنسان فيما قبل التاريخ تقديرا تاما لأننا من جهة لا ينبغي ان ننساق

وراء الخيال في تصوير حيات الامسان الحجري الحديث وراء الخيال في تصوير حياتهم بحيث يجاوز ما تبرره الشواهد لكننا قد نشك من جهة اخري أن الدهر قد محا اثارا لو بقيت لضيقت مسافة الخلف بين الأنسان الاول والانسان الحديث ومع ذلك فما قد بقي لنا من أدلة علي خطوات التقدم التي خطاها الأنسان العصور الحجرية يكفي وحدة لتقديره فحسبنا ما تم في العصر الحجري الحديث من صناعة ألأت واكتشاف النار وتقدم الفنون ، واستخدام الفأس في الزراعة وتربية الحيوان ونسج الملابس واستخدام الخزف في التزين واستخدام الأحجار في البناء ونقل وطب وسيادة الأنسان علي الأرض سيادة لم يعد منازعا فيها ، والتوسع في عمران ألأرض ، وهكذا وضعت للمدنية كل أساسها ، كل شيء قد تم أعداده للمديات التاريخية وظهور الكتاب في الدولة فهيأ للإنسان سبيلا لتسجيل أفكاره وأعماله بحيث يمكن نقلها كاملة امنة من جيل الي جيل تبدأ له المدن.

العصور التاريخية:

ظهور المعادن: كان النحاس اول معدن يلين لاستخدام الأنسان فيما نعلم ، نجدة في مسكن من مساكن البحيرة عند ويتهاذون في سويسرة ويرجع ذلك الي سنة 6000 الأف قبل الميلاد ونجد استخدام المعادن ايضا في أرض الجزيرة بين نهر دجلة والفرات من عهد ما قبل التاريخ ويرجع استخدام المعادن حسب اتفاق المؤرخون الي سنة 4500 قبل الميلاد ثم نجد المعادن في مصر ويرجع عهدة الي سنة 4000 قبل الميلاد ونجدة كذلك في أثار اور في سنة3100 قبل الميلاد تقريبا ، وفي اثار بناة الجبال في أمريكا الشمالية التي لا ترجع الي عصر لا نستطيع تحديده وليست تقع بداية عصر المعادن عند تاريخ اكتشافها ، بل يبدا ذلك العصر بتحوير المعادن بسبب النار والطرق بحيث تلائم غايات الأنسان ويعتقد علماء المعادن ان اول استخدام للنحاس من مناجمه الحجرية جاء بفعل المصادفة حين اذابت نار اوقدها الناس ليستدفئا نحاسا كان لاصقا بالأحجار التي أحاطوا بها النار ، ولقد لوحظت امثال هذه المصادفة مرارا في اجتماعات البدائيين حول نارهم في مثل عصرنا هذا ، ومن الجائز ان تكون هذه الحادثة العابرة هي التي أدت للإنسان في نهاية الأمر بعد تكرارها مرات عديدة ذلك الانسان الذي لبث امدا طويلا ليساوره القلق في

استعمال الحجر الاصم الصليب ان يجعل من هذه المادة المرنة عنصرا يتخذ منة الآتة وأسلحته لأنها ايسر من الحجر صياغة وادوم بقاء، والاغلب ان يكون المعدن قد استعمل بادئ ذي بدء بالصورة التي قدمته عليها يد الطبيعة وانها لفيها سخاء وبها اهمال في ان واحد فكان نقيا حينا مشوبا في معظم الأحيان ثم حدث بعد ذلك بزمن طويل وربما كان ذلك في سنة 3500 قبل الميلاد في المنطقة التي تعرف بالطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، ان وقع الناس علي فن صهر المعادن واستخراجها من مناجمها ، ثم بداؤها في صبها حوالي نحو سنة 1500 قبل الميلاد فكانوا يصبون النحاس المصهور في اناء من الطين أو الرمل ثم يتركونه يبرد علي صورة يريدونها مثل راس الرمح او الفأس فلما ان كشف الأنسان عن هذه العملية في النحاس استخدمها في مجموعة متنوعة من المعادن الأخرى وبهذا توفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع أن يبني أعظم ما يعرف من ضروب الصناعة وتهيأ له الطريق الي غزو ألأرض والبحر والهواء ومن الجائز ان تكون كثرة النحاس في شرقي البحر الابيض المتوسط هي التي سببت قيام ثقافات جديدة قوية في الألف الرابع قبل الميلاد في عيلام ومآبين النهرين ومصر ثم امتدت الي باقي الحضارات فبدلها من حال الي حال، غير أن النحاس وحدة لين فهو علي الرغم من شدة صلاحيته للتشكيل مما ينفع في تحقيق طائفة من اغراضنا الا أنه اضعف من ان يحتمل مهام السلم والحرب التي تتطلب معدنا اقوي لهذا كان لابد من عنصر أخر يضاف الي النحاس ليشد من صلابته رغم ان الطبيعة قد اشارت الي الانسان بما عسي ان يضيفه الي النحاس لهذه الدرجة من مواد كثيرة الأنواع بل ان الطبيعة كثيرا ما قدمت للإنسان نحاسا تم بالفعل خلطة واشتدت صلابته بما فيه من قصدير وزنك مكونة بذلك برونزا طبيعيا او نحاسا اصفر علي الرغم من هذه المعونة الطبيعية فظل الانسان قرونا قبل ان يبدا في معرفة خلط النحاس مع الزك والقصدير وهي خلط معدن بمعدن اخر مقصدا للحصول علي مركبات اصلح لأغراضه وعلي كل حال فهذا الكشف ، قد اهتدي الية الأنسان منذ حوال خمسة الاف سنة قبل الميلاد لأننا وجدنا البرونز بين الأثار الكبريتية التي ترجع الي سنة 3000 قبل الميلاد وفي الأثار المصرية ترجع الي سنة 2800 قبل الميلاد وفي ثالث مدن طروادة الي سنة 2000 قبل الميلاد لان هذا المعدن قد ظهر لشعوب مختلفة في عصور مختلفة اضف الي ذلك ان بعض الثقافات الإنسانية قد عبر مرحلة البرونز لم يخطها ، بل وثب

رأسا من عصر الحجر الي عصر الحديد كما هي الحال في ثقافة فنلندة وشعوب روسيا وبولونيا وافريقيا الوسطي والهند وشمال امريكا واستراليا واليابان ، بل ان الثقافات التي ظهرت فيها مرحلة البرونز لم يحتل فيها هذا المعدن الا مكانة ثانوية باعتباره ترفا يتمتع به الكهنة وعلية الناس والملوك علي حين ظل غمار الشعب مرغما علي الوقوف عند مرحلة الحجر لا يجاوزها ، وحتي عبارتا عصور العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث من استخدام المعادن وخاصة النحاس والبرونز ولئن كان البرونز قويا شديد الاحتمال الا ان النحاس والقصدير الازمين لصناعته لم يكون من الكثرة في الكمية او في اماكن وجودهما بحيث يجد الأنسان حاجته من اجواد انواع النحاس والبرونز صنفا لشئون الصناعة والحرب ، فكان لابد للحديد ان يظهر عاجلا او اجلا وأنه لمن متناقضات التاريخ الأظهر الحديد الا بعد ان ظهر النحاس والبرونز ، وربما بدا الناس استخدام الحديد بصناعة الأسلحة من حديد الشهب ، ويجوز ان يكون الناس في تلك الفترة علي ذلك بأذبة المعدن من منجمة بوساطة النار ثم طرقوه بحديد مشغول ولقد وجدنا في المقابر المصرية قبل عصر الأسرات المالكة وتذكر النقوش البابلية الحديد علي أنه سلعة نادرة ثمينة في عصر دويلة بابل والمشرع الملك حمورابي وذلك في عام 2100 قبل الميلاد ووجود مصنع ومسبك للحديد يرجع عمرة الي4000 الأف عام وفي رود يسيا الشمالية ، كما كان يصنع الحديد في جنوب أفريقيا فهو ليس وليد العصور الحديثة واقدم حديد وجد في مجموعة من المدي وجدت في فلسطين بسنة 1350 قبل الميلاد ثم ظهر الحديد بعد ذلك بقرن في مصر في عهد الملك العظيم رمسيس الثاني ، وفي حوالي 1150 ظهر في مدن بحراجة في اليونان واما في غرب اوربا فقد ظهر أول ما ظهر في هو لستات بالنمسا حوالي 900 قبل الميلاد كما ظهر في صناعة مدينة (لاتين) في سويسرا حوالي سنة 500 قبل الميلاد وقد عرفته الهند حين دخل الاسكندر وعرفته أمريكا علي يد كولمبس ، وبهذه السرعة الوئيدة الخطي ، طفق الحديد قرنا بعد قرن يطوف بالعالم ليغزوه.

اكتشاف الكتابة:

لكن اوسع خطوة خطاها الأنسان في انتقاله الي المدنية هي الكتابة ففي قطع من الخزف هبطت الينا من العصر الحجري الثاني ، خطوط مرسومة بالألوان فسرها كثير من الباحثين علي أنها

رموز ، لكن من الجائز ان تكون الكتابة بمعناها الواسع الذي يدل علي رسوم تعبر عن افكار قد بدأت بعلامات مطبوعة بالمسامير علي الطين وهي الكتابة المسمارية التي ظهرت في حضارة سومر في العراق ، وكذلك اقدم كتابة وهي الكتابة الهيروغليفية التي ظهرت في حضارات مصر القديمة ، وهي توحي من صور للطيور وتم استخدام الغلال في الكتابة التصويرية في مصر القديمة وكذلك الزخارف الغالية الهندسية الشكل الاشكال في حضارة السومريين بالعراق وكذلك الكتابة المسمارية التي اتت من سومر فهي رسومات لخطوط مستقيمة علي شكل مسامير ، وظهرت تلك الكتابة عام 3600 قبل الميلاد ، وهي صورة مختلفة من الرموز والرسوم المصورة او المطبوعة علي الخزف البدائي في الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين ، اذا فالكتابة لها شان شان النحت والتصوير حيثُ بدأت ضروب النقش والرسم ، وبذلك تكون الطينة نفسها استحالت في يد الخزاف انية وفي يد النحات تماثيل وذلك هيأت للكاتب مادته التي يخط عليها كتابته وطريق التطور في الكتابة المسمارية في بلاد ما بين النهرين.

الرموز التصويرية:

واقدم الرموز التصويرية الموجودة لدينا هي تلك التي وجدها العالم (فلندرز بتري)علي قطع الفخار وانيته وعلي قطع من الحجر مما كشف عنة في مقابر ما قبل التاريخ في مصر واسبانيا والشرق الأدنى ولقد حدد عمرها بسخانه المعروف في تقدير الأعمار بسبعة الاف عام وهذه الرموز الكتابية التي وجدت في حوض البحر الابيض المتوسط ، تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز معظمها متشابه في جميع الأرجاء مما يدل علي وجود علامات تجارية قامت بين طرفي البحر الأبيض المتوسط في عهد يرجع في التاريخ الي 5000 الاف عام قبل الميلاد ، ولم تكن هذه الرسوم صورا ، بل معظمها علامات تجارية علامات تدل علي الكمية والملكية او غير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري كان هذا ألأصل المتواضع مما يؤذي الطبقة الوسطي من الأغنياء ، فان لهم ما يعزيهم في أن الادب قد اشتق أصوله من فواتير الحساب ومن شحنات المراكب ولم تكن العلامات حروفا لان العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة او فكرة ومع ذلك فكان معظمها ، كان شبيه الشبة لأحرف الهجاء الفينيقية وان مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت

شئيا فشئيا في العصور الأولي مع التبادل التجاري بين مصر وبلاد الشام الحضارة الفينيقية في سوريا والحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد النهرين فكانت الرموز والاشكال مهما للتبادل التجاري.

الرسم والتصوير:

ظهر فرعا جديد من الكتابة وهو الرسم والتصوير وكان يعبر بالصور عن فكر متصل ولاتزال الصخور تحمل اثارا من الصور الغليظة التي استخدمها هنود امريكا في روايتهم لقصة عبورهم هذه البحيرة الجبارة روها للخلف والزملاء رواية يعبرون فيها عن زهوهم فيما صنعوا كذلك يعتبر هذا تطورا نقل الرسم الي الكتابة في ارجاء البحر الابيض المتوسط عند نهاية العصر الحجري الحديث ويقينا انه ما جاءت سنة 3600 قبل الميلاد وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل في حضارة سومر في بلاد العراق ، ومصر قد طورت مجموعة من الصور التي يعبرون عنها بأفكارهم واطلقوا عليها الكتابة الهيروغليفية لان معظم من قام بكتابتها ورموزها هم الكهنة وظهرت مجموعة أخري من هذه الصور في جزيرة كريت حول سنة 2500 سنة قبل الميلاد وكانت الكتابة الهيروغليفية الي مجموعة من الرموز والمقاطع وكل مقطع ما فيه من اصوات وبهذا اصبحت حروفا وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد في التاريخ الي سنة 3000 قبل الميلادي مصر، وأما في كريت فقد ظهرت الرسومات حول سنة 1600 قبل الميلاد وكذلك الفنيقين لم يخلقوا احرف الهجاء ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء فقد اخذو الكتابة والرسومات والتصوير من حضارة مصر وجزيرة كريت ، فالظاهر ان الكتابة من نتائج التجارة وهي احدي وسائل التجارة المسهلة لأمورها فها هنا ايضا تري الثقافة كم هي مدينة للتجارة ذلك لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية ، حيثُ اتحدت الطائفتان الدينية والدنيوية وهما طائفتان متنازعتان اتحدتا لتخرج لنا اعظم ما اخترعتها المدنية من مخترعاتها منذ عرف الأنسان الكلام ، نستطيع ان نقول ان تطور الكتابة هو الذي كان يخلق الحضارة خلقا لان الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها كما كانت وسيلة لازدياد العلم ، وازدهار الأدب وانتشار السلام ، والنظام بين القبائل المتنافرة لكنها

متصلة علي تنافرها لان استخدام لغة واحدة اخضعها جميعا لدولة واحدة ، ان بداية ظهور الكتابة هي الحد الذي يعين بداية التاريخ تلك البداية التي يتراجع عهدها كلما اتسعت معارف الأنسان بأثار الأولين.

مهد المدنية:

انه من المناسب ان نختم هذا الفصل الذي ملأناه بأسئلة لا يمكن الجواب عنها ، بهذا السؤال اين بدأت المدنية ؟ وهو كذلك سؤال يعز علي الجواب فلو اخذنا بما يقوله الجيولوجيون الذين يعنون في أبحاثهم عما قبل التاريخ بضباب اين منة شطحات الميتا فيزيقيا لكانت المناطق القاحلة في اسيا الوسطي ذات ماض فيه ماء وفية اعتدال في حرارة الجو وفية ما يزهر من بحيرات عظيمة وانهار كثيرة ثم تراجعت عنها اخر الموجات الجليدية فجفت شيئا فشيأ حتي لم يعد ما يسقط علي ذلك الاقليم من مطر كافيا لقيام المدن والدول فأخذت المدائن تقفر من أهلها واحدة فأثر واحدة حين هرب الناس شيئا فشيئا غربا وشمالا وجنوبا وشرقا ، وراء الماء ومثال علي ذلك حيت اضطر الناس من اهل تركستان الغربية سنة 1868 ما يقرب من ثمانين الف نسمة أن يهاجروا لان الرمال الزاحفة قد غمرت المياه من ألأرض وايضا اعتمد الانسان القديم علي الزراعة والاستقرار فأعتمد علي زراعة القمح والشعير والذرة واستخدم الناس استئناس الحيوان وزخرفة الفخار بزخارف بها من التشابه في قواعد الرسم ما يدل علي انهم كانوا قد جمعوا تقاليد في الفنون لعدة قرون عديدة والظاهر أن ثقافة وحضارة تركستان سنة 5000 الاف سنة قبل الميلاد كانت قد جمعت منن الزمن اشواطا ، وربما كان بينهم اذاك مؤرخون يضربون في اعماق مديهم للبحث عن أصول المدنية وفلاسفة اخذوا يندبون بعبارات فصيحة ما أصاب الجنس البشري اذاك من التدهور كان يؤدي به الي الموت.

هجـــرة الناس:

ولو اهتدينا بالخيال حيثُ يعز علينا العلم الصحيح لقلنا انه من هذا المراكز ، هاجر الناس يلوذون فرارا مما أصاب أرضهم من جفاف في المطر وجفاف في تربة ألأرض فساروا في اتجاهات ثلاثة

يحملون ما لهم من فن ومدنية ، بلغت فنونهم أرض الصين ومنشوريا وأمريكا الشمالية من جهت الشرق ، وبلغت شمال الهند في سيرها الي الجنوب ، ثم ادركت في طريقها نحو الغرب بلاد (عيلام) وسومر ومصر ، وايطاليا واسبانيا ، وقد وجدت في وهي في بلاد عيلام القديمة (فارس الحديثة وايران حاليا) اثار تشبه في نمطها اثار (اناو) شبحية كان يبرر للخيال الذي يعيد بقوته صورة الماضي ، ان يفترض انه كان يوجد علاقات بين حضارة سوزيا واناو صلات ثقافية في فجر المدية في حول سنة 4000 سنة قبل الميلاد وكذلك يوجد شبة في هذا في الفنون والمنتجات القديمة يوحي بوجود علاقة كهذه بين بلاد ما بين النهرين ومصر فيما قبل التاريخ ، وبوجود اتصال ثقافي يدل علي اتصال مجري المدنية بين العراق ومصر القديمة ، ويستحيل علينا ان نعلم علم اليقين أي هذه الثقافات جاء أولا ، وليس ذلك بكبير الأهمية لأنها جميعا كانت في جوهرها افراد اسرة واحدة ونمط واحد ، فلو كان لنا ان نخالف الرائ الشائع الذي اكتسب احتراما.

عمر المدنيات:

علي ان عمر هذه المدنيات ظهرت أولا في اسيا حضارة بلاد النهرين القديمة ، اذ قارنا بين المدنيات في أفريقيا وأروبا يمتد طولا كلما ازداد علمنا بتلك المدنيات عمرا وعمقا فمجاريف علماء الأثار بعد أن قضت عمرا وقرنا كاملا ، في بحثها المظفر علي ضفاف النيل ، انتقلت في سيرها عبر السويس الي جزيرة العرب والي فلسطين وبين النهرين وفارس وهي كلما خطت في طريقها هذا ازددنا ترجيحا مع تزايد المعرفة التي تعود علينا من ابحاثنا ، ان الدلتا الخصيبة للأنهار التي تجري في أرض الجزيرة (ما بين النهرين)هي التي شهدت أول مناظر المسرحية التاريخية للمدنية الإنسانية.

لماذا تسقط الحضارات ..؟

كيف يُمكن لحضارات وامبراطوريات عظيمة أن تختفي من الوجود وأن لا يبقى منها سوى أحجار مطمورة تحت الأرض بُنيت على أنقاضها حضارات أخرى؟ أحجار لو نطقت بما فيها، لحكت لنا حكايات شعوب خَلت وحضاراتٍ سقطت وجُمعت بقاياها في المتاحف والقصور.

لفهم عوامل السقوط ، لا بدّ من التأمل في عوامل الازدهار.. لأنه إذا جفّت منابع التطوّر انهارت الأُمم. وفي هذا، يُمكن القول أن عوامل ازدهار أي حضارة وبقاءها على قيد الحياة يتطلب وجود مجموعة من العوامل هي: العامل الديمغرافي (السكان) ،الفائض في الغذاء، حكومة مركزية قوية، الوحدة الدينية والثقافة ، تقسيم العمل ، وشكل السياسة الضريبية المفروضة (السياسة الاقتصادية).

يرى المراقبون أن هذه العوامل ترتبط فيما بينها إلى درجة الاندماج، حيثُ أن أي خلل يُصيب إحداها قد يُسبب خللاً في العوامل الأخرى، وأي هبوط في هذا العامل سيؤدي بالتالي إلى هبوط العوامل الأُخرى، تماماً كما النار التي لا يُمكن إشعالها إلا بوجود العناصر التي تؤدي إلى الاشتعال وهي: الأوكسجين والوقود .. فإذا نقص عنصر من هذين، تتحوّل الشعلة إلى ظلام وتُصبح رماداً في الهواء.

وهذا هو حال الحضارات التي إذا فقدت عنصر من عناصر التطور، تُصبح رُكاماً، ويغدو قادتها مُجرّد تماثيل لا يهابها سوى المؤرخين ونُخبة من عُلماء الآثار أو طفل صغير دخل المتحف مُرتعشاً من أمجاد ذاك الملك وعظمة تلك البلاد التي قرأ عنها في كتاب التاريخ المُصوّر.

لا شكّ أن عنصر الشعب والظروف السكانية أو ما يعرف في العلاقات الدولية بالعامل الديمغرافي يشكّل عاملاً رئيساً من عوامل القوّة والنفوذ والتوسع والعظمة السياسية على مرّ العصور. وخلال الحروب، استطاعت الإمبراطوريات الضخمة أن تُجنّد أعداداً ضخمة من السكّان لتدفعهم إلى ساحات القتال ولاستعمار مناطق جديدة كنقطة قوة من الناحية الديمغرافية.

فما هو إذن سرّ سقوط هذا العامل في تاريخ الحضارات ؟

يرى المراقبون أن الاحتمالات البيئية والصحية ساهمت بشكل فاعل في زعزعة مُلك العديد من الحضارات كالأمراض الوبائية والاضطرابات الجيولوجية، والتي ساهمت في اندثار السُكّان، وفي إسقاط عامل من عوامل الازدهار. ومن هذه الحضارات : حضارة المايا الذي امتد حُكمها (من 2000 ق.م إلى 250 ميلادياً).. والتي تسببّت الأمراض الوبائية والجفاف الحاد في انهيارها بالإضافة إلى حروب الإبادة الجماعية ، وما نجم عنها من إصابات وأوبئة قضت على القوّة الديمغرافية لا سيّما بعد الغزو الإسباني لهم في القرن 16.

في هذا المجال أيضاً، يعتقد علماء الآثار أن الجفاف الذي ضرب بلاد ما بين النهرين لمدّة 300 عام كان عاملاً رئيساً من عوامل سقوط الإمبراطورية الأكدية (السومرية) التي تمركزت في مدينة أكد (على الصفة الغربية لنهر الفرات)، وكان هذا السبب أيضاً عاملاً قوياً في سقوط حضارة كمبوديا المعروفة سابقا باسم كمبيو يشيا أو ما عُرف بالحضارة الخميرية.

انهيارات أخرى قد يبدو من الصعب تصنيفها تحت عامل دون آخر، لكنها أظهرت غلبة لإحدى العوامل، وهذا ما يُمكن استنتاجه من سقوط الحضارة الرومانية التي انهارت بسبب الاستنزاف الخارجي نتيجة سياسة التوسّع، بالتزامن مع التقهقر الداخلي، وهذا ما يُمكن تفسيره بعدم وجود حكومة مركزية قوّية وبسياسة ضرائبية جائرة، كان قوامها: الغزو والعبودية وسحق الموارد البشرية لتسريع عجلة النمو الاقتصادي ولتعزيز البنية التحتية وتمددّ النفوذ على حساب النواة المركزية.

وقد بدأ العد العكسي بانهيار الامبراطورية الرومانية في عام 235 م الذي اتسم بالاضطرابات السياسية وشكلت الهجمات الخارجية من القبائل المستعمرة.، الضربة القاضية للرومان.

وماذا عن حضارة "أناسا زي" التي تأسست في أميركا الشمالية في سنة 700 قبل الميلاد وعاش في كنفها الهنود الحمر؟ لقد شكّلت الأناسا نزي" نموذجاً آخراً لانهيار الحضارات، حيثُ يقول المؤرخون أن من أسباب سقوط هذه الحضارة "الانقسام الديني"، حيثُ انقسم شعوب " أناسا زي" بين من اتبّع الانجيل الجديد" وهاجر جنوباً وبين من بقي على ديانته.. ومنهم من توفيّ بسبب البرد القارس الذي ضرب تلك المنطقة عام 900 م. ولم تقيهم بيوتهم الغريبة من الانتصار على الطبيعة.

وكذلك حضارات مثل سبأ، وادي السند، و شبه القارة الهندية ، الحضارة الفرعونية، عيلام، الشعوب الفينيقية، الحضارة الفارسية الإغريقية، التسروكان، الأولمبية، عشرات من الحضارات القديمة التي ما زال يختلف عُلماء الأنثروبولوجيا في السبب الأول لسقوطها. لكن تعددت التفسيرات والسقوط المُدّوي واحد.. فمن يتفكّر في ذلك، ويسأل اليوم: هل نحنُ في وقت باتت فيه " الإنسانية" هي الحضارة الوحيدة الصامدة بوجه الأوبئة والتحديات الإيكولوجية – البيئية والحروب والانقسامات الدينية، وبوجه السياسات الاقتصادية الجائرة؟

هل ستتمكّن شعوب هذه الحضارة اليوم من موظفين أُممين، وعُلماء في جميع المجالات، وأفراد ما يزالوا يؤمنون بالإنسانية، من إنقاذ هذه الحضارة من السقوط؟.

ومن امثلة السقوط مثل سقوط أعظم امبراطورية في التاريخ وهي الإمبراطورية الرومانية الغربية التي كانت تحتل العالم القديم في ذلك الوقت فما إذن أسباب السقوط وعوامل الانهيار هذا ما سنتكلم عنة في السطور القادمة.

امثلة علي سقوط الدول والامبراطوريات العظيمة:

نظريات في انحطاط الامبراطورية الرومانية في الغرب وسقوطها .. نحن نتكلم الأن في صدد تطور الحضارات التاريخية وسقوطها وذلك لأن التاريخ لا يعرف دول وحضارات وإمبراطوريات شاسعة غزت العالم كلة مثل الحضارة الرومانية العظيمة والحضارة المصرية القديمة والحضارة الإسلامية العظيمة والكبيرة التي غزت العالم كلة في اقل من 100 عام وكذلك الحضارات الأخرى كالحضارة القرطاجية والحضارة اليونانية وحضارة بلاد الرافدين وكذلك الحضارات التي وجدت في أمريكا الجنوبية وكغيرها من الحضارات الكبيرة والصغيرة في مشارق الأرض ومغاربها فنحن إذ نتكلم عن الحضارات والدول في التاريخ فلابد وان نتحدث ونقول أن الحضارات كما قامت كبيرة وعظيمة لأبد وحتما أن تسقط في فجوة وبؤرة التاريخ حتي تسقط وتنهار ومن أمثلة ذلك الحضارة والإمبراطورية الرومانية العظيمة فهذا خير مثال علي أسباب سقوط اعظم حضارة في التاريخ القديم.

لماذا سقطت الامبراطورية الرومانية في الغرب ومتى ؟ يختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في هذا الصدد . فهم مختلفون في الاسباب وعللها . ومن الطريف حقا تراهم يتساءلون عن تاريخ السقوط ايضاً . اهو في سنة 410م ام في سنة 455م او في سنة 476م او لا يمكن اعتبار سنة 800م خاتمة المطاف ؟ لذا فهناك نظريات متعددة متنافرة عالجت الموضوع دينيا ودنيوياً . فأقطاب المسيحية والوثنية نسبوا سقوط روما من عيانها الى ارادة السماء . أن رائد الفريق الاول هو القديس أوغسطينوس 354-430 st Augustin الذي اكد بأن سقوط روما – بابل الثانية عبارة عن مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة حيثُ مصير الانسانية , انها يد الله المرشدة

للحوادث الكونية وتوجيهها ولا مفر للبشرية من اتباع الارادة الالهية والانصياع لها , وما التاريخ الا مسيرة البشرية نحو دار الخلود . وقد ضمن القديس اوغسطين اراءه في هذا الشأن في كتابة مدينة الله The city of god, والذي قصد به الدفاع عن الدين المسيحي ضد التهم التي نسبت سقوط روما بيد الله الاريك Alaric زعيم القوط الغربيين سنة 410 الى تعاليم المسيحية ولنقمة الالهة الوثنية لترك الدولة عبادتها ومن أشد المؤرخين الوثنيين في القرن الخامس الذين وجهوا التهم الى المسيحية وتحميلها المسؤولية سقوط روما هو المؤرخ زوزيموس zosimus في كتابة (التاريخ الجديد) ارخ فيه الحوادث الرومانية الى سنة 410 واشار بصراحة الى ان المسيحية من الاسباب الهامة في تردي الاحوال في الامبراطورية ويحمل الامبراطور قسطنطين الكبير المسؤولية الاولى وان سقوط الامبراطورية في الغرب نتيجة لنقمة الالهة الوثنية .

النظريات الدنيوية:

هذا وقد ذهبت النظريات الدنيوية ؛ مذاهب شتى . ومن الاوائل في هذا المضمار أميانوس مارسيلينوس ammianus marcellinus المولود عام 330 في انطاكيا . دون لتاريخ الروماني ابتداء من حكم الامبراطور نرفا nerva الى مقتل الامبراطور فالنز سنة 378 ومع كونه وثنيا فقد نسب الكوارث التي احاقت بالرومان الى ضعف الوازع الخلقي ويشير الاستاذ السورث هنتكتون في مقالة له ان انحطاط الامبراطورية الرومانية في الغرب يتعامد مع فترات الجفاف التي اصابت العالم . وقد سجلت إحصائيات في فترة 200م – 400م نقصا متزايدا في نسبة هطول الامطار . ادى الى الجفاف والمجاعات والى تحركات البرابرة وطغيانهم على الامبراطورية في الغرب ، ويرى الاستاذ سيمخوفج (simkhovitch) حيثُ انهاك التربة في ايطاليا والولايات التابعة لها حولها الى مراع ونقول لو سأل المرؤ فلاحا أنداك ما هو المربح بالنسبة له لكان جوابه المراعي وان اخر شيء يفكر به الزراعة . ومع ذلك فان المراعي نفسها اخذت بالتحول الى اراضي جرداء في ايطاليا . كما ان اهمال السلطات لمشاريع الري ادى الى تفاقم خطر المستنقعات التي اصبحت بؤرا للملاريا التي حصدت ارواحا كثيرة من الفلاحين . وعليه في الانهيار الزراعي قرر مصير الامبراطورية في الغرب . ويعترض المؤرخ بينز

baynes على ذلك التفسير الجغرافي ويعتقد ان الدمار الزراعي لم يشمل كافة الامبراطورية فهنالك بلاد الغال حيثُ بقيت زراعتها مزدهرة حتى القرن الخامس وكذلك مصر . وان التأخر الزراعي في ايطاليا يعود بالدرجة الاولى الى عدم اشراف المالكين على مزارعهم الكبرى اشرافا مباشرا . لذا فقد تركت الاقطاعيات الكبرى في ايطاليا والمسماة لاتيفونديا latifondia لادارة الوكلاء نيابة عن النبلاء الغائبين في المدن . ولم يكن لهؤلاء الوكلاء ذلك الحرص على رفع المستوى الزراعي .

الانـهيار الاقتصادي:

اما الاستاذ اندري بيانويل A-piganiol فيورد جملة عوامل ادت الى الانـهيار الاقتصادي وفي مقدمتها تدهور المؤسسة للعبيد تلك المؤسسة التي التهمت الرجال كالتهام كفن صهر الحديد للفحم الحجري. وقد كان من الضروري المحافظة على استمرار معين للعبيد علي الدوام للاقتصاد الروماني . غير ان منهل العبيد اخذ في النضوب منذ توقف الفتوحات الرومانية . وما حدث من جراء ذلك كالذي يحدث لأفران صهر الحديد عند فقدان مصدر الطاقة الحرارية . ويرى ايضا ان الاتجاهات الاقتصادية في الاقطاعيات الكبرى نحو سياسة الاكتفاء الذاتي حيثُ اضرت بالمدن وادت الى تدمير رأس المال وطيان الاقتصاد الطبيعي البدائي ، ولعل الحروب الاهلية المستمرة في الامبراطورية منذ عهد ماركوس أوريليوس من العوامل الهامة التي ساعدت على اللجوء الى سياسة الاكتفاء الذاتي في المقاطعات الكبرى . كما ان روما اخذت تفقد مركزها التجاري المرموق عندما اصبح الطريق التجاري الممتد بين الراين والدانوب يزاحم طريق البحر المتوسط منذ نهاية حكم الامبراطور تراجان Trajan . ويعتقد ايضا ان تدخل الدولة في المشاريع الاقتصادية جعل البلاد اشبه بمعمل يعتمد على العمل الاجباري , وبذلك ارتكبت الدولة عملية انتحارية . اذا ثارت سخط الطبقة العاملة ودمرت الاقتصاد . حقاً ان الظروف الاقتصادية المتأزمة حتمت تدخل الدولة لانتشال الاقتصاد المتدهور . وكافحت كفاحا بطوليا لإيقاف الاتجاه نحو الاقطاع . وعلى ما يبدو ان هناك نظاما اقتصاديا جديدا في دور التكوين تميز بالعمل الحر في المقاطعات الحكومية على

الاخص . الا ان هذه الظاهرة التقدمية اعاقها عدم الاستقرار والضرائب الفادحة . ومصدر الشرور هي افة الحرب .

الاعتماد علي العبودية:

ويذهب الاستاذ ولبانك walbark الى نفس الرأي السابق الى حد ما . اذ يشير الى ان السبب الحقيقي في انهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب حيثُ اعتمدوا بصورة رئيسية على مؤسسة العبودية وسافر انهيار تلك المؤسسة عن ضهور الاقطاع وخراب الامبراطورية ، وكان سبب الانهيار الاقتصادي حسب رأي الاستاذ ويسترمان westerman فقدان الحرية الاقتصادية التي عادت بأفضح الخسائر على المشروعات الفردية وقوضت مدينة الرومان في الغرب , وما عدا ذلك من الاسباب اسباب ثانوية . ولم ير ويسترمان في مؤسسة العبودية سببا في الانهيار , لان العمل العبودي يتعامد مع اقصى ما بغلته الحضارة من رقي ورفاه . غير ان سياسة الاباطرة في الادوار المتأخرة في تأجير الاراضي الواسعة الى الملاكين ادت الى سياسة الاكتفاء الذاتي وتزايد القوى الاقطاعية جاعلة من الفلاحين مجرد ادوات انتاجية فأضررت بمؤسسة العبودية وكان منها انهيار اقتصاد المدن ، حيثُ كان سبب التدهور الاقتصادي ترسب الذهب الى خارج الامبراطورية يقول كل من المؤرخين ستنرير ومونرو حيثُ كانت الصناعات الرومانية بدائية ولتشبع الحاجات الاولية وليست المتاجرة . نعم كانت هناك تجارة بالكماليات كالعاج والحرير والتوابل والمجوهرات مع الشرق . الان ان تجارة الكماليات اضرت بالاقتصاد الروماني . فطالما ان الشرق لا يحتاج للصناعات لو المنتجات الرومانية فكان على الرومان دفع شيء الكماليات المستوردة ذهبا . ونظراً لتناقص كميات الذهب وعدم مقدرة الرومان على تعويضه فقد اثر سلبيا في الاعمال التجارية . وان ندرة الذهب سبب تقليص العملة وانخفاض الاسعار واختفاء الموارد الاساسية . لقد اسند هذا الرأي على ما جاء في كتاب بلني pliny ((التاريخ الطبيعي)) حول المتاجرة مع الهند والعرب حيثُ يقول : تمتص الهند عن طريق التجارة مع الرومان سويا ما لا يقل عن خمسين مليون sisterces ومائة مليون مع العرب والهنود سنويا ايضا . اي ما يعادل مليون ونصف دولار الى الهند وحدها , وما يقارب الخمسة ملايين دولار الى البلاد العربية والهند

سنويا . بهذا يرى الاستاذ ويسترمان بان هذه التجارة كانت في صالح الطرفين ولا يراها سببا في امتصاص الذهب من الامبراطورية الرومانية . واشار بان قلة المعادن الثمينة تعود الى اكتناز الذهب والفضة داخل البلاد الرومانية لا الى تسربها الى الخارج .

ويرى البعض ان فشل الاقتصاد الروماني بصورة عامة يعز الى احتقار الرومان للأعمال التجارية والصناعية . وقد منعت السلطات الرومانية الطبقات العليا بشكل قطعي من تعاطي تلك الاعمال لإنها من شيمة العبيد ولا تليق بالأسياد . لذا لم تكن هناك رغبة ابداعية لتحسين ادوات الإنتاج.

ظاهرة النزاع الاجتماعي:

اما الاستاذ روستو فتزيف rostovtzeff فيعتقد بان اسباب الانهيار تكمن في ظاهرة النزاع الاجتماعي social conflict بين الطبقات , انعكس في الصراع الدموي بين البروليتارية الريفية التي ساندها الجيش وبين الطبقات الارستقراطية في المدن والنظرية بإيجاز : آن الامبراطورية تعرضت الى صراع حاد بين قادة الجيش في القرن الثالث , تحول الى حروب اهلية ضاربة تميزت بسرعة اختيار الاباطرة والاستغناء عنهم بشتى السبل . أن ذلك الصراع من العوامل الهامة التي ادت الى استبدادية الحكم . ولكن ما هي اسباب ذلك الصراع ؟ يعتقد البعض انها اسباب سياسية نتجت عن التنافس بين مجلس الشيوخ والاباطرة حول السلطة غير ان هذا الرأي لا يدعمه الواقع فالرغم من ان مجلس الشيوخ يضم الطبقة الارستقراطية العليا , الا ان مساهمته في المجالات السياسية كانت ضئيلة جدا . فالصراع الحقيقي لم يكن اذن بين مجلس الشيوخ والاباطرة . ويعتقد البعض الاخر ان صراع بين الجيش والاباطرة . حيثُ ان الجيش لم يعد رومانيا منذ النصف الثاني من القرن الثالث , وانما اصبح يتألف من فرق قليلة التأثر في الحضارة الرومانية , معظمها من القبائل الجرمانية . هذا وقد افسد الاباطرة الجيش بعد انتهاء حكم سلالة أنطونيو خاصة عن طريق التملق لقادته لاحتياجهم الى دعم القادة العسكريين طالما كانت تنقصهم التبريرات الدستورية في اشغال العرش ومن اجل جعله وراثيا . ان محاولة تحويل العرش من منصب انتخابي الى وراثي يتنافى مع مفهوم الحرية الرومانية لذا عمد الاباطرة لتأكيد حقهم الوراثي عن طريق اخماد المعارضة عسكريا . واعتمدوا في ذلك على الجيش الذي طغت عليه العناصر

البربرية المؤمنة بالوراثة اكثر من ايمانها بالانتخاب مثلثها مثل الشعوب البدائية بصورة عامة واصبحت هذه الظاهرة واضحة منذ عهد الامبراطور سبتيموس سيفيروس **septimus severus**.

صـــراع الطبقات:

وهنا يتسأل روستوك فتزيف لماذا لم يدم التوارث العرش في السلالة سيفروس مادام الجيش امن بمبدأ الوراثة بالرغم من معارضة الطبقات الارستقراطية في المدن ولماذا قلب الجيش ضهر المجن على اسكندر سيفروس وقتلوه ولماذا هكذا فعلوا بأباطرة اخرين جاءوا بعده اين تكمن اذن الاسباب الحقيقية اذن جوهر الصراع منذ القرن الثالث هو معركة بين الجيش والطبقات الارستقراطية في المدن صاحبة الاملاك الزراعية وقد انتهى ذلك الصراع بانتصار الجيش ودمار الارستقراطية القديمة المتمثلة في المدن , تحت اقدام الجيش والفلاحين . ولكن على علم بان هذا الصراع لم يتضمن وعيا طبقيا موجها وانما هو صراع عفوي . مثل فيه الجيش قوة مدمرة للنظام الروماني في القرن الثالث خاصة , لان اكثريته الساحقة مجندة من اولئك السكان الذين لم يكن لهم النصيب يذكر في منافع ذلك النظام . فهم من الصغار المزارعين والاقنان . بينما تمثل الطبقات الارستقراطية الملاكين وحكام المدن وعليه فقد كانت هنالك قوة عميقة بين الجيش والطبقات الارستقراطية . وكان المفروض في هذا الجيش البائس ان يقوم بحماية كيان المدينة الرومانية الارستقراطية بالإضافة الى ما يتحمله من اعباء الضرائب وكدح من اجل اعالة الطبقات العليا . وبالرغم من التغييرات التي طرأت على الامبراطورية في نهاية القرن الثالث . فان العداء بقي مستمرا بين الارياف والمدن . ومع ان المدن اخذت تفقد اهميتها في القرن الرابع فقد بقيت اداة للسلطة في جباية الضرائب من الارياف , فكانت رمزاً للتعسف في نظر الفلاحين .

الصراع الطبقي: لقد حدثت عدة معارك عنيفة في الشرق والغرب بين الفلاحين والمدن كان الجيش فيها بجانب الفريق الاول وعلى العموم فقد ادى ذلك الصراع المديد الى تدهور سكان المدن الذين يشكلون العمود الفقري للاقتصاد الروماني . كما ان الحرب الطبقية لم تأت بنصرالى

الفلاحين فقد استمروا في اوضاعهم المزرية , وازدادت الحالة البروليتارية الريفية والمدنية سوء على سوء نتيجة بسبب إصلاحات الامبراطور دقلديانوس .

وفي هذه المعمعة طغت العناصر الجرمانية وتسللت الى مراكز القيادة , وتدنى الاقتصاد الى ادنى مراتبه بتدهور المدن . ولم يعد بمقدور المدن الي هجرة جماهير الريف , بل ان الذي حدث عكس من ذلك . اذ اخذ الريف يغزو المدن ويعمل على تجريفيها وبذلك نشأت عقلية جديدة بين الجماهير انها عقلية الطبقات الدنيا المستندة الى الدين المعادية للاتجاهات الفكرية للطبقات الارستقراطية والتي بدورها افلست من مثلها العليا واستكانت للضغط الأيديولوجي الجماهيري . ويري الاستاذ توينبي Toynbee ان سبب الانحطاط هو فشل المدينة في ترويض البروليتارية الداخلية التي ليست لها مصلحة واقعية بمدينة الرومان وكذلك فشلها في ترويض البروليتارية الخارجية ويقصد بها جموع البرابرة على الحدود ، وللمؤرخ كوبون gibbon نظرية هامة في هذا الموضوع فقد اشار الى ان الانحلال الذي اخذ يدب في الامبراطورية منذ اواخر القرن الثاني للميلاد على اثر وفاة الامبراطور ماركوس سنة 180م . مما يستعري الانتباه في نظريته امران

<u>الاول :</u> تدفق السيولة البربرية على الامبراطورية . ومارست تلك الاقوام اعمالها التخريبية على طريقين , الاول بربرة المجتمع الروماني بمؤسساته ونظامه من الداخل .

<u>الثاني :</u> ما تسببه هجماتهم المتكررة من استنزاف للاموال والعناصر الرومانية . وان الثغرات التي احدثوها في خطوط الدفاع الرومانية زعزعت الايمان بالامبراطورية في الداخل وكسرت هيبتها في الخارج وجارتهم الى التمادي في الاعتداء والدخول عنوة الى الامبراطورية ان اقتضى الامر ذلك .

<u>الثالث:</u> حسب رأي كيبون هي انتشار المسيحية . اما كيفية ذلك , فيراه في ان المسيحية معول هدم لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية في البداية ، اذ ان المواقف المسيحية سلبيا ازاء السلطات الوثنية ولم تعترف بقدسية الامبراطور الوثني الذي يمثل الوحدة او الرابطة الدينية للشعوب الامبراطورية على اختلافها . هذا وان تعاليمها في اول الامر مثبطة لهم بسبب الأهمية الاقتصادية بدعوتها للكفاف او الرزق اليومي في ابسط اشكاله . وان دعوتها ضد العنف والحروب.

الناحية العسكرية:

ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطات الحكومية على اثر الاعتراف بها في عهد قسطنطين وشركائه في سنتي 311و313 , والتي ادت الى فوضى ايدولوجية عامة ولا اشغال الحكومة الرومانية . اذ حولت جهود الاباطرة من المعسكرات الى مجالس دينية , وان الفرق المضطهدة اصبحت العدو الخفي بسب الرومان فكان اعتناق قسطنطين للمسيحية قد عجل في انحطاط الامبراطورية فان دينه المنتصر من ناحية اخرى قد خفف من وحدة السقوط اذ عمل على تهذيب وحشية الفاتحين وقد انبرى عديد من المؤرخين الالمان بصورة خاصة للرد على اراء التي جاء بها كيبون . فاتباع المدرسة التاريخية Historicism في القرن التاسع عشر ذهبوا الى عكس ما ذهب اليه كيبون في امر برابرة الجرمان اعتبروا العنصر الجرماني مدعاة لقوة الرومان . لان الجرمان لم تكن نيتهم عقد نفوذهم الى داخل الحدود الرومانية غير الاحتماء بالإمبراطورية من اقوام اشد بربرية منهم وطلب للعيش بعد ان شحت عليهم الطبيعة بوجودها في مواطنهم الاولى . كما ان الحوادث التاريخية قد اثبتت ان القسم الاكبر من هذه الجموع الجرمانية كانت خير عون للإمبراطورية في الناحيتين العسكرية والاقتصادية , وبطوعهم في الجيش وبانشغالهم بالإنتاج الزراعي . ولهم ايضا نظرة اكبار للمدينة الرومانية . هذا بالإضافة الى ان دخولهم الامبراطورية لم يكن كليا عن طريق القوة ولم يكن مفاجئا , بل ان الرومان كانوا في التعامل مع هذه القبائل سلميا ام حربيا منذ القرن الثاني قبل الميلاد . وستشهدون بذلك عما جاء به المؤرخ تاكيتوس tacitus في القرن الثاني الميلادي , من الاخبار عن فضائل الجيرمان . اذ وصفوهم بالشجاعة والاخلاص , واثنى على نسائهم وفضلهن عفته على نساء الرومان ، واما الردود على نظرية كيبون في تحميله المسيحية مسؤولية انهيار فتتلخص بما يلي :

ان الكنيسة ذات رسالة قصد بها الخير لتلك المجتمعات آنذاك . فدعت الى الايثار والمساواة والسلم . وهي اداة تثقيفية للأقوام الجرمانية وغيرها , اذ كسرت كثيرا حدودهم وعملت على ترويضهم ، وللكنيسة ايضا مواقف عدة كانت فيها عونا للسلطات في حفظ النظام والتوسط بينهما وبين الجموع الغازية . ومثلت ايضا وسطا هاما في نقل الحضارة الرومانية من جيل الى اخر .

ثم اصبحت فيهما بعد من اكبر دعاة الامبراطورية المسيحية . حيثُ نتذكر بان المؤرخ كيبون ينتمي الى المدرسة العقلية التي اشتده مساعدها في القرن الثاني عشر خاصة , الناضرة بازدراء الى التراث العصري الوسيط لعدم مسايرة الكثير من جوانبه للتحليل العقلي , معتبرة ذلك التراث انتكاسة في تاريخ المدنية الاوروبية . هذا ولم ير المؤرخ النمساوي دوبش a.dopsech ان الغزوات الجرمانية سبباً في انهيار الامبراطورية .وانما حدث هو اعادة توزيع الاراضي على نطاق واسع حسب العادات الرومانية ولم يؤد ذلك الى عودة الى الاقتصاد البدائي او انقطاع في التجارة . ويتفق الاستاذ pirenne مع ذلك الرأي مضيفا عليه بان العرب هم الذين دمروا وحدة البحر المتوسط وشلوا التجارة بين الشرق والغرب وامتصوا الذهب من اوروبا وادت توسيعاتهم الى انتقال التجارة الاوروبية من البحر المتوسط الى بحر الشمال : واجبرت اوروبا بعد ان انقطعت مواصلاتها مع الدولة البيزنطية عن طريق البحر المتوسط على اعتماد على نفسها.

التفسيرات المنهج الطبيعي:

وهنالك تفسيرات ايدولوجية او كما يشار لها بالنظريات العضوية organic theorics لسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب . حيثُ شبه قسم منها حيات المجتمعات بعمر الافراد . فهنالك دورة حياتية متمثلة في ولادة ونضج ثم الفناء . وعليه فالمدينات كالأفراد الصهارة لا محالة الى الموت . ويأخذ بذلك الرأي الاستاذ اسكويت asquith اذ يقول (ان الخلايا الامبراطورية الرومانية وانسجتها قد بلغت نهايتها المحتمة مثل أي شيء حي) ويعتقد الاستاذ شبنكلر Spengler ايضا كان التاريخ عامة يسير في اتجاه قرر سلفا من ولادة الى الطفولة ومن الشباب الى المشيب حيثُ الموت.

اما الاستاذ فرانك frank فيعتقد بان انهيار الامبراطورية كان لأسباب رئيسية اي عندما تغلبت الدماء الشرقية على الدماء الرومانية . وتستند نظريته الى دراسة اجراها على اسماء الموتى في مقابر ايطالية . توصل منها الى ان نسبة مواليد في الادوار الاخيرة من تاريخ الرومان كانت تسعين بالمئة من غير الرومانيين لذا سادت القيم الشرقية التي توضحت في اتجاهات دينية وضهور الاستبدادية على الطراز الشرقي وتدهور الادب وفقر الحكم على الشخصيات الموهوبة

وقد ردت الاستاذ ماري كوردون m.cordon على ذلك الراي بقولها ان الاسماء التي عثر عليها الاستاذ فرانك مضللة تاريخيا . اذ يطلق تجار العبيد عادة اسماء مختلفة على عبيدهم حسب ما يتسترون ولا تدل هذه الاسماء علمية على جنسيات هؤلاء العبيد واصولهم . وبالإضافة الى ان دراسة الاستاذ فرانك اقتصرت على ثلاثة قرون درس فيها (13900) قبرا كتب عليها اسماء الموتى . لهذا فلا يصح تعميم ذلك الاحصاء نظرا لطول الفترة وقلت الحالات المدروسة نسبا الى عدد السكان . كما ان الاسماء التي عثر عليها كانت في مقاطعات رسمية , فما بالك بالذين يدفنون في مقابر عامة بلا تميز ولا شارات ؟ وعليه فان النموذج الدراسي الذي توصل اليه الاستاذ السابق لا يمثل نسبة بين عدد الاحرار والعبيد في الامبراطورية بشكل علمي .

ويأخذ الاستاذ نالسون nilson بالنظرية الرئيسية ايضا . حيثُ يشير ان اهم مشكلة صادفتها الامبراطورية هي مشكلة الرس Rass اذ قامت مدينة الرومان على نقاوة الرس وقد شابت العناصر الاجنبية نقاء العنصر الروماني في الوقت التي كانت فيه نسبة ولادة الرومان في التناقض . وهنا يعلق الاستاذ بينز Baynes على ذلك بقوله (عندما تستعمل كلمة الرسية في تفسير حوادث التاريخ فمن الاجدر بي الوذ بالصمت) . ويعلق الاستاذ كادتز Katz على الرسية بقوله ان الذين يعتقدون سبب الانحطاط هو استنزاف العنصر الروماني الممتاز عن طريق الحروب او لعدم رغبة الرومان في انجاب النسب , وان العناصر الرومانية الجيدة ابتلعتها العناصر الرديئة , لا يستندون الى الواقع . ويمكن للإنسان ان يتبين خطل هذا الرأي بعدم وجود اداة على ان العناصر الممتازة هي وحدها التي هلكت في الحروب . كما ان الدليل لم يقم على وجود اجناس متفوقة واخرى رديئة بين البشر , ولم يثبت لدينا علميا بان العناصر الرومانية الممتازة حاولت انتحار الرسيل بأضرابها عن تخليد النسل . ولا يعتقد الاستاذ بيوري Bury بان سبب انهيار كان لنقص السكان . اذ يشير الى انه لا توجد اداة علمية على ان النفوس الامبراطورية في القرنين الرابع والخامس اقل مما كانت عليه في القرن الاول ميلادي . وان قلت المواليد في ايطاليا لا تفسر لنا الانهيار في القرن الخامس اذ بقيت الامبراطورية محتفظة بجيش يربو على المائة الف مقاتل . ولا يرى الاستاذ كاتز katz ايضا بان نقس السكان من جراء الاوبئة كالطاعون والملاريا بصورة خاصة سببا اساسيا في الانحطاط . ويعتقد المؤرخ بوروخ burgh

ان صلاحيات المدنية والعسكرية التي اجراها دقلديانوس 284-305 مسؤولة الى حد ما عن تصدع الكيان الروماني في الغرب . فالراغم من انه اداة تقوية الجهاز الحكومي بوضع حد مفاسد ولتمكن الامبراطورية من الدفاع عن الحدود الا ان النتيجة كانت عكس المطلوب . فالفصل بين السلطتين العسكرية والمدنية ادى الى ارباك الوضع . هذا بالإضافة الى تعدد الوحدات الادارية الصغرى التي احتوتها الاقاليم الاربعة لكل من الغال وايطاليا والبيريا والشرق . وادت هذه الى زيادة عدد الموظفين واشتداد البيروقراطية وعرقلت الاعمال . كما ان تقسيم الامبراطورية من الناحية الادارية الى شرقية واخرى غربية بين الامبراطوريين والقيصريين لم يساعد على القضاء على النزاع حول الاستتار بالسلطة عند الموت احد الامبراطوريين كما توقع دقلديانوس , بل ادى الى حروب اهلية منذ سنة 305- 324 ومنذ وفاة قسطنطين الكبير سنة 337-351 . كما ان معالجته الوضع الاقتصادي المنهار بجملته الصناعة والتجارة تحت الاشراف الحكومي المباشر وجعل المهن وراثية قتلت الابداع وولدت التذمر . ومهما تعددت النظريات والآراء في تعليل سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب فلا بد وان يستشف المتأمل فيها بان هناك تحولات خطيرة في المجتمع الروماني . بدت في تصدع مؤسسة الانتاج الكبرى وانهيارها , الا وهي مؤسسة العبودية , الحجر الاساسي في الكيان الامبراطورية في الغرب . ان تدهور تلك المؤسسة حتم ضهور علاقات اجتماعية جديدة مستندة على نوع للعلاقات الانتاجية الحديثة آنذاك . وكانت هذه الظاهرة هي اليد الخفية وراء البلبلة التي اصابت الرومان في الغرب في كافي النواحي مجتمعهم وفككت عراه . وقد اسرعت السيول الجرمانية المتدفقة على الامبراطورية في عملية تلك التحولات في المجتمع الروماني عن دون قصد طبعا والتي اذنت بحول عصر جديد هنالك اتفاق على سنة التي زالت فيها الامبراطورية الرومانية في الغرب ؟ ان الاجابة على ذلك السؤال حيوية بالنسبة للموضوع طالما ان نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب هي بداية العصر الوسيط . يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ السقوط اختلافا كبيرا ومحيرا . ايمكن اعتبار انتصار قسطنطين على خصمه ماكستنيوس سنة 312 في ملفان في ايطاليا بداية للعصر الوسيط لمجرد اتخاذه الراية المسيحية شعارا له ؟ اذ تشير الراية عند البعض الى التحول الخطير وان اعترافه للعصور الوسطى ؟ ذلك على اثر الانقلاب الناجح الذي دبره الجنرال الجرماني ادوكور advisers

ضد رومولوس وحصوله على موافقة مجلس الشيوخ الروماني والامبراطوري زينوس Zeno's الذي كان يحكم في القسطنطينية . ان قسما من باحثي التاريخ لا يروم في تلك السنة سقوطاً للإمبراطور ولو انه فرض نفسه على روما فرضاً . كذلك لم يشهد ذلك التاريخ جيوشاً غازية ولا معارك ضاربة وانما تمت عملية مجيء ادوكر للحكم بصورة سلمية . وتسائل البعض لماذا لا تكون سنة 410 او سنة 455 من التواريخ الفاصلة في هذا الشأن ؟ فقد استولى الاريك Alaric في التاريخ الاول على روما فعلا بعد حصار شديد ومعارك عنيفة وعاشت جموعه في احياء المدينة ولم تسلم منه غير دور العبادة ان للمؤرخ الايطالي فلافيو بايوندي Flavio Biondi قد اعتبر سنة 410 بداية للعصر الوسيط في كتابة تاريخ روما الذي وضعه في المنتصف القرن الخامس عشر . اما التاريخ الثاني اي سنة 455 فقد تعرضت فيها روما لمخاطر هائلة من قبل جيوش الوندال التي عبرت اليها من شمال افريقيا ولا ينسحبوا منها الا بعد امتصاص ثرواتها المنقولة ولتدخلات البابا ليو الكبير . او هل يمكن اعتبار سنة 565 نهاية للحكم الروماني في الغرب ؟ لقد اعاد الامبراطور جستنيان ايطاليا وبعض اجزاء اسبانيا وشمال افريقيا الى الرابطة الرومانية , الا ان اكثرية ايطاليا خرجت عن سيطرة الرومانية بعد قليل من وفاته . او يمكن اعتبار سنة 800 م نهاية لسلطة الرومان النظرية على الغرب كما يراه المؤرخ بيوري ففيها قد اصبح شار لمان ملك الفرنجة امبراطوراً على الغرب وبذلك انتهت سيادة الرومان على القسم الغربي من الناحيتين العلمية والنظرية . غير ان للمؤرخ بيرين pyrene راي اخر اذ يعتبر فيه نهاية العصور القديمة في اوروبا تبدأ في بداية القرن الثامن اي الوقت الذي سيطر فيه الغرب على مياه البحر المتوسط واستولوا على اسبانيا وشلوا التجارة الغربية . ومهما يكن من الامر فان السلطة الفعلية في الغرب قد انتقلت الى العناصر الجرمانية منذ النصف الثاني من القرن الخامس. ولم يشهد الغرب امبراطورا يحكم في ايطاليا منذ انقلاب ادوكر . ولعل ذلك من المبررات التي تجعل من سنة 476 نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب وبداية للعصر الوسيط بالرغم من ان السنوات لا تحدد الخطوات التاريخية من حيثُ البداية او النهاية . ومع ذلك فان انقلاب ادوكر جاء منسجما مع حصيلة التطورات العامة في المجتمع الغربي.

صراع الحضارات:

لقد برزت مقاربة صدام الحضارات سنة 1993 كأهم أطروحة لتفسير ما يحدث في عالم اليوم، ويؤكد الكثير من الباحثين على اعتبارها من بين أكثر المقاربات التي يمكن اعتمادها لتفسير العلاقات الدولية بعد أحداث 11سبتمبر ،2001 إلا أنها تضمنت مجموعة من التناقضات سواء على المستوى الفكري أو المنهجي، خاصة في ظل التطور الذي يعرفه النظام الدولي ضمن ثنائية نحن والآخر والتي نبعت من رؤية الغرب وتكرست منذ تلك الأحداث كنتاج للاختلاف الثقافي والديني، هذا على المستوى الفكري، أما على مستوى الواقع الدولي فقد توسع نطاق وفحوى المفاهيم التي احتوتها مقاربة صدام الحضارات والتي راج استعمالها في الوسط السياسي العالمي، كما أنها برزت كممارسات اتسع نطاقها خاصة فيما يتعلق بمفهومي الاصولية المرتبطة خاصة بالتطرف الديني من جهة والإرهاب الذي ارتبط هو الآخر بالتطرف الاسلامي خاصة في القرن 21 .. فقد شهدت نهاية القرن20 وبداية القرن21 ظهور نزعة دينية اتسع انتشارها وازداد تشددها يوما بعد يوم، حيث 1 ظهر مجموعة من المتشددين (الأصوليين) الذين يمارسون العنف، إذ يقتلون ويحاربون بسم الدين، طبعا الامر لا ينحصر في ديانة بعينها، بل في كل الديانات السماوية، منها في كل من المسيحية واليهودية والإسلام إلى جانب الديانات الوضعية كالبوذية والهندوسية...إلخ، بل حتى على مستوى التنظير الفكري برزت أطروحة صدام الحضارات كأهم أطروحة لتفسير ما يحدث في عالم اليوم، وقد لقت رواج في الأوساط الأكاديمية منذ نهاية الحرب الباردة، بل ويؤكد الكثير من الباحثين الغربيين على اعتبارها من بين أكثر الأطروحات التي يمكن اعتمادها لتفسير العلاقات الدولية بعد أحداث11سبتمبر،2001 في ظل التطور الذي يعرفه النظام الدولي ضمن ثنائية نحن والآخر والتي تكرست منذ تلك الأحداث كنتاج لاختلاف ثقافي وديني ضمن مجموعة من الثنائيات (مسلم- مسيحي أو حتى متحضر بربري و متقدم – متخلف وخير- شرير...) وغيرها من الثنائيات التي أصبحت تحكم علاقة أصحاب الديانات المختلفة بغيرهم وخاصة المسلمين بغيرهم وتحديدا الغرب، الذين كرسوا مضمون تلك الثنائية في نظرتهم وممارساتهم السياسية اتجاه غيرهم ، والتي بدورها تكرست ضمن أطروحة صدام الحضارات، وحتى ضمن الدعوة المقدسة التي كانت شعارا أساسيا في خطابات الرئيس

الأمريكي "بوش الابن" منذ أحداث11 سبتمبر،2001 فكيف كرست أطروحة صدام الحضارات مدركات الصراع بين المسلمين وغيرهم ضمن المفارقات النظرية والمنهجية التي تضمنتها من جهة؟ وحتى كممارسة ضمن ما تجسد على أرض الواقع من خلال ما يحمله مصطلحا الاصولية ومفارقة الإرهاب في ظل مجمل التناقضات الفكرية والمعرفية التي احتوتهما من جهة أخرى؟ مختصر فحوى مقاربة صدام الحضارات: برزت مقاربة صدام الحضارات" Civilizations of Clash The "على يد الاستراتيجي "صموئيل هنتنغتون" Huntington .P Samuel "أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد سنة1993 على اثر مقالة نشرها بمجلة السياسة الخارجية "Affairs Foreign "بعنوان: "صدام الحضارات" والتي لقيت رواجا كبيرا صاغها فيما بعد في كتاب نشره سنة 1996 بعنوان: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، بين من خلاله أن مسألة الصراع وإن كانت في الأصل ترتبط بالبحث عن المصالح، إلا أن طبيعة الصراع في المستقبل سيكون صراع بين الحضارات وليس الدول. وبالعودة إلى التاريخ نجد أن الصراع بين المجموعات البشرية قد انتقل من صراع بين القبائل والعشائر إلى صراع بين الدويلات ثم بين الإمبراطوريات، وصولا إلى صراع بين الدول بمفهومها الحديث (الدولة القومية)، ثم بين الإيديولوجيات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (الحرب الباردة)، أما منذ نهاية الحرب الباردة فان الصراع يتجه لأن يكون صراعا بين الحضارات، ويرجع ذلك حسب "صموئيل هنتنغتون" إلى أن "ما يهم الناس ليس الإيديولوجية أو المصالح الاقتصادية بل الإيمان والأسرة والدم والعقيدة، فذلك ما يجمع الناس وما يحاربون من أجله ويموتون في سبيله" ، وقد تعززت هذه الفكرة منذ أحداث 11سبتمبر،2001 خاصة أن "هنتنغتون" قد وجه تحذيرا إلى الحضارة الغربية من باقي الحضارات الأخرى، إذ حدد الخطوط الفاصلة بين الحضارات كخطوط لأهم المعارك التي عرفها وسيعرفها تاريخ الصدام بين الحضارات، " فالشعوب في مختلف الدول تتجه أكثر نحو التمسك بعاداتها ودينها وتقاليدها التي أصبحت تشكل المحرك الأساسي لها، حتى في علاقتها بالعالم الخارجي" ، وقد قسم في هذا الإطار العالم إلى سبع أو ثماني حضارات وهي: الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشيوسية والحضارة اليابانية والحضارة الهندية والحضارة السلافية الأرثوذكسية

وحضارة أمريكا اللاتينية وربما الحضارة الإفريقية. وحسب "هنتنغتون" فان الحضارة الغربية في أوج قوتها بالمقارنة مع باقي الحضارات الأخرى، كما أن القيم الغربية قد تغلغلت إلى باقي الحضارات الأخرى، وأن الصراع هو عبارة عن ردة فعل للحضارات غير الغربية على القوة والقيم الغربية" ، وهو ما يعني أن الحضارة الغربية ستدخل في صراع مع الحضارات الأخرى إن الاشكال الاساسي ليس في التمسك بالقيم أو تركها وتبني قيم الحضارة الغربية، بل في ظهور ممارسات مشوهة لتلك القيم ، خاصة مع وجود تناقض بين مضمون تلك القيم وخصوصية كل حضارة من جهة، وحدوث انقلاب قيمي على المستوى العالمي في التعامل مع القضايا الدولية (ازدواجية التعامل) من جهة أخرى. فمثلا السلام كقيمة ليس هو فقط مجرد غياب للعنف كما يرى البعض، وانما وهو جود العدل كما قال "مارتن لوثر كينغ"، فما يعرفه العالم اليوم هو خليط من الممارسات التي أعادت العالم إلى حقب خلت من التخلف والانحطاط نتيجة غياب العدل في مضمون السلام (كوحشية طرق القتل والتعذيب، الحرية المطلقة للتعبير، جهاد النكاح وغيرة من من الممارسات المشوهة الناتجة عن التناقضات غير المتجانسة في جميع الميادين، وفي ممارسات الدول الكبرى اتجاه الدول الأقل منها قوة، وحتى داخليا بين الحكام الخاضعين والمستبدين وشعوبهم. كما أنه حسب هنتنغتون أكثر الحضارات تحد للحضارة الغربية هما:

-الحضارة الإسلامية .. هي التي ستعرف انفجارا سكانيا متزايدا، وهي النقطة الحساسة التي تتخوف منها الحضارة الغربية، حيثُ يقدر عدد المسلمين بمليار و600مليون نسمة وهو مرشح للارتفاع خلال السنوات القادمة، وأكثر من ذلك الاسلام كدين يعرف انتشارا واسعا بالمقارنة مع الديانات السماوية الاخرى لأنه أثبت أنه دين وعلم.

-الحضارة الكونفوشيوسية .. وهي التي ستعرف قوة اقتصادية وعسكرية متزايدة هي الأخرى، والتي ستتقارب مع الحضارة الإسلامية في مواجهة الحضارة الغربية، خاصة في المجال العسكري. ويعتمد "صموئيل هنتنغتون" في تفسير أطروحته على دراسة وصفية للتاريخ، أين يرى انه بالعودة إلى التاريخ فان الحضارة الوحيدة التي جعلت وجود الحضارة الغربية محل شك هي الحضارة الإسلامية، وبذلك يكون "صموئيل هنتنغتون" قد أعطي صورة مظلمة للعالم الذي سيعرف فوضي العنف والصراع نتيجة عدم وجود قيم مشتركة، وازدياد تأثير

مسالة الانتماء مع تحديده للعدو الجديد للحضارة الغربية بعد زوال الاتحاد السوفياتي في الحضارة الإسلامية، أو كما يطلق علية تسمية الخطر الأخضر. ويرى "هنتنغتون" أن هناك خطوط صدع (خطوط دموية) متواجدة في الحدود أين تعيش الشعوب الإسلامية التي لا تستطيع التعايش مع غيرها من شعوب العالم، ويستند "صموئيل هنتنغتون" في تفسير طرحه هذا على تاريخ الحروب التي كان المسلمين طرفا فيها، مؤكدا أن حتى الإسلام قد تم نشره بقوة السيف لا بالإقناع، هذه كلها مغالطات فكرية جعلته يتناسى أن كلمة سيف بكل مرادفاتها لم يرد ذكرها اطلاقا في القرآن الكريم، في حين ذكرت في الانجيل أكثر من 200 مرة، كما أنه نسي أن يقارن تلك الأحداث التاريخية بما حدث في أمريكا منذ بداية تأسيسها بإبادة الهنود الحمر وحتى في اطار حروب الاستقلال وحروب الاتحاد، وفي وقت قريب داخل ذات الحضارة (الغربية) وتحديدا في أوربا من خلال ابادة أكثر من 6مليون يهودي إلى جانب نتائج الحروب التي كانت الحضارة الغربية طرفا فيها، أين سيلاحظ الفارق الكبير بين خسائر الحروب التي كانت الحضارة الإسلامية طرفا فيها وبين ما خلفته الحربين العالميتين الأولى والثانية من خسائر مثلا، وهنا يبقى السؤال المطروح من أكثر دموية من من؟ ، بل حتى حاليا تشير الكثير من التقارير والبحوث الأكاديمية إلى أن عدد ضحايا العمليات الاجرامية في الدول الغربية التي يقوم بها المسلمون لا تتعدى 2 إلى 4% في حين يمثل الباقي أي 98 إلى96% من مجمل الجرائم التي يقوم بها أفراد غير مسلمين، في الوقت الذي يتم تعميم مفهوم العنف كمرادف للإسلام، مما أدى إلى التظليل الذي صدقته شعوب العالم عن المسلمين، ولعل ما يحدث حاليا هو ترسيخ لمضمون هذه المقاربة (صدام الحضارات) "التي اعتبرت الاسلام الراديكالي أو الاصولي هو المصدر الاساسي لصدام الحضارات" . وقد أكد "هنتنغتون من خلال مقالته بعنوان: "تآكل المصالح الأمريكية" أن الإستراتيجية الأمريكية التي تبنى علي أساس جيبوتيتيك" لم تعد ملائمة مشككا في مدى جدوى هذه الإستراتيجية في ظل تعدد وكثرة الفواعل الدولية خاصة الاقتصادية منها، وفي ظل التعقيد والفوضى التي يشهدها عالم اليوم، إلى جانب عودة أهمية التأثيرات المجتمعية من انتماءات وعقائد ودين، وبغض النظر عن نهاية أو عدم نهاية الحرب الباردة (دور الايدولوجيا في العلاقات الدولية)، فإن

المصالح هي المحدد الأول والأخير لأي صراع سواء داخل الدولة الواحدة أو بين دولتين أو أكثر، حتى مبررات العنف بسم أي ديانة هدفها سياسي ومصلحي وليس لأغراض دينية بحتة.

الانتقادات التي وجهت لأطروحة صدام الحضارات

إن مقاربة صدام الحضارات" لم تستطع تحديد الرابط بين حضارة ما والسياسة الخارجية للدول المنتمية إليها " ، وهو ما لا يمكن أن يقدم لنا تفسيرا واضحا لهذا الصراع على أرض الواقع، لأن الموجود ضمن البيئة الدولية هي دول قومية ما يهمها هو مصالحها القطرية وليست مصالحها ضمن مجموع الدول التي يجمعها بها نفس الدين والتاريخ، والثقافة...وغيرها من القيم المشتركة. لم يعتمد "صموئيل هنتنغتون" علي معيار واحد في تقسيم الحضارات، على أساس جغرافي أو ديني أو عقيدي وغيرها، كالحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والحضارة الكونفشيوسية وهو ما يمثل خللا معرفيا.

إن وجود قيادة للعالم الإسلامي في إطار ما طرحه "صموئيل هنتنغتون" حول الحضارة الإسلامية وإن تنازعتها في فترات سابقة دول إسلامية كبرى كالخلافة العباسية أو الدولة الأموية في الأندلس أو حتى الدولة العثمانية أو الدولة الصفوية، فان الدول الإسلامية في الوقت الراهن لم تعد تتنازع لقيادة العالم الإسلامي، لأن هذا المستوى من التحرك لم يعد يحوز على نفس الأولوية التي كان عليها في الفترات السابقة، بل سقط تماما لدى أغلبية الدول الإسلامية ، باعتبار أن صراع المصالح هو المحرك الأساسي لهذه الدول" ، وهذا ما يفند ما قدمه "صموئيل هنتنغتون " حول تهديد الحضارة الإسلامية لمحاربة الحضارة الغربية (إن الدول العربية مشتتة نتيجة النزاعات الأهلية والحروب الإقليمية والتنافس فيما بينها حول مناطق تتولى إدارتها أطراف غير إسلامية، واللجوء الدائم للأطراف الخارجية في حل أزماتها، كالحرب العراقية الإيرانية والحرب على العراق1991 والصراع في أفغانستان والصومال والبوسنة والهرسك والشيشان وغيرها، أين تتضح محدودية وعدم فعالية دور الدول الإسلامية بل لجوئها إلى أطراف خارجية حتى لتحقيق مصالحها...بل اليوم تتنافس فيما بينها مما أدى إلى تدهور العلاقات بين عدد من الدول الإسلامية فيما بينها بسبب اختلاف مصالحها حول بعض القضايا).

أن مسألة التحالف بين الحضارة الكونفوشيوسية والحضارة الإسلامية ضد الحضارة الغربية بعيدة جدا عما صوره "هنغتنتون" كتهديد واضح ضد الولايات المتحدة الأمريكية أو حتى الحضارة الغربية عامة، خاصة أنه لا توجد مؤشرات لهذا التقارب خاصة في جانبه العسكري. بعد احداث11سبتمبر2001 اتضح بشكل جلي أن مصير الأمة الإسلامية أصبح رهين عواقب السياسات الأمريكية، كما أصبحت هذه الدول ساحة تتجدد حولها وعليها اختبارات مقولة صدام الحضارات والتهديد الإسلامي للغرب والحروب الصليبية وغيرها من المصطلحات التي عادت للواجهة مؤكدة على الخطر والتهديد الأصولي الإسلامي، وعلى البعد الحضاري والثقافي في الصراعات التي سيشهدها القرن،21 كمحدد أساسي للعلاقة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي. إن ما يحدث اليوم يبين أن ما هو مطروح كمحدد أساسي للعلاقة بين الإسلام والغرب هو أطروحتين أساسيتين هما:

أولا: أطروحة التهديد الإسلامي للغرب. بعد أحداث 11سبتمبر2001 وفي إطار محاولة الإدارة الأمريكية الإجابة على السؤال لماذا يحدث هذا معنا؟ لماذا يكرهوننا؟ كان ما هو مفهوم من قبل الكثير من الأمريكيين أن هؤلاء الإرهابيين يكرهون حرية أمريكا، حريتها على جميع المستويات في الدين والرأي والمؤسسات ويكرهون ديمقراطيتها، خاصة ان هؤلاء الأصوليون "يشعرون انهم يحاربون بعض القوى التي تهدد أقدم قيمهم" ، وتم الاتفاق في نهاية المطاف على مستوى الإدارة الأمريكية أن هؤلاء الإرهابيين كما قال عنهم الرئيس "بوش الابن":" هم ورثة جميع الإيديولوجيات المجرمة للقرن20 من خلال التضحية بالحياة البشرية خدمة لتصوراتهم المتطرفة، والتخلي عن كل القيم ما عدا الرغبة في السلطة، فقد اتبعوا طريق الفاشية ، وهذا ما يعني أن من مصلحة العالم ككل وحتى من مسؤولية الولايات المتحدة الأمريكية والنازية والشمولية" تخلص العالم من الشر، وأن تنهي الإرهاب وتمنع وصولهم إلى السلطة من خلال دعم الحكومات المعتدلة والترويج للديمقراطية.

كما أن الأصولية الإسلامية أو ما أصطلح على تسميته بالإسلام فوبيا"Phobia Islam "في نظر الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة بمثابة التهديد الذي حل محل التهديد السوفياتي، كما يعبر عنه بمصطلح "التهديد الأخضر " والذي حل محل "التهديد الأحمر"، إلا أنه بالعودة إلى

جذور المسألة وأسباب وجود جماعات أصولية تدين بالديانة الإسلامية التي منها من أعلن الجهاد- ضد الكفار كنظام الطالبان بزعامة "أسامة بن لادن" لابد من العودة ولو باختصار إلى أمرين أولها يتعلق بالجانب النظري لأي مذهب اصولي والثاني بالواقع الدولي وذلك من خلال:

الجانب النظري: إن أي مذهب لرسالته ثلاث أبعاد "سواء كان هذا المذهب ديني أو علماني معاصر او قديم فان يتطابق مع ايديولوجيا ضرورية لنجاحه وتحوله إلى حركة شعبية دموية" ويحدد " توني سميث" في كتابه بعنوان : حلف مع الشيطان تلك الابعاد للأصولية السياسية فيما يلي":

التصور المطروح من الاصولية السياسية أو النموذج الذي يرسم صورة لصراع مصيري مدمر يقسم من خلاله العالم إلى ثنائية الاضداد(ما نوي) بين ما هو خير وما هو شر أين لا توجد حلول وسطى، مما يجعل القتال بلا ضوابط وبلا حدود.

نتيجة هذا الصراع هي حجة لصالح العنف باعتبار التضحيات نصر على الجور، وكذا من خلال ما تقدمه من تصور لمجموعة من الاصلاحات المفرطة في المثالية.

السمة الديماغوجية للأصولية بالرغم من انها اقل اهمية من البعدين السابقين، إلا انها ضرورية لتأجيج الالتزام العاطفي بمشاعر الريبة والاعتقاد بالأفضلية على الأخرين، وبالتالي المحافظة على وحدة الجماعة تحت راية تلك العقيدة" .

ضمن هذه الأبعاد الثلاثة بدأت الاصولية تترسخ في مختلف الديانات خاصة الدين الاسلامي وذلك بظهور جماعات متطرفة تبحث عن مكان لها ولأفكارها ضمن المجتمع الذي انبثقت منه، والتي تبحث أيضا عن زيادة عدد أعضائها بالتركيز على الأبعاد السابقة.

الواقع الدولي: وتحديدا المرتبطة بالعالم الإسلامي كأمثلة بسيطة لتوضيح مخلفات تلك التراكمات التي تغاضى عنها "صموئيل هنغتنتون" في أطروحة الصراع التي قدمها، والتي هي بالأساس ناتجة عن ممارسات مشوهة لطرفين هما :

القوى الاستعمارية الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها التي عانت منها شعوب المنطقة الإسلامية خاصة منطقة الشرق الأوسط، ومن أهم ما تضمنته تلك الفترة مايلي:

تنفيذ اتفاقية ـ سايكس بيكو ـ لتقاسم خيرات الرجل المريض "الدولة العثمانية"، حيث أن أغلبية الدول العربية والإسلامية كانت تقريبا حتى منتصف القرن العشرين تحت وطأة الاستعمار بكل ما يحمله من معنى، ولم تحصل على استقلالها السياسي إلا في بداية الخمسينات إلى الستينات من القرن العشرين عن طريق ظهور حركات التحرر التي قامت بحروب التحرير وأنهت وجود الاستعمار بشكله المباشر التبعية التي ظلت تعاني منها الدول المستقلة حديثا من جراء عدم وجود استقلال اقتصادي، وارتباط اقتصادها باقتصاد المستعمر، ووجود هوة كبيرة في مستويات التنمية بكل أبعادها، بالإضافة إلى الفارق التكنولوجي والعلمي بين الشرق والغرب، أو حتى بين الشمال والجنوب وعد بلفور سنة1917 بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وتنفيذه، وصولا إلى إعلان قيام دولة إسرائيل سنة،1948 وبروز الصراع العربي الإسرائيلي تحت وجود تأييد دائم ومستمر للقوى الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل ماديا وعسكريا وحتى لممارساتها الارهابية ضد الفلسطينيين، بالمقابل رفض قيام دولة فلسطينية، بالإضافة إلى تدنيس القدس واحتلالها من قبل إسرائيل، واستمرار هذه الأخيرة في بناء المستوطنات وتهجير وإبادة الشعب الفلسطيني تحت مرأى كل العالم دون أي جهد دولي يذكر لوقف اسرائيل، "حيث تعاملت أقطاب النظام الدولي مع العدوان المستمر على غزة خلال 10سنوات الماضية إلى يومنا هذا بطريقة تعيد البشرية إلى عصر كان الاستعمار فيه هو السيد أي قبل سنة...1945وتعامل هؤلاء الاقطاب مع الجرائم الإسرائيلية.

انها جزاء يستحقه الفلسطينيون، مثلما كان سادة العالم ينظرون إلى الهنود الحمر في مرحلة مبكرة من تاريخ الظاهرة الاستعمارية" . الثورة الإسلامية المشوهة على المستوى الفكري والتي كانت بدايتها من ايران والتي جعلت كلمة إسلام معاكسة للكلمة الغرب التي هي عبارة عن الجبهة الموحدة التي تجمع أمريكا والأوربيين في مواجهة المسلمين انطلاقا من قلب منطقة الشرق الأوسط، كما تعتبر أطروحة "صدام الحضارات" من بين الأطروحات التي تغذي العداء بين الغرب والإسلام والتي تم من خلالها تضخيم العداء بين الطرفين خاصة منذ الأحداث 11سبتمبر ،2001 وجعل المسلمين مصدر تهديد أينما كانوا وحيثما حلوا، خاصة من خلال التعميم والإعلام الغربي الذي كان له دور كبير في بث الكراهية بين الشعوب.

حرب الخليج الثانية سنة1991 وتداعياتها على منطقة الشرق الأوسط وما ولدته من تواجد أمريكي دائم في المنطقة، بالإضافة إلى ما خلفته هذه الحرب على الشعب العراقي، من خلال الحصار الذي دام لأكثر من 12سنة، ثم الحرب الأمريكية سنة،2003 وما خلفته على جميع المستويات وصولا إلى حالة من عدم الاستقرار واللا أمن منذ ذلك التاريخ، بل وحرب طائفية بين السنة والشيعة منذ تلك الحرب، تزداد حدتها يوما بعد يوم مع زيادة تعشش الإرهاب في هذه المناطق، وصولا إلى ظهور تنظيم الدولة الاسلامية لبلاد الشام والعراق (داعش) والذي زاد من تأزم الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط ككل.

ثورات الربيع العربي وآثارها على المنطقة العربية ككل خاصة في سوريا وليبيا والتي كان للدول الغربية دورا كبيرا في تغذيتها، خاصة من خلال تدخل حلف الناتو في ليبيا والذي أدى إلى ظهور الارهاب وعجز كل الأطراف الداخلية والخارجية عن اعادة النظام وحتى الأمن والاستقرار من جهة، كما أن سوريا هي الاخرى عرفت منعرجات خطيرة منذ قيام الثورة سنة 2011 ودعم الغرب للثوار (المعارضة) من أجل قلب النظام لتتحول نفس الأطراف بعد سنة في مفارقة تظهر تناقضات وتلاعبات الاقوى بالأضعف من خلال أنه ومنذ أواخر سنة 2014 ذهبت الدول الغربية ذاتها إلى اعتبار المعارضة والثوار ارهابا والتأكيد على ضرورة دعم نظام بشار الاسد للقضاء على الارهاب في سوريا والمنطقة ككل كذلك تشير الرأسمالية والإمبريالية اللتين بنيتا على الاستغلال والنهب والقهر والعدالة وتداعيات انتشارهما على الطبقات الفقيرة والشعوب الضعيفة، مما أدى إلى ظهور نوع من الفكر الذي يدعوا إلى استخدام اي وسيلة بما في ذلك العنف لمواجهتهما.

طبيعة الدول العربية كدول ملكية أو دكتاتورية أو حتى ديمقراطية بالاسم والتي تكبح الحريات وتخدم مصلحة القوى الاستعمارية على حساب مصلحة شعوبها، مما ساهم بدوره في ثورة الشعوب في بعض الدول كتونس أو مصر...إلخ، بالإضافة إلى الممارسات المشوهة لقيم الاسلام في بعض هذه الدول وانعكاس ذلك لدى الرؤية الشعبوية للشعوب الغربية.

كل هذه الأحداث وغيرها ولدت شعورا دائم بالإذلال والتبعية والتآمر الغربي والتهميش للمسلمين مما أدى إلى ظهور مثل تلك الجبهات التي أعلنت الجهاد ضد اليهود والصليبيين، كالجبهة

الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين والتي أعلن "أسامة بن لادن" عن إنشائها والتي تدعو – كل مسلم يؤمن بالله إلى قتل الأمريكيين والاستيلاء " على ممتلكاتهم أينما وجدوا بالمقابل لم تحاول الدول الغربية بما في ذلك الولايات المتحدة معالجة الأوضاع من منطق الحاجيات الداخلية التي تدخل ضمن الحقوق التي تضمن كرامة الإنسان، خاصة من خلال الصراع العربي الإسرائيلي، بل اعتبرت الولايات المتحدة الأمريكية المقاومة الفلسطينية وحركات التحرير وما تقوم به إرهابا.

في ظل غياب الضمير الانساني الذي أضحى الشيء المشترك بين جميع الدول(المسؤولين) والذي بدأت العدوى تتنقل منهم إلى شعوبهم، مما قد يجعلنا نصنف في تاريخ الأجيال القادمة كسوء جيل مر على هذه الأرض. إنها معادلة صعبة جدا إذا ما اعتبرت المقاومة إرهابا، وإرهاب الدولة الممارس من طرف إسرائيل يوما بعد يوم والمنتهكة لحقوق الشعب الفلسطيني حقا مشروعا، بل واعتبرت الولايات المتحدة إسرائيل الديمقراطية الناجحة الوحيدة في المنطقة والتي ستدعم انتشار الديمقراطية في الشرق الأوسط، وخير مثال على ذلك الانتفاضة الفلسطينية الثانية منذ بداية سنة2002 أين تعيش هذه الأرض في وضع مأساوي من الدم والدموع بصفة يومية جراء العنف والعدوان المتصاعد الوتيرة، والذي ذهب ضحيته آلاف الفلسطينيين في ظل عدم التناسب بين قوة طرفي الصراع فلسطين وإسرائيل التي تمارس جرائم يومية ضد الفلسطينيين المدنيين، هذا بإضافة إلى حملات الاستيطان للأراضي الفلسطينية وبناء الجدار العازل، والتدنيس المستمر للمسجد الأقصى، كل هذه الجرائم التي لا تقارن بالرد الشرعي الفلسطيني الذي يتوافق بدوره مع القوة والدعم العربي والدولي الذي يقتصر هو الآخر على مجرد التنديد بجرائم إسرائيل و تقديم المساعدات الإنسانية، يحضرني هنا السؤال الذي وجهته الناشطة "ميديا بنجمين" من منظمة نساء من أجل السلام للرئيس الأمريكي "أوباما" هل يمكنك أن تقول للفلسطينيين أن حياتكم ثمينة كحياتنا تماما؟، طبعا من الصعب على الرئيس الأمريكي ان يجيب على هذا السؤال، لأنه يدرك جيدا أن هناك فوارق كبيرة أوجدتها تقاليد وعقائد متواصلة لدى الدول الكبرى خاصة الولايات المتحدة في ازدواجية التعامل مع انسانية وكرامة الانسان حسب الانتماء، وهنا قد نتساءل من الذي أدى إلى تكريس فكرة الانتماء؟ من المؤكد أنه نتيجة

لغياب العدل في الطرح والتعامل. في المقابل تثير عدوانية إسرائيل وممارساتها عداوة العالم العربي والإسلامي، والإشكال هنا سواء تعلق الأمر بإرهاب الدولة أو الارهاب السلطوي أو حتى المنظم والذي ظهر من خلال أعمال التنظيمات الارهابية لا يقدم مبررا لإزاحة الانسانية جانبا فتحقيق أي غاية مهما كانت قيمتها لا يبرر قتل الأبرياء ولا انتهاك الحقوق والحريات سواء في فلسطين أو في أي منطقة من العالم، فالواضح أن في زمن العولمة تفعل اللا إنسانية فعلها، كما أوضح محمد كمال في مقال له بعنوان: "مسألة الإرهاب في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا" بقوله: "أن الإرهاب ظاهرة معقدة ومتعددة الأبعاد، ولا توجد نظرية يمكنها تفسير هذه الظاهرة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، كما أن الإرهاب ناتج عن متغيرات كثيرة مرتبطة فيما بينها، ولها علاقة بالهيكلة الداخلية لدول شمال إفريقيا والشرق الأوسط منها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذا العوامل الشخصية والنفسية والإيديولوجية المرتبطة بدورها بالفواعل الخارجية، وكذا حول منطق القوة واستخدامها التعسفي من طرف القوة العظمى في العالم، وقد تم في هذا الشأن لأول مرة تعريف الإرهاب من قبل الأمريكيين في وثيقة إستراتيجية الأمن القومي،2002 بعد أن تم رفض ذلك عدة مرات علي مستوي الأمم المتحدة ، كل هذه الاعتبارات أنتجت تلك الأفكار بأنه: "عنف مخطط مسبقا لتحقيق أهداف سياسية ولقتل الأبرياء والمدنيين" المتعصبة وولدت روح الانتقام لدى من أصبحوا إرهابيين ليس بالفطرة، بل نتيجة لتأثيرات داخلية نابعة من طبيعة الأوضاع السيئة التي يعيشونها من جهة، ونتيجة تأثيرات خارجية نابعة من ممارسات وسياسات القوى الكبرى، والتي نضجت فأعطت مردودا سلبيا هو الإرهاب، وهذا ما أغفلته نظرية صدام الحضارات في تفسيرها لأسباب الصدام كما هو عليه والعنف والارهاب " الذي يعتبر قديما كممارسة وجد قبل 2000سنة إلا أنه لم يكن ذوا طابع عالمي كما نعرفه اليوم.

<u>ثانيا:</u> أطروحة المؤامرة على الإسلام والمسلمين: إن الإشكال المطروح حول أحداث 11سبتمبر2001 هو التصور الذي طرح والذي جرى من خلاله تعميم للعنف العالمي، والاستفادة منه بقدر المستطاع من طرف القوة العظمى (الولايات المتحدة الأمريكية) لتنفيذ إستراتيجيتها في منطقة الشرق الأوسط خاصة والعالم بشكل عام، من خلال بروز الولايات المتحدة كضحية

غدر به، هكذا أعلنت هذه الأخيرة عن حربها العالمية ضد الإرهاب ومطاردتها له أينما وجد، في الوقت الذي لم يكن حتى هذا المفهوم(الإرهاب) يحمل معنا واضحا أو تعريفا محددا ومتفق عليه رغم وجود بعض الدول التي نادت بضرورة محاربته وحاولت تدويله من خلال منظمة الأمم المتحدة كالجزائر، وذلك منذ بداية تسعينات القرن20 نتيجة استفحال هذه الظاهر داخلها، إلا أن الكثير من دول العالم بما في ذلك الولايات المتحدة قامت بعزل هذه الدولة ولم تأخذ نداءاتها بعين الاعتبار، إلا منذ تعرضها للعمليات الإرهابية على إثر أحداث11سبتمبر،2001 أين رأت أنها ظاهرة عالمية يمكن أن تعاني منها أي دولة في هذا العالم. وتنفيذا للخطاب الأمريكي تم تشويه صورة المسلمين في العالم وسوء معاملة المهاجرين المسلمين خاصة في دول أوربا الغربية وأمريكا، ولعل الشيء المثير للجدل هنا هل الإرهاب وجد فقط لدى الأصوليين المسلمين أو (الراديكاليين)؟، لعل من الأرجح العودة إلى تاريخ أمريكا نفسها الغني بالممارسات الإرهابية فليس ببعيد مثلا : حينما مارست الولايات المتحدة الأمريكية حرب إبادة ضد الشيوعيين في كل مكان، حيث: "تمت تصفية آلاف الشيوعيين جسديا في إيران و200ألف في جواتيمالا ونصف مليون في اندونيسيا...وغيرها، وحتى ذلك الحين لم يكن دعم والأمثلة على ذلك كثيرة، حيثُ قامت الولايات المتحدة بأعمال عنف وتخريب و الإرهابيين عملا لا أخلاقيا بالضرورة" وخطف وقتل ضد نظام "فيدال كسترو"Castro Fidel في كوبا وفي نيكاراجوا. وفي إطار الحرب الباردة شجعت الولايات المتحدة عن طريق وكالة المخابرات المركزية "بدعم من طرف كل من المملكة العربية السعودية وباكستان على قيام ألوية إسلامية يتم تجنيدها في العالم الإسلامي لخدمة مصالح أمريكا، ، منهم والتي تتألف ممن أطلقت عليهم وسائل الإعلام حين ذاك تسمية "مقاتلون من أجل الحرية "Fighters Freedom" المجند في أفغانستان "أسامة بن لادن" مؤسس نظام الطالبان هناك، والذي تحولت تسميته من مقاتل من أجل الحرية إلى أكبر إرهابي بسبب عدم استمراره في خدمة المصالح الأمريكية، وباعتباره العقل المدبر لأحداث 11سبتمبر بل وتستمر الولايات المتحدة اليوم في دعمها لإسرائيل في إطار حرب الإبادة التي يمارسها الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين من قتل وتعذيب، بل أكثر من ذلك تستمر في تقديم الدعم المادي والذي يزيد سنويا عن 3مليار دولار. كما استمرت الولايات المتحدة في فرض عقوباتها

على النظام العراقي منذ حرب الخليج سنة1991 رغم مطالب الرأي العام العالمي وخاصة العربي والإسلامي بوقف الحصار الذي ذهب ضحيته مئات الآلاف العراقيين، منهم أطفال أبرياء اعتبرت وزيرة الخارجية في عهد الرئيس "بيل كلنتون" "مادلين أولبرايت" عندما سؤلتا عن الأبرياء من الأطفال العراقيين الذين يقتلون يوميا جراء الحصار أنه الجزاء وأنه ثمن الحرية الذي لا بد من دفعه، كل هذه هي مجرد بعض الأمثلة التي تبين لنا أن الإرهاب وإن ارتبط منذ أحداث 11سبتمبر2001 بالإسلام الراديكالي، فإنه سابق الوجود لدى الدولة التي أعلنت الحرب عليه منذ تلك الأحداث، باعتبارها هي التي مارست وصنعت الارهاب خاصة في منطقة الشرق الاوسط. إن المفارقة الصعبة هنا هي أنه حتى الأصولية الإسلامية وتنظيم القاعدة وتحديدا منظم هجمات 11سبتمبر، قد سبق ودربته المخابرات الأمريكية للانتصار على الاتحاد السوفياتي في حربها ضده في أفغانستان في إطار ما عرف بمحاربين من أجل الحرية، بل إن هذا الإرهاب قد تعشش وازداد بفعل الممارسات الأمريكية في العالم الإسلامي والشرق الأوسط خصوصا، وقد عبر عن ذلك "أحمد أركون" بقوله: "أنها الوليد التاريخي لخصومة قديمة بين المسيحية ، لذا فإن العالم يسير باتجاه تحديد طبيعة العلاقة بين العالم الإسلامي وغيره من دول العالم وفقا للنظرة التي تشوه المسلمين والإسلام" يجري الترويج لها والقائمة على اعتبار المسلمون هم مجموعة من المتدينين والمتشددين والمتطرفين، الذين ينفسون عن أوضاعهم خاصة منها النفسية التي ترتبط بالإحباط والفشل بالهجوم والعنف وممارسة الإرهاب على غيرهم من شعوب العالم، إلا أنه من خلال توجس حقيقة هذا الخطاب نجد أنها مجرد تجسيد لمبدأ ضرورة إيجاد بديل للعدو السوفياتي من جهة، وضرورة تحقيق المصلحة الاقتصادية الأمريكية من خلال تغيير بعض الأنظمة المعادية كالنظام العراقي الإيراني والسوري، وعلى العموم فان هذه الأحداث قد خدمت المشروع الأمريكي اتجاه العالم (المحافظين الجدد ببناء إمبراطورية أمريكية تتولى قيادة العالم)، فهي فرصة جيدة لإعادة ترتيب أوضاع العالم خاصة في المناطق الجيو - إستراتيجية.

من خلال هذا يمكن الخروج بالنتائج التالية:

من المؤسف أن يصل العالم اليوم إلى هذا الواقع الذي ينطبق على الوصف الذي قدمه ألبرت كموس "بقوله:" نحن نعيش في عصر سبق الاصرار والجريمة الكاملة مجرومنا لم يعودوا

صبية قليلي الحيلة يزعمون ان دافعهم الحب، بل على العكس من ذلك إنهم بالغون ولديهم عذر محكم بالبراءة، فلسفة يمكن استخدامها لأي غرض حتى لتحويل المجرمين إلى قضاة" .

أن الإرهاب اليوم ليس وليد الأصولية الإسلامية بقدر ما هو وليد الدول التي تحاربه، والتي ساهمت في فترات سابقة على إيجاده ومارسته بطرق أو بأخرى، فالإرهاب يضرب بجذوره في العقيدة الصهيونية من خلال إرهاب الدولة، وساهم الدعم الأمريكي لها وممارساتها في بناء الأرضية اللازمة لنموه وانتشاره ضمن ديانات أخرى كالإسلام، فالولايات المتحدة تقف بل وتدعم أكبر دولة ممارسة للإرهاب منذ نشأتها(إسرائيل) في منطقة الشرق الأوسط وأن آلاف الأبرياء من الفلسطينيين يقتلون على أيدي الجنود الإسرائيليين في عمليات اقتحام واستيطان أمام أعين أمريكا والعالم، والتي أعلنت بالمقابل عن إقامتها لنظام عالمي أكثر عدالة على حد تعبير كل الرؤساء الأمريكيين.

إن الاشكال الاساسي اليوم هو انقلاب القيم المرتبطة بالنظرة الموحدة لطبيعة الانسان بغض النظر عن دينه أو عرقه أو عقيدته او انتمائه، فما يقوم به الإرهاب اليوم قد قامت به دول أخرى في مناطق كثيرة من العالم، ولا يتم محاربته أو النظر إليه باعتباره إرهابا أو عملا لا أخلاقيا بل منها ما اعتبر دفاعا عن الحرية.

إن سياسة الولايات المتحدة في إطار الحرب الباردة وما بعدها قد ولدت كراهية كبيرة لها، خاصة من طرف شعوب دول الشرق الأوسط، وهو ما عبر عنه الرئيس "بوش الابن" على اثر خطابه بعد هذه الأحداث عن الكراهية التي تكنها بعض الشعوب لأمريكا "وقد أشار التقرير الذي أعده مجلس العلوم الدفاعية سنة2004 أن المسلمين لا يكرهون ، ورغم ذلك فان فكرة صدام الحضارات أصبحت أكثر المقاربات رواجا حرية أمريكا إنما يكرهون سياستها" لتفسير طبيعة العلاقات الدولية في القرن21 "فالحقيقة تثبت أن هذه الأحداث تكشف عن توترات باطنية هي توترات النظام العالمي...،إلا أنه يجرى الآن تعميمها بشكل تعسفي لتأخذ شكل عنف عالمي يبث المصداقية في مقولة صدام ، خاصة مع المغالطات الفكرية التي تنبع من تفسير ما نوي قائم على النظرة الثنائية للأشياء (نحن الحضارات" والآخر). إن كل الأحداث الارهابية منذ أحداث

11سبتمبر تكشف لنا عن التطورات والاختلالات العميقة في النظام العالمي القائم، والتي أدت إلى بروز صفتين أساسيتين للعنف الممارس هما:-

الجهة التي تمارس هذا العنف خاصة عندما تكون هذه الجهة غير معروفة ولا يمكن تحديدها بدقة، فهي ليست دولة ما أو طرف معروف ولكن هي جهات لها أفكار ومعتقدات لا تتوافق مع ما يطرحه النظام العالمي من أفكار وقيم.

مذاهب دموية: دموية ووحشية هذا العنف الذي تجاوز كل الاعتبارات ضمن مفهوم ومضمون الانسانية التي يفتقدها العالم أي الانسان يوما بعد يوم، فالواضح أن مقولة "كار ماركس" الشهيرة حول النظام الرأسمالي الذي يحمل بذور فنائه بداخله تنطبق على مفهوم الانسانية التي أصبحت تحمل بذور فنائها بداخلها من خلال تعميم ودموية المذاهب الإنسانية.

إن النظام العالمي اليوم يتجه نحو الفوضى العارمة، في ظل تعدد التنظيمات الارهابية خاصة الارهاب الجديد في الشرق الاوسط والذي يدعوا إلى اقامة دولة اسلامية لا تعترف بأي التزامات دولية، بما في ذلك قواعد النظام الدولي التي استقر عليها إلى حد ما منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والإشكال أن التطرف والأصولية لا يقتصران على دين معين من خلال الصورة الاعلامية والدعاية التي تروج لصورة مشوهة للأحداث في اتجاه واحد، من خلال الطرح المشوه للإسلام والمسلمين بشكل عام دون أخذ بعين الاعتبار أنه انحراف قام به مجموعة هم قلة من المتطرفين الذين انحرفوا عن هذا الدين العظيم، أين يمكن ببساطة العودة إلى الكثير من الأفكار التي راجت والتقارير والكتابات وحتى الاحصائيات التي تحاول تعميم التطرف واعتبار الدين الاسلامي ليس دين سلام، والتي أدت إلى تشويه ثقافة بأكملها وجعلها تبدوا شيطانية حتى تكسب تعاطف وتأييد الآخرين في الحروب التي قامت بها منذ بداية القرن 21 والتي هي بدورها تلوح براية الحرب المقدسة المتطرفة.

إن الاصولية والتطرف بمفهومهما الواسع لا يرتبطان بديانة معينة بل حتى الايديولوجيات التي تدعي الحرية تحمل في جذورها تشددا وتطرفا خاصة من خلال تصعيدها لمضمون العقيدة المناوئة التي تنظر إلى طبيعة الاشياء من خلال ثنائية التضاد بين الشيء وضده، بل وتعبئ الكراهية بين الشعوب، وهذا ما يجعلنا نتساءل هل يمكن تجريد الايديولوجية الليبرالية من

الأصولية، خاصة مع تهويلها للتهديد القادم من الحضارة الإسلامية؟ ألا يمكن النظر إلى حروب القرن21 التي أطلق عليها تسمية الحروب المقدسة على أن مرجعيتها هي المذهب الأصولي الذي نبعت منه؟ وتلك الحروب قامت بها دول ليبرالية فهل هذا يعني أن اللبرالية هي بدورها مذهب أصولي؟ خاصة إذا عمدنا إلى المنطق الذي نادى به المحافظين الجدد أو حتى اللبراليين الجدد ضمن مضمون نظرية السلام الديمقراطي، أين الغايات السامية حسبهم تبرر الوسائل المستعملة مما يجعل من أبعاد الأصولية السياسية تجد مكانا لها ضمن هذه الايديولوجية، خاصة من خلال عقيدة "بوش الابن" بخوض حروب استباقية ضد الشر والتي ولدت شرا أكبر منه، أليست هذه أصولية ترد على أصولية أخرى؟ أوليس لتلك الاصولية يد في ايجاد أصولية تجابهها ستقود في نهاية المطاف إلى صراع قد يعم العالم بأسره لا يعرف فيه الظالم من المظلوم.

طرق وأساليب السيطرة علي العالم في العصر الحديث:

ومن الأمثلة علي صراع الحضارات الاستعمار الحديث مصطلح مستخدم للدلالة على الهيمنة على منطقة ما دون تدخل عسكري مباشر، يتمثل في هيمنة الدول الكبرى على الدول الصغرى اقتصاديًا وثقافيًا من خلال هيمنتها على المواد الأولية والمواد المصنعة بواسطة الشركات الأجنبية وهيمنتها على التكنولوجيا الحديثة والنظام الاقتصادي العالمي ووسائل الإعلام، ويعرف هذا الاستعمار بالاستعمار المقنع.

ومن أهداف الاستعمار هي احتلال البلاد والمكث فيها زمناً طويلاً ومحاولة الهيمنة على مقدرات الأوطان والشعوب ، وقد تطور إلى الاحتلال الفكري والاقتصادي بل تحول إلى العولمة التي تفرض كل مكوناتها على الأمم الأخرى.

أهداف واساليب السيطرة علي العالم:

1- فصل الدين عن الدولة حين يحكم البلاد.

2- افتتاح المدارس والجامعات والمعاهد الموالية له وبلغته.

3- التخطيط للتعليم العلماني، ونجحوا في ذلك كل النجاح في بعض بلاد المسلمين.

4- إخضاع نظام البلاد للقوانين الوضعية.

5- إبعاد التعليم الإسلامي.

6- إلغاء القضاء الشرعي.

7- إفساد أخلاق الشعوب المسلمة، بفتح بيوت الدعارة، وحوانيت الشرب.

8- زرع ما يسمى بحرية الأخلاق، وإفساح المجال للمرأة حتى إنهم يجعلون من المرأة المحاربة للدين بطلة من الأبطال.

9- نشر أسلوب الحياة الغربية الإباحية.

10- نشر لغة المستعمر.

10- استغلال خيرات البلاد.

11- وضع السلطات بأيدي النصارى أو المفرغين من الحماس الإسلامي والموالين للمذاهب الغربية.

12- إثارة الفتن والنعرات وتقسيم البلاد.

13- السيطرة على وسائل الإعلام.

14- دس الدسائس لإثارة الحروب.

15- القضاء على حركات الإصلاح.

16- تربية أجيال موالية للغرب.

نتائج الاستعمار الحديث علي العالم العربي:

لقد مر العالم الإسلامي في هذا العصر بما يشبه التيار الجارف، أو العاصفة العاتية التي تخيف الإنسان وتذهله، إنها أحوال تذهل المفكر والعالم المتبصر وتزعج السياسيين الدهاة، ويحار فيها الفرد، وتضل منها العقول، فنجد أنفسنا أمام اضطراب فكري هائل، لا ندري أين الصحيح؟

فالدولة أصبحت في حالة يرثى لها حتى وصفت بأنها الرجل المريض الذي أنهكته الحروب وتكالب الدول بينما أوروبا كانت في أوج قوتها، فحاول الأعداء توجيه اهتمامهم إلى بلدان العالم الإسلامي ولاسيما العربية منها لاستنزاف خيراتها، وكان النصارى لا يرون خطراً عليهم أعظم من هذا

الدين الإسلامي، فجاؤوا بخيلهم ورجلهم محاولين اقتسام تركة هذا الرجل المريض، فغزوا العالم الإسلامي بالفكر والقوة والاقتصاد وولجوا إليها من جميع النواحي كالتعليم الديني وغيره.. وبدعوى حماية الأنصار الموجودين في العالم الإسلامي وبدعوى مساعدة العالم الإسلامي وتعليمه وبناء المدارس.

وكان أول دخولهم عن طريق لبنان من خلال المدارس التبشيرية، وهي مدارس تتبنى العربية وتدافع عن العرب، فظهرت القومية العربية، وكانت البداية من لبنان.

وقد بدأ الاستعمار بحملة نابليون بونابرت، تلك الحملة الفرنسية التي توجهت إلى مصر عام 1798م 1213ه وجاءت بهدف التعليم الذي منعته الدولة العثمانية، وكانت الحملة معدة إعدادا فكريا علميا أبهرت العرب والمسلمين في مصر، فكوّن نابليون مجلس شورى (برلمان) وقام بأنواع التجارب العلمية والتطور التكنولوجي، وأتى بمطبعة، وأصدرت الحملة صحيفتي (الستار المصري) و(بريد مصر) وكانت دعواهم أنهم يريدون تنوير بصائر الناس، وقد ثار الأزهريون في وجه هذه الحملة، لأنهم أدركوا مغبة ما وراءها. فتكونت ثورة قوية من المصريين كان زعيمها عمر مكرم، وكان من الجيش والجنود الذين جاؤوا من تركيا محمد علي باشا...

وقد قسم الاستعمار الدول العربية على النحو التالي:

- احتلال فرنسا للجزائر كان عام (1830م/ 1246هـ) ومكث في الجزائر ما يقارب (120) سنة وتعرف الجزائر بذات المليون شهيد.
- أما تونس فاحتلتها فرنسا عام (1881م/ 1299هـ).
- أما مراكش فكان احتلال فرنسا لها عام (1912م/ 1330 هـ)، ويقصد بها المغرب.
- أما بلاد الشام فكانت سنة (1920م/ 1338 هـ) ثم جاء الاستعمار الانجليزي (البريطاني) فاقتطع كثير من بلاد أهل الإسلام، فاحتل مصر عام 1300هـ 1882 م وبعد ثورة أحمد عرابي على الخديوي توفيق، وقد ادعت بريطانيا أنها تريد حماية رعاياها في مصر، وقد زاد نفوذهم على مصر بعد أن ضعفت الزعامة الباشوية في عهد أبناء إسماعيل باشا، وقد طالب أحمد عرابي بتنظيم مجلس الشورى (البرلمان)، وكان الخديوي توفيق قد أذعن لذلك، فتدخلت بريطانيا بحجة الحماية، وقامت بنشر التعليم باللغة الإنجليزية وألغت اللغة العربية بقيادة (كرومر) وجردها من

الإسلام من خلال التعليم. ثم احتلت العراق سنة 1914م 1332هـ زمن احتضار الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم فلسطين عام 1918م 1337 هـ، وقد كان هذا التقسيم ناتج عن مؤتمر (سايكس بيكو) بين دول التحالف عام 1914م.

ومن نتائج الاستعمار على الوطن الإسلامي:

- تقطيع العالم العربي والإسلامي إلى دويلات صغيرة وأقاليم.
- إلغاء الخلافة الإسلامية والدعوة إلى العلمانية بفصل الدين عن الدولة، زاعمين أن النهضة منوطة بالتجرد من الدين.
- سلب الدين: وهو إبعاد الناس عن دينهم، وكان هذا جراء تسليم المستعمرين السلطة لمن تأثر بهم من أهل البلاد، مما سبب قيام الثورات العسكرية في بلاد الإسلام (مصر الجزائر الشام)، وتدعو الثورات تلك إلى الاشتراكية أو العلمانية، ولم نجد ثورة تدعو إلى الحكم بكتاب الله، وهذا السلب الديني يتمثل في أشياء كثيرة منها الإفراط بالدعوة إلى حرية المرأة ومنها الحرية المطلقة منذ الطفولة والمراهقة، الغزو الفكري، التهاون في الأخذ بالإسلام.... وغير ذلك.
- زراعة الفرقة بين المسلمين من خلال إشعال فتيل الأحزاب والطوائف والعنصريات والقوميات والمذاهب الدينية، مما أوجد حزازات بين المسلمين فيما بينهم.
- الاستبداد بالأموال والثروات.
- التخلف عن مسايرة الركب التطوري والرقي الحضاري.
- زرع الأنظمة العسكرية التي لا تعني بالدين ولم تلتزم بالقانون، وقد تميز حكمها بالاستبداد والضعف الاقتصادي.
- هدم القيم والأخلاق، وإشاعة الرذيلة والفحش في المجتمعات الإسلامية

مثال للاستعمار الحديث (الولايات المتحدة الأمريكية) للسيطرة علي العالم .

الحديث عن المقدرات التي تمتلكها الولايات المتحدة الأمريكية "الطبيعية وغيرها" يحتاجُ إلى الكثير من الحبر لتدوينه، ولكنها ليست الوحيدة في العالم من تمتلك مقدراتٍ كبيرة، غير أن المختلف أنها تُحسن استغلال والحفاظ على تلك المقدرات وإن كان في الكثير من الأوقات بطرقٍ

غير مشروعة وغير شريفة، لتجعلها أداةً من أدوات قوتها السياسية والعسكرية. وأمام هذا الواقع نبدأ بمحاولة الإجابة عن التساؤل الكبير الذي يشغل بال الكثيرين شعوباً أو سياسيين، وسوف نحصر الحديث عن كيفية سيطرة "واشنطن" على العالم بالتالي:

أولاً: احتكار تجارة السلاح: تُدرك الإدارة الأمريكية أن من يتحكم في تجارة السلاح على مستوى العالم، يمكنه ليس فقط تحصيل أموالاً طائلة للخزانة الأمريكية، وإنما التأثير في صناعة القرار الدولي، ولذلك فإن "واشنطن" منذ عقودٍ طويلة من الزمن تحرص على أن تعمل بسلسلة متوالية لجلب المال وتحقيق قوة القرار الدولي، وهذا يعتمد على مجموعة من الحلقات المترابطة بعضها في البعض الآخر، يبدأ بإنتاج السلاح الفتاك والمدمر، وينتقل بعدها للبحث عن أسواق لترويج هذا السلاح وهذا يعتمد على ضرورة خلق نزاعات مسلحة بين دولٍ أو جماعات وفي الكثير من الأحيان يؤدي لإنتاج تنظيمات متطرفة، وهذه الخطوة تؤدي لاقتناص مجموعة من العصافير وبحجرٍ واحد فقط، فمن خلال صناعة النزاعات بين القبائل والشعوب تحقق الإدارة الأمريكية التالي:

1- إيجاد أسواق جديدة لتسويق منتجات أسلحتها المدمرة.

2- السيطرة على ثروات الشعوب وخيراتها. فبينما تكون تلك الشعوب مشغولة بالتناحر فيما بينها تكون الشركات الأمريكية وجدت طريقها إلى خيرات تلك الشعوب.

3- إبقاء الشعوب المتناحرة بعيدةً عن أفق وحدةٍ سيكون المتضرر الأول منها الإدارة الأمريكية وهذا ما يحدث في الوطن العربي منذ عقود طويلة "على سبيل المثال" سيطر عليها الشقاق والتناحر وسرقة خيراتنا ومواردنا الطبيعية وغيرها.

ثانياً: السيطرة على الثروات: تدرك الإدارة الأمريكية كذلك أهمية السيطرة على الخيرات والثروات المختلفة، ولعل أهم تلك الموارد التي تُقاتل جيوشها باستمرار لبقائها تحت تصرفها يتمثل في التالي:

1- السيطرة على النفط بمشتقاته المختلفة، ولذلك وبنظرة فاحصة على الحروب والنزاعات والتوتر السياسي بين الدول والشعوب، تقف الإدارة الأمريكية وراء الكثير منها لإدراكها بأن من

يتحكم في كميات النفط عنده فذاك يؤدي طبيعةً للتحكم بالتطور والتنمية الصناعية على مستوى العالم.

2- السيطرة على إنتاج القمح، وهي الوسيلة الثانية الأهم في السيطرة على الموارد التي تغطي من خلالها الولايات المتحدة الأمريكية مناطق واسعة في العالم، بل وتحتكر انتاجه وتسويقه وإن كان بقوة السلاح؛ فهي تُدرك أن من يتحكم بالقمح كذلك يتحكم بالجوع والموت. إن معنى السيطرة على القمح يعني باختصار بأن الجائع لن يبحث عن عمل سياسي وحفاظ على مقدرات البلد من سارقيها، وإنما سيكون جُل اهتمامه للبحث عن رغيف خُبز يسدُ به رمق أطفاله، وهكذا تفعل الإدارة الأمريكية، فهي تُنفق من القمح بالقدر الذي تحرف أنظار الشعوب عن كل شيء باستثناء الخبز، وبالتوازي مع ذلك فإن باقي موارد تلك الشعوب تجد طريقها إلى المخازن الأمريكية في مقابل القليل من الطحين الذي لا يسدُ إلا القليل من الجوع.

من يدرس ويقرأ الأزمة الأمريكية التركية الأخيرة، سيصل إلى نتائج مُخيفة بأن جذور الأزمة لا يعود منبعها لمجرد احتجاز قِس أو غيره، إنما المسائل الخفية ترجع للتطور الهائل بالصناعات التركية وبخاصة العسكرية منها

من يدرس ويقرأ الأزمة الأمريكية التركية الأخيرة، سيصل إلى نتائج مُخيفة بأن جذور الأزمة لا يعود منبعها لمجرد احتجاز قِس أو غيره، إنما المسائل الخفية ترجع للتطور الهائل بالصناعات التركية وبخاصة العسكرية منها:

ثالثاً: مؤسسات الشرعية الدولية: وكي تكون كل الإجراءات التي تقوم بها الإدارة الأمريكية في العالم مُغلفة بغلاف القانون وحقوق الإنسان، فقد حَرِصت على أن يتواجد على أراضيها أهم المؤسسات الدولية التي تُسيطر على القرار الدولي، وتُقسِم دول العالم إلى شرعية، أو أنها من أعداء وخصوم النظام الدولي العالمي، إننا نقصد بهذا الحديث في المقام الأول مجلس الأمن الدولي.

رابعاً: السيطرة على الإعلام العالمي: ولأنها السلطة الرابعة، بل باتت تتخطى تلك المرتبة في القرن الجديد كما يصنفها البعض، فقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية معنى أن يكون لك إعلامٌ

قوي ومؤثر على مستوى العالم، وهي تعتقد بأن الإعلام القوي بات يختصر عليها الكثير من المعارك العسكرية والإنابة عنها بمعارك تقوم بها وسائل الإعلام الأمريكية، حيثُ يُسمح لهم من خلال وسائل الإعلام التحكم في وجهة نظر الشعوب ونشر البروباغندا التي يُراد نشرها والحرب النفسية والدعاية السوداء التي تؤثر سلباً على الشعوب المستهدفة أمريكياً.

إن من يدرس جيداً ويقرأ الأزمة الأمريكية التركية الأخيرة، سيصل حتماً إلى نتائج مُخيفة بأن جذور الأزمة لا يعود منبعها لمجرد احتجاز قِس أو غيره، إنما المسائل الخفية ترجع للتطور الهائل في الصناعات التركية وبخاصة العسكرية منها والتي باتت تجد طريقها إلى العالمية، وهو خطرٌ تنبهت له الإدارة الأمريكية من عدة جوانب:

1- التطور العسكري التركي سيعني بالأساس الاستغناء عن استيراد السلاح الأمريكي.

2- التطور العسكري التركي يعني استمرار توغل النفوذ التركي على الأراضي السورية والعراقية، ومحاولة إيجاد موطئ قدم لها على كعكعة تُحاول الإدارة الأمريكية وغيرها من الأطراف ألا يُنازعها فيها أحد.

3- التطور العسكري والاقتصادي الأمريكي بات يتمدد بطريقة تُثير القلق لدى الإدارة الأمريكية التي رصدت مارداً يرتقي سريعاً ويكسر طوق الطاعة الأمريكي، الأمر الذي سيهدد المصالح الأمريكية الدولية.

وللتعرف على كيفية تعامل الإدارة الأمريكية مع دول العالم، "في أميركا 1 في المائة من الشعب يملك 40 في المائة من الثروة القومية، وفي العالم 75 في المائة من الثروات الطبيعية موجودة في العالم الثالث، ولكن يُسيطر عليها وتستهلكها 25 في المائة من شعوب العالم".. وفي مقدمتها طبعاً الولايات المتحدة الأمريكية، غير أن الأهم أن تلك السيطرة تتم بقوة السلاح والإعلام وطعام والجوع، فأي ديمقراطية تلك التي تقود العالم؟

خامسا:ظهور نظام العولمة الحديثة للسيطرة علي العالم:

يعتبر مفهوم العولمة واحدًا من أبرز الظواهر التي طرأت على العالم في العصر الحديث، فهي تمثل انصهار العالم في بوتقة واحدة من خلال نشر الثقافات والمعتقدات والأفكار عبر الحدود الجغرافية. ولكن هل العولمة حقًا بركة أم نقمة؟ تكمن الإجابة في فهم أبعادها وتأثيراتها المتعددة.

- إيجابيات العولمة:

التواصل والتبادل الثقافي: تساهم العولمة في تسهيل التواصل بين الشعوب والثقافات المختلفة، مما يؤدي إلى تبادل الأفكار والمعارف والتقاليد بشكل أوسع. يمكن أن يساعد هذا التبادل على تعزيز التفاهم المتبادل والتسامح والاحترام بين الشعوب.

الفرص الاقتصادية: تفتح العولمة آفاقًا جديدة للتجارة والاستثمار عبر الحدود الوطنية، مما يساعد على توسيع الأسواق وزيادة الفرص الاقتصادية للشركات والأفراد على حد سواء. قد يؤدي ذلك إلى نمو اقتصادي وخلق فرص عمل جديدة.

نقل التكنولوجيا والمعرفة: تسهل العولمة انتشار التكنولوجيا والمعرفة العلمية عبر العالم، مما يساعد على تبادل الابتكارات والتقدم التقني بشكل أسرع. يمكن أن يحسن هذا مستوى المعيشة ويساهم في حل التحديات العالمية مثل الأمراض والفقر.

التنوع والإثراء الثقافي: من خلال التفاعل مع الثقافات المختلفة، يمكن للأفراد أن يكتسبوا فهمًا أعمق لتراثهم الخاص وتقديره، بالإضافة إلى الاستفادة من التنوع الثقافي الغني الذي تقدمه العولمة.

- سلبيات العولمة:

تآكل الهوية الثقافية: قد تؤدي العولمة إلى تهديد الهويات الثقافية التقليدية والتراث المحلي حيثُ يتم استبدالها بثقافة عالمية موحدة تهيمن عليها القوى الغربية الكبرى. يمكن أن يؤدي هذا إلى فقدان التنوع الثقافي وتراث الشعوب.

عدم المساواة الاقتصادية: على الرغم من الفرص الاقتصادية التي تتيحها العولمة، إلا أنها قد تؤدي أيضًا إلى زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء، حيثُ تستفيد الشركات الكبرى والدول الغنية بشكل أكبر من الدول النامية والفئات الاجتماعية الأقل حظًا.

التأثيرات البيئية السلبية: قد تساهم العولمة في زيادة التلوث البيئي والاستغلال المفرط للموارد الطبيعية، نظرًا لزيادة التجارة والإنتاج الصناعي على نطاق عالمي. كما قد تؤدي إلى انتشار الأنماط الاستهلاكية غير المستدامة.

انتشار الأفكار والقيم السلبية: بينما تسهل العولمة انتشار الأفكار والمعارف الإيجابية، إلا أنها قد تساهم أيضًا في نشر الأفكار والقيم السلبية مثل العنصرية والتطرف والجريمة المنظمة عبر الحدود الوطنية.

الحاجة إلى توازن:

في ضوء هذه الإيجابيات والسلبيات، يتضح أن العولمة هي سيف ذو حدين، وأن التحدي الرئيسي يكمن في إيجاد توازن بين الاستفادة من فوائدها وتجنب آثارها السلبية. يجب علينا أن نحافظ على هوياتنا الثقافية وتراثنا المحلي، في الوقت الذي نفتح فيه أذرعنا للتبادل والتعلم من الثقافات الأخرى.

كما يجب أن نسعى إلى تحقيق عولمة أكثر إنصافًا وعدالة، تضمن توزيعًا أكثر عدلًا للفرص الاقتصادية والثروات، مع الحفاظ على البيئة والموارد الطبيعية. ينبغي علينا أيضًا أن نكون يقظين لمخاطر انتشار الأفكار والقيم السلبية، ونعمل على ترسيخ قيم التسامح والاحترام المتبادل. في النهاية، العولمة هي قوة لا يمكن إيقافها أو منعها، لذا علينا أن نتعامل معها بشكل حكيم وبعيد النظر. علينا أن نستغل إيجابياتها لصالح البشرية، مع التصدي لسلبياتها بشكل جماعي وفعال. فقط من خلال هذا التوازن، يمكننا تحقيق عالم أكثر ازدهارًا وسلامًا وتضامنًا.

أساليب اليهود للسيطرة علي العالم:

منذ أن بعث الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام واليهود يكايدون لهذا الدين ولنبيه، مع أنهم يعرفون أنه رسول الله حقًّا، ولديهم الأدلة على ذلك، كما ذكر الله عنهم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك كله جحدوا نبوته وأنكروها، وحاولوا النيل من النبي صلى الله عليه وسلم، فحاولوا قتله، وسحروه، ووضعوا له السم، وقاموا بإثارة الفتن بين الأوس والخزرج حتى قال الله تعالى فيهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [آل عمران: 100- 101] وتتبع اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسئلة ليحرجوه، وطلبوا أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد هوَّن الله أمرهم على

رسوله، فقال: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا [النساء: 153]

وعندما فشلوا في إثارة الفتن لَبس بعضهم لباس الإسلام؛ ليطعنوا الإسلام باسم المسلمين: وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [آل عمران: 72].

واستمر كيدهم ونشطوا في عهد عثمان، ولبسوا لباس الإسلام بقيادة ابن السوداء عبد الله بن سبأ، وظلوا يؤلبون المسلمين على عثمان بدعوى أنه ليس أحق بالخلافة، وأن انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى يعني انتقال شخصه إلى علي، كما انتقلت شخصية موسى إلى يوشع، وذهب عثمان ضحية لهذه الفتنة.

وعندما فتح المسلمون الكثير من الأمصار رحب أكثر أهل الذمة من اليهود والنصارى بهذه الفتوح في بلاد العراق والشام ومصر؛ رغبة في الخلاص من الاضطهاد الروماني، حيثُ عاشوا في ظل دولة الإسلام عيشة أحسن من التي كانوا يعيشونها في السابق مع بني قومهم، إلا أنهم لم يتخلوا عن مكرهم وكيدهم؛ فكلما سنحت لهم فرصة اقتبلوها، وبادروا إليها.

وخلاصة القول: أننا لوا استعرضنا التاريخ الإسلامي لوجدنا أن لليهود دوراً في كل فتنة وحدث يضر بالمسلمين، وإن لم يكن الحدث من صنعهم ابتداءً، لكنهم يوقدونه ولو بعد حين.

وهذا ما جعل بعض الباحثين يذهبون إلى أن اليهود وراء كل الفتن والأحداث.

ولا يشك أحد بأن اليهود عملوا جهدهم- ولا يزالون- في الدس والتفريق بين المسلمين، ومحاولة إفساد عقيدتهم وأخلاقهم؛ فالمحققون يجزمون بأن اليهود هم الذين أنشأوا التشيع والرفض ابتداءً، وهم الذين بذروا بذور الفرق الضالة كالمعتزلة والجهمية وسائر الفرق الباطنية كالنصيرية، والإسماعيلية، والدروز، والقرامطة، وهم الذين مهدوا للدولة الفاطمية الشيعية وعن طريقها نشر اليهود البدع القبرية، والطرق الصوفية، والأعياد المبتدعة، كعيد الميلاد، والبدع والخرافات التي سادت في عهد الدولة الفاطمية، ودولة القرامطة وما بعدها، ولما ظهرت القاديانية، والبهائية أيدوها ثم احتضنوها.

وهم الذين ساهموا في سقوط الخلافة العثمانية، ولن ينسى المسلمون ما فعله يهود الدونمة في تركيا حين أظهروا الإسلام، ودخلوا في عمق الخلافة، وكادوا الإسلام؛ فأسسوا الجمعيات السرية للإطاحة بالخلافة، ثم إعلان العلمانية ومكَّنوا لصنيعتهم مصطفى كمال أتاتورك.

عرف اليهود أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا من شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أصل دينه ما يريدون علنا، كما فعلوا بدين النصارى، وكما فعلوا بالأنبياء من قبل من التكذيب المعلن والإيذاء والقتل.

لذلك سلكوا مسلك الكيد الخفي للمسلمين، وصارت لهم اليد الطولي في إثارة الفرقة والخلافات والفتن التي حدثت في التاريخ الإسلامي ولا يزالون.

ويجب أن لا نبالغ- كما يسلك بعض الكتاب والباحثين- لنقول بأنهم هم وراء كل الأحداث والفتن لأنهم أجبن وأضعف من أن يكونوا كذلك.

لكن الذي نجزم به أنهم انتهازيون، وكيدهم متواصل للإسلام وأهله، ولذلك فهم يستفيدون من الأحداث والاضطرابات والفتن، فيكونون من جندها ويوقدونها لئلا تنطفئ، كما أنهم يدعمونها بما يملكون من جهد ووقت ومال.

فإذا استعرضنا التاريخ الإسلامي وجدنا أن لليهود دورا في كل فتنة وحدث يضر بالمسلمين، وإن لم يكن هذا الحدث من صنعهم ابتداء لكونهم يوقدونه ولو بعد حين، وهذا ما جعل بعض الكتاب والباحثين يذهبون إلى أن اليهود هم وراء كل الفتن والأحداث.

ولا يشك أحد بأن اليهود عملوا جهدهم - ولا يزالون - في الدس والتفريق بين المسلمين ومحاولة إفساد عقيدتهم وأخلاقهم، فالمحققون يجزمون بأن اليهود هم الذين أنشؤوا التشيع والرفض ابتداء، وهم الذين أسهموا في بذور الفرق التي حادت عن طريق السنة والعقيدة السليمة: كالمعتزلة، والجهمية، وسائر الفرق الباطنية:س كالإسماعيلية، والنصيرية والقرامطة والدروز. وهم الذين مهدوا للدولة الفاطمية حتى قامت، وحين قامت أيضا عملوا تحت لوائها معززين مكرمين، وصار لهم نفوذ ظاهر وباطن، وعن طريقها تحقق لليهود الكثير من أهدافهم، مثل نشر البدع القبورية والطرق الصوفية، والأعياد المبتدعة - كعيد الميلاد - والبدع والخلافات التي سادت في عهد الدولة الفاطمية ودولة القرامطة وما بعدهما.

ولما ظهرت القاديانية والبهائية أيدوهما ثم احتضنوهما فيما بعد، ولن ينسى المسلمون ما فعل يهود الدونمة في تركيا حيثُ أظهروا الإسلام ودخلوا في عمق الخلافة وكادوا للإسلام فأسسوا الجمعيات السرية للإطاحة بالخلافة ثم إعلان العلمانية المشؤومة (بالحكم بغير ما أنزل الله) وحرب الإسلام من الداخل.

هذه نماذج من دور اليهود في الكيد للمسلمين، ولا يزال كيدهم متواصلا، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

أهداف اليهود:

أهداف اليهود وطموحاتهم لا تقف عند حد؛ فهم يخططون للسيطرة على العالم كله حتى يكون تحت هيمنة مملكتهم إسرائيل التي تم إنشاؤها في فلسطين، والتي يزعمون أن حدودها تكون من العراق شرقاً إلى مصر غرباً- من الفرات إلى النيل- ومن شمال الشام شمالاً إلى يثرب جنوباً.

ويمكن إجمال بعض أهدافهم فيما يلي:

1- تأسيس وتثبيت مملكتهم إسرائيل: بحيث يكون مركزها أور شليم- القدس- وتكون هي منطلق نشاطهم.

وبسبب تخلف المسلمين وبعدهم عن دينهم تمكن اليهود من تحقيق أكثر أحلامهم مع الأسف.

2- التحكم في شعوب العالم، وتسخيرها لخدمتهم؛ لأنهم بزعمهم هم شعب الله المختار، وغيرهم يجب أن يكون مسخراً لخدمتهم.

3- القضاء على المسلمين: لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُون [التوبة: 10] ، وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ... [البقرة: 217]

4- إفساد الشعوب، وتحطيم أخلاقهم بسلاح المنكرات من خمر، وزنى، وكذب، وسينما، وربا وغش، وغدر، وخيانة.

وسائل اليهود ومخططاتهم: يسلك اليهود في سبيل الوصول إلى أهدافهم وسائل شتى ويقومون بمخططات واسعة مدروسة، ومن ذلك:

1- إشعال نار الفتنة بين الحكومات وشعوبها: وذلك عن طريق إغراء الحكومات باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد على الحكومات، ومحاولة إبقاء كل من قوة الحكومة، وقوة الشعب؛ لتبقى العداوة دائمة مستمرة.

2- إغراء الحكام والوزراء والرؤساء بالاستعلاء على شعوبهم والانغماس بالفساد، والرذيلة، والعهر عن طريق النساء، والخمر، والقمار، والرشاوى والمناصب، والمؤامرات، والفتن.

3- استعمال العنف والإرهاب في حكم العالم: فهم يصرحون بذلك في بروتوكولاتهم كقولهم: خير النتائج في حكم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب.

4- إشاعة الفوضى والخيانة؛ ليتردى العالم، وينحط، ويسهل التحكم به.

5- العمل على تحطيم عقيدة الولاء والبراء في نفوس المسلمين باسم السلام والتطبيع؛ لكي يزول حاجز النفرة منهم.

6- استغلال أجهزة الإعلام، وتوجيهها وجهة تخدم مصالحهم، بأن تكون هابطة أخلاقيًّا، ومضللة سياسيًّا، ومذبذبة فكريًّا.

7- التحكم بالاقتصاد العالمي: وذلك بامتلاك أكبر عدد من المؤسسات والشركات والبنوك، واحتكار الذهب، ومضاعفة الأعمال الربوية، وتشجيع الأنظمة الرأسمالية الربوية، والضرائبية، والاشتراكية التأمينية المحطمة.

8- نشر المبادئ الهدامة والجمعيات السرية التجسسية، والأحزاب المتطرفة والحركات الثورية وتشجيع عصابات الخطف والاغتيالات.

9- السيطرة على الدول النصرانية والشيوعية؛ لتكون أداة مسخرة تخدم أهدافهم، وتحمي دولة إسرائيل الناشئة.

وهذا ما حدث فعلاً من بعض الدول خاصة بريطانيا، وأمريكا، وروسيا.

هذا شيء من أهدافهم ومخططاتهم، وقد عملوا وجَدُّوا في تحقيق ذلك، وحقَّقوا الكثير، ولم يكن ليتحقق لهم ذلك إلا بعد أن غفل المسلمون عما يدور حولهم.

ومتى ما رجع المسلمون إلى رشدهم، وآبوا إلى ربهم فلن تقوم لإسرائيل قائمة بإذن الله.

الخاتمة

ان التاريخ نوع من الأدب فهو يهتم بالتدوين القصصي للأحداث. والقصة نوع من الإنشاء الأدبي وهو فن يحتاج إلى براعة الكاتب ليظهر لنا القصص التاريخية بمظهرها المناسب.

ويرى كثير من العلماء والمفكرين القدماء والمحدثين، من أمثـــال : أفلاطون وهيجـــل وماركس وأوجست كونت، أن التاريخ علم يبحث في الماضي ويتبع تطور المجتمعات في العصور السابقة.

ويخلص المؤرخ الإنجليزي بيوري الموضوع بقوله: إن التاريخ علم لا أقل ولا أكثر.

ويرد هرنشو على مَن قال : إن التاريخ ليس بعلم، بقوله: " إنه على الرغم من أنه لايمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم ، ويرى أنه يكفى في إسناد صفة العلم إلى موضوع ما أن يمضى الباحث في دراسته، مع سعيه إلى توخي الحقيقة وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس، وباعد نفسه عن كالافتراض سابق، مع إمكانية التصنيف والتبويب فيه.

والحضارة الإسلامية هي حضارة تقوم على الإسلام؛ حيثُ إن الفكر الإسلامي هو الذي بناها وشيدها، وهي حضارة إنسانية تشمل مختلف جوانب الحياة ،كما أنها حضارة ربانية تعود إلى العلم الذي جاء به الرسول -صل الله عليه و سلم- وقد استفادت الحضارة الإسلامية من مختلف الحضارات السابقة في قيامها وقد تفوقت عليها، فرفعت من شان الشورى والعدالة والمساواة والحرية ومختلف الحقوق الإنسانية .و يمكن القول أن الحضارة الإسلامية هي حضارة نتجت من تفاعل مجموعة الثقافات الخاصة بالشعوب التي دخلت في دين الاسلام، كما انها خلاصة تفاعل الحضارات الموجودة في المناطق التي وصل إليها الإسلام أثناء الفتوحات الإسلامية.

وعلى رأسهم مؤسس علم الاجتماع وعالم نقد التاريخ عبد الرحمن بن خلدون الذي حاول في مقدمته المشهورة أن يضع الأسس التي تساعد المؤرخ على تفهم أحوال الدول وتقلباتها وأسباب اضمحلالها، والمجتمعات وأسباب رقيها وانخفاضها، وليس هذا موضع تفصيل نظريات ابن خلدون في مقدمته التي وضعها لفهم حقائق التاريخ.

وكذلك نظرة هيجل تجاه قضية الحرب والسلام غريبة نوعًا ما، وتحتاج قدرًا من التأمل، فهو يرى ضرورة وأهمية وجود الحروب بين الشعوب، "وإذا كان فلاسفة القرن الثامن عشر قد دافعوا عن ضرورة السلام بين الشعوب، فإن هيجل لا يجد غضاضة في القول بأن الحرب حالة ضرورية بين الشعوب، وأنها تلعب دورًا كبيرًا في تاريخها فالحرب تحرك حياة الشعوب ولا تجعلها تتكاسل وتستكين، إنها في نظره دليل على الصحة وسلامة الأخلاق وبدون الحروب تفقد الشعوب تدريجيًّا معنى الحرية، وتتمسك بالحياة المادية وحدها وإذا عاشت الشعوب في سلام زمنًا طويلاً فإنها تفقد حياتها ووجودها، فالرياح التي تهب فوق مياه البحيرة تحفظها من الركود والعفن.

ولفهم عوامل السقوط ، لا بدّ من التأمل في عوامل الازدهار.. لأنه إذا جفّت منابع التطوّر انهارت الأُمم. وفي هذا، يُمكن القول أن عوامل ازدهار أي حضارة وبقاءها على قيد الحياة يتطلب وجود مجموعة من العوامل هي: العامل الديمغرافي (السكان) ،الفائض في الغذاء، حكومة مركزية قوية، الوحدة الدينية والثقافة ، تقسيم العمل ، وشكل السياسة الضريبية المفروضة (السياسة الاقتصادية).

ولقد مر العالم الإسلامي في هذا العصر بما يشبه التيار الجارف، أو العاصفة العاتية التي تخيف الإنسان وتذهله، إنها أحوال تذهل المفكر والعالم المتبصر وتزعج السياسيين الدهاة، ويحار فيها الفرد، وتضل منها العقول، فنجد أنفسنا أمام اضطراب فكري هائل، لا ندري أين الصحيح؟

ولقد مر العالم العربي بعدة تحديات منها اتفاقية اتفاقية -سايكس بيكو- لتقاسم خيرات الرجل المريض "الدولة العثمانية"، حيث أن أغلبية الدول العربية والإسلامية كانت تقريبا حتى منتصف القرن العشرين تحت وطأة الاستعمار بكل ما يحمله من معنى، ولم تحصل على استقلالها السياسي إلا في بداية الخمسينات إلى الستينات من القرن العشرين عن طريق ظهور حركات التحرر التي قامت بحروب التحرير وأنهت وجود الاستعمار الغشيم .

تري هل يظل صراع الحضارات متطورا الي الان خاصة بعد تطوير مشروع خاص بالولايات المتحدة وهو مشروع مونارك المشروع الذي يجعل صراع الحضارات مشتعلا ما بين الدول جميعا خاصة الولايات المتحدة بقسيمها للعالم تري ما هو مشروع مونارك ومن ثم بعض من أساليب

الولايات المتحدة واليهود للسيطرة علي العالم عن طريق هذا المشروع تري ما هو مشروع مونارك للسيطرة علي العالم ؟

ومشروع مونارك هو مشروع للتحكم والعقول والسلوك البشري في منتصف القرن العشرين ظهرت العديد من النظريات الخاصة حول علم النفس الإنساني وكيفية التأثير علي سلوك الجماهير فلاحظ العلماء أنه و بوجود طريقة علمية حديثة للبحث والتجريب ربما يستطيعوا التحكم في السلوك الإنساني في أنشطة معدة ومرتبة له سلفًا، التقطت الفكرة أجهزة المخابرات الأمريكية عام 1954م فبدأت بالتعاون مع شخصيات بارزة في المجتمعات العالمية في وضع "برنامج أو نظام بشري يضمن سلامة السلوك الجماهيري والسيطرة على وسائل الإعلام وغسل أدمغة الشعوب محل الاستهداف".

فظهر مع بدايات 1955 مشروع مونارك "monarch" وهو تطور عن مشروع غسل الأدمغة والتحكم في الأفكار الإنسانية تم عام 1945م تحت تجربة النازيين، المُثير أن المشروع الجديد المُطور كان أقوى وأخطر من المشروع القديم فهو يحتوي على أربعة برامج مختلفة هدفها تدمير الشعوب والأمم:

مشروع مونارك الأول "العاهل الأول للموسيقي": انطلق رسميًا عام 1980 من خلال غسل أدمغة الشعوب عبر الموسيقي فاستطاع العلماء اكتشاف كيفية السيطرة على الشعوب من خلال زرع أفكار مثل "الجنس والإباحية، الفوضى، الاغتيالات.. إلخ " عبر كلمات الأغاني وبطريقة معينة بحيث تخترق العقل البشري وتصبح فكرة مخزنة في العقل الباطن مُسبقًا، كذلك طوروا موسيقى ذات ترددات عالية 1600م/ هرتز في الدقيقة معروفة حاليًا باسم "المخدرات الرقمية" وهي نوع معين من النغمات والذبذبات تستطيع الوصول إلى مراكز الذاكرة والنشوة لتحقق نفس مفعول الإدمان الحقيقي للمخدرات..

كيف لم نفكر: إذا كانت الزيادة سببًا لتخلف الدول لكانت الصين والهند أكثرنا تخلفًا ولما سمحت دول مثل "السويد، كندا" المهاجرين بالدخول إلي أراضيها.

مشروع مونارك "الجنس الفريد": من ضمن برامج المشروع تلك الخطة الطموحة التي تعتمد علي "اليوجينا" وهو مبدأ اعتمده العالم البريطاني "فرانسيس جالتون" عام 1896 م

الذي يرى "أن ذوي البشرة البيضاء فقط هم من يستحقون الحياة وأن أصحاب البشرة السمراء من أي جنس فقط يستخدموا لأغراض طبية وبحثية كفئران تجارب، وكان يؤمن بضرورة تحسين النسل وانتخاب أفضل الصفات البشرية في الإنسان".

وبدأت أول الخطوات في الأمم المتحدة مع إنشاء منظمة "اليونسكو" عندما تم تعيين رئيسها مناصر اليوجينا "جوليان هكلسي" الذي كان أول قرار أصدره هو منح حق الإجهاض للمرأة وناصر العديد من ممولي البرنامج مشروعات سنوية لما يعرف بـ "كبح النمو السكاني" الذي مازال مستمراً إلى اليوم في صورة تشريعات وقوانين أبرزها القانون الذي أصدرته الصين عام 1988 بمنع زواج المعاقين ذهنيًا أو عضويًا إلا بعد "تعقيمهم" نهائيًا والسماح بالإجهاض كجزء من حرية المرأة فكان من نتائجه أن أُجهضت 53 مليون امرأة فقط في الصين!

أما بالنسبة للعالم العربي فكان هو الآخر على موعد في التسعينات مع خطة أخرى، لكن هذه المرة في ما يعرف بحبوب منع الحمل التي روجت لها القنوات والإذاعات المحلية للدول محل الاستهداف وعلى طريقة السياسي الكبير "نعوم تشومسكي" حينما قال "إذا أردت أن تُسيطر على الشعب أجعله يعتقد أنه هو سبب تخلفه" بدأت حملات ترشيد الزيادة السكانية في مصر ومعظم الدول العربية، وأنا لا أدري كيف لم نفكر فيها إحصائيًا فإذا كانت الزيادة سببًا لتخلف الدول لكانت الصين والهند أكثرنا تخلفًا ولما سمحت دول مثل "السويد، كندا" المهاجرين بالدخول إلي أراضيها، بل أغفلنا نقطة هامة وهي أن الوطن العربي وهو الآن 400 مليون نسمة يعادل تقريبًا رقم الولايات المتحدة التي تُصدر لنا هذه الثقافة والتي تجاوزت الآن 320 مليون.. أي منطق يتحدثون عنه لا أعلم صراحةً؟!

برنامج "مسرح الشارع": الخطة التالية من برنامج العاهل الموجه للأفراد هو تغيير النظام الخاص بالحياة الاجتماعية البشرية في دول العالم الثالث خصوصاً.. كلمة "مسرح الشارع" استخدمت في برنامج "مونارك العاهل" لأول مرة عام 1965 وكانت تهدف في الأساس لتدمير المجتمعات الشيوعية في أمريكا الجنوبية فزرعت الوكالة الفيدرالية مروجي الخمور والمخدرات وساعدوا على تفوقهم على حكوماتهم اللاتينية بعدها اتجهوا لتطوير العمل في

الدعارة وبيع الأطفال جنسيًا! وكل ذلك كان هدفه خلخلة المجتمع الشيوعي ضمن استراتيجية الحروب البارد.

وفي القرن الحالي عاد المسرح من جديد لكن بوسائل أخرى من خلال زرع الأفكار الإباحية والهمجية وسط الشباب العربي، إعلاء دور الفن الهدام وتغييب دور الدين، نشر وغرس سلوكيات تدميرية موجهة. وخلال سنوات طويلة من البحث والتجريب على شتى أنواع المُلهيات أظنها إستراتيجية ناجحة وفعالة، وأن لقب مسرح الشارع ليس من فراغ فالكل يؤدي دورًا في مسرحية وضع السيناريو الخاص بها نظام عالمي أكبر.

مشروع مونارك ليس مجرد مشروع عقلي فقط بل نظام حياتي مرسوم بدقة وعناية بالغة من أجل تحوير النظام البشري الاجتماعي الذي من المؤكد اختلف كثيرًا عما كنا نعيشه.

مشروع مونارك "التحول الغذائي": خلال سنوات طويلة كانت الأبحاث التسويقية تقول أن العالم قادم على انفتاح ضخم عُرف بعدها باسم "العولمة" وكانت من ضمن الخطط الرئيسية التي عمل عليها مشروع مونارك هو السيطرة على العناصر الغذائية الأكثر مبيعًا في ذلك العالم حينها والتي يجب أن تكون الأمم العالمية متحكمة بها وتُمثل تفوقًا وهيمنة سياسة واجتماعية فبدأت حركة غزو العالم عبر "الوجبات الجاهزة، المشروبات الغازية، العناصر الاستهلاكية".

وبلعبة كبرى مولت الحكومة الأمريكية مشاريع وسلاسل ضخمة من متاجر الوجبات السريعة مثل "بيتزا هات، ماكدونالدز.. إلخ" فربطت العالم بثقافة النظام سريع الإيقاع الذي لن تجد فيه وقت لأن تُعد طعامك بنفسك، كذلك سيطرت على قطاع المشروبات الغازية، وللمعلومة فإن برميل البيبسي "الذهب الأسود الأمريكي" إن صح التعبير يعادل 100 دولار طبقًا لمعادلة تجدها على جوجل نفسه بينما سعر برميل البترول اليوم هو 53 دولار فقط! ولذلك لا عجب حينما نتحدث أن أرباح الولايات المتحدة من المشروبات الغازية كل عام 125 مليار دولار.. أما بالنسبة للعناصر الاستهلاكية كأدوات التجميل والشامبو وغيرها فهو القطاع الأكثر دخلاً بـ 210 مليار سنويًا منها 10 مليارات فقط من السعودية حسب آخر تقرير صادر لعام 2013!!

وبشكل عام فإن مشروع مونارك ليس مـجرد مشروع عقلي فقط بل نظام حياتي مرسوم بدقة وعناية بالغة من أجل تـحوير النظام البشري الاجتماعي الذي من المؤكد اختلف كثيرًا عمـا كنا نعيشه قبل سنوات طويلة.. إن الهدف الرئيسي لكل ذلك ليس فقط سيطرة سياسية وعرقية وهيـمنة ثقافية على دول قد تُمحي من الوجود خلال سنوات قادمة، بل إمعانًا في إذلال تلك الشعوب الضعيفة بسحق مقدراتها ونظامها الحياتي ونوعًا من الاستعمـار الناعم.

المراجع

ابن الأثير:(أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المتوفى عام: 630هـ / 1233م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية،بيروت، ط1418،1هـ – 1998م.

2. أحمد أمين: ضحى الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2002م.

3. أحمد سيد محمد: (دكتور): الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1992م.

4. أسد رستم: مصطلح التاريخ، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1423هـ – 2002م.

5. إسماعيل أحمد محمد ياغي:(دكتور): مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه، العبيكان الرياض، ط2، 1424هـ.

6. آليان . ج. ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1996م.

7. بيريل سمالي:(دكتور): المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة: د. قاسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1984م.

8. جان تولا: صناعة المؤرخ، ترجمة وتقديم: د. عادل العوا، دار الكلمة، دمشق، ط1، 1999م.

9. جمال حمدان: (دكتور): شخصية مصر– دراسة في عبقرية المكان-، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط2 ، 2013م.

10. حسن عثمان:(دكتور): منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ط11، 1993م.

11. حسين فوزي النجار: التاريخ والسير، دار القلم، القاهرة، ط1، 1964م.

12. حسين مؤنس:(دكتور): التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1984م.

13. ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المتوفى عام:808هـ/1405م):المقدمة تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2006م.

14. روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة : د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط2، 1403هـ.

15. السخاوي:(علي بن أحمد بن عمر بن خلف الحنفي، المتوفى عام: 902هـ/ 1497م): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، نشره روزنثال في كتابه: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: د. أحمد صالح العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1983،2م.

16. سعد بدير الحلواني: (دكتور): تأريخ التاريخ، مدخل إلى علم التاريخ ومناهج البحث فيه، (ب ــ ن)، القاهرة، ط4، 2002م.

17. سيدة إسماعيل سيد كاشف:(دكتورة): مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1983م.

18. شاكر مصطفى:(دكتور): التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1983م.

19. شوقي الجمل: (دكتور): علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه، المكتب المصري للمطبوعات ، القاهرة، ط1، 1997م.

20. عادل حسن غنيم: (دكتور): في منهج البحث التاريخي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2015م.

21. عبد العزيز الدوري:(دكتور): بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، العبيكان، الرياض، ط2، 1420هـ.

22. عبد العليم عبد الرحمن خضر: (دكتور): المسلمون وكتابة التاريخ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط2، 1995م.

23. عطية أحمد محمود القوصي:(دكتور): علم التاريخ ومناهج البحث والتدوين التاريخي عبر العصور، (ب. ن) ، ط1، 1984م.

24. علي إبراهيم حسن: (دكتور): استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام وفي التاريخ المصري الوسيط، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1980م.

25. عيد سعيد مرعي:(دكتور): منهج البحث التاريخي، مكتبة الخبتي، بيشة، ط1، 1426ه.

26. قاسم عبده قاسم: فكرة التاريخ عند المسلمين، قراءة في التراث التاريخي العربي، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط1، 2001م.

27. هاري إلمربارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن برج، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1987م.

28. هيوج . اتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة: محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، (ب ــ ت).

. 29ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المتوفى عام:808هـ/1405م): المقدمة، تحقيق: على عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006م، جـ1، ص 13.

.30إسماعيل أحمد محمد ياغي: مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه، العبيكان، الرياض، 1424هـ، ص 101.

.31قاسم عبده قاسم: فكرة التاريخ عند المسلمين، قراءة في التراث التاريخي العربي، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2001م، ص 14 ـ 15.شوقي الجمل: علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه، المكتب المصري للمطبوعات ، القاهرة، 1997م، ص10.

.32صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي تأليف: صامويل هنتنجتون ترجمة طلعت الشايب تقديم: د. صلاح قنصوه طبعة ثانية 1999.

33-أحمد أمين سليم : دراسة تاريخية لنشأة الاسرة الثالثة وتطورها السياسي والحضاري , (رسالة دكتوراه), الاسكندرية 1981م .

34-أحمد أمين سليم : دراسة تاريخ ايران القديمة وحضارتها , ط 1 : أيران منذ اقدم العصور حتي أواسط الالف الثالث قبل الميلاد , بيروت 1988م .

35-أحمد أمين سليم :دراسات في تاريخ الشرق الادني القديم , مصر والعراق وايران , بيروت 1988.

36-أحمد بدوي : هيرودوت يتحدث عن مصر , القاهرة 1966م .

-أحمد فخري : الاهرامات المصرية , القاهرة 1963.

37-أحمد فخري :مصر الفرعونية القاهرة 1971م .
38-أحمد محمود صابون : حور محب (رسالة ماجستير) الاسكندرية 1980م .
39-جبرائيل سعادة : راس الشمرة – أوجاريت , اللاذقية 1968م .
40-حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم , الاسكندرية 1971م .
41-رشيد الناضوري : أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان , الاسكندرية 1968م .
42-رشيد الناضوري : المغرب الكبير , بيروت 1981.
43-رشيد الناضوري : المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غرب أسيا وشمال أفريقيا , الكتاب الأول , بيروت 1968م .
44-سليم حسن : مصر القديمة , جـ 4 , عهد الهكسوس وتأسيس الامبراطورية , القاهرة 1948م
45-سيد الناصري : الاغريق , تاريخهم وحضارتهم , القاهرة 1981م.
46-عبدالعزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها , الجزء الأول , القاهرة 1962 .
47-عبدالعزيز صالح : الشرق الادني القديم , الجزء الاول , مصر والعراق , الطبعة الثانية , القاهرة , 1980م .
48-محمد إبراهيم بكر : تاريخ السودان القديم , القاهرة 1971م .
49-محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الادني القديم من أقدم العصور إلي مجىء الاسكندر , بيروت 1981 .

المجلات:

مجلة الجامعة المستنصرية.

مجلة جامعة الأنبار.

المجلة المحكمةajps.

مجلة جامعة دمشق.

المواقع الالكترونية:

المنارة للاستشارات الأكاديمية.

مركز مؤرخ.

منصة سهل التعليمية.

جريدة الغد.

موقع study.com

موقع بوابة الاهرام.

موقع journals.ekb.eg

موقع الجمهرة.

موقع الاكاديمية التعليمية.

موقع سيراكيوز بوابة الوثيقة.

موقع مبتعث للدراسات والأستشارات الأكاديمية.

مؤسسة هنداوي.

المواقع الالكترونية الحديثة 2:

1-موقع درر العراق.

2- موقع إجابة.

3- موقع تبيان تصنع الوعي.

4- موقع مسبار.

5- موقع الجزيرة نت.

6-جريدة المصري اليوم.

6-موقع المتحف المصري الجديد.

7-موقع وميل الأمريكي.

7- موقع الجامعة المستنصرية.

8-موقع اسلام ويب.

9-ايجيت جيوغرافيك.

10- الهيئة الوطنية للأعلام.

11-موقع ادد عربي.

12- موقع الدرر السنية.

13-موقع الحضارة.

المحاضرات والأبحاث الجامعية:

مقياس: تاريخ الحضارة الانسانية

الأستاذ المسؤول عن المادة: أ. د عبيد نصرالدين

بحث عن نظريات وأسباب سقوط الحضارة الرومانية الغربية.

محاضرات الدكتور حسن احمد إبراهيم.